البخور من حانوتِ عَطّار

البخور من حانوتِ عطّار.. المستَفادُ من كتبِ الآدابِ والأخبارِ المَرْوِيُّ عن أبي عامرٍ ابنِ شُهَيد

د. إسماعيل بن حمد السالمي (باحث عُماني)

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022

الآن ناشرون وموزعون

الأردن، عمّان

alaan. publish@gmail. com

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

سلطنة عمان، مسقط

omani- writers@hotmail. com

هاتف: 96824346753+ / 96824346754+

المدير العام: د. باسم الزعبي

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

رقم الإيداع في سلطنة عمان: (2021/4091)

ISBN: 978- 99969- 863- 8-3

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية الأردنية: (2021/12/6782)

د. إسماعيل السالمي

البخور من حانوتِ عطّار

المستفادُ من كتبِ الآدابِ والأخبارِ
المَرْوِيُّ عن أبي عامرِ ابنِ شُهَيد

الجمعية العُمانية للكتّاب والأدباء
THE OMANI SOCIETY FOR WRITERS & LITERATI

إهداء

إلى معاذ بن إسحاق بن إسماعيل السالمي

عيناكَ تَجُوبانِ الأُفُقَ، وابتسامتُكَ تجرحُ القلوبَ، أتيتَ إلى الدنيا ولم تَرْتَوِ منها إلّا بالماءِ القَراحِ، لمْ تَنظرْ إلى ثَمْرِها وعِنَبِها، ما أغْرَتْكَ أسماكُها وبحرُها على شاطئِ السِّيبِ.

السماءُ كَوكبُك، وجَدائِلُ الشمسِ مَرتَعُكَ وملعبك، أتيتَ لتنظرَ بعينيكَ سعةَ الدنيا، فما وَسعَتْك، وتَدحْرجتَ فيها سنواتٍ، فلمْ تَنلْ رضاك، فَغادَرْتَها، ولمْ تأخذْ منها قِيد أُنمُلَة.

أسألكَ لِمَ نلهفُ وراءَها ونحن نَعرِفُها؟ ما الذي زَيَّنها لنا؟ ونحنُ نعرفُ أنَّها عجوزٌ شَمْطاءُ؟

(عَجـوزٌ- لَعَمْـرُ الصِّـبا – فانِيَـةْ لهـا في الحَشـا صـورةٌ الغانيـةْ)

«ابنُ شُهَيد»

جدُّك/ إسماعيل بن حمد السالمي

مقدمة

نحاولُ في هذا الكتابِ أنْ نبحثَ ولا نقول ذلكَ، بل أنْ نَحفرَ بحثًا عن آثارِ بَقايا كتابِ «حانوت عطّارٍ» لِابنِ شُهَيد أبي عامرٍ أحمدَ بْنِ عبدِ الملكِ بْنِ أحمدَ الأشجَعيِّ الأندلسيِّ.

وإنْ كانَ ابنُ شُهَيد شاعرًا فإنَّهُ بِرسالتِهِ «التوابعُ والزوابعُ» ومقطَّعاتِهِ النقديّةِ، وما رُوِيَ ونُقِلَ عن كتابِ «حانوت عطّارٍ» من اشتمالِهِ على ذِكْرٍ للأدباءِ وذكرِ أشعارِهِمْ، ومناقشاتِهِ الأدبيّةِ، فلا رَيْبَ أنْ نقولَ: كتابُ «حانوتِ عَطّارٍ» من الموسوعاتِ الأدبيّةِ النقديّةِ.

والنقدُ العربيُّ أخذَ أثرَهُ منذُ كانَ للشعرِ العربيِّ قيمةٌ إعلاميّةٌ، ومَفخرةٌ للقبيلةِ أنْ يولَدَ فيها شاعرٌ يُدافعُ عَنْها، وتتردَّدُ أصداءُ أشعارِهِ في الحياةِ، فأخذَتْ أسواقُ العربِ الشعريّةُ مكانتَها في النقدِ الأدبيِّ في كثيرٍ من الأماكنِ والتجمّعاتِ التجاريّةِ والمُدنِ، وكانَ الشاعرُ هو الناقدُ والحَكَمُ.

وكانَ للشاعرِ العربيِّ تعاملٌ معَ النفسِ الإنسانيّةِ، سواءٌ في الافتخارِ بنفسِهِ أو بقبيلتِهِ وعِزِّها، وفي الحماسةِ مَزْهُوًّا بنفسِهِ. ولا غَرْوَ أنْ يكونَ لجانبِ الغزلِ والنشوةِ مكانٌ ساطعٌ في المقدَّماتِ الشعريّةِ أو الطَّلَليّاتِ التي تبنّاها الشاعرُ، فالمرأةُ والخمرةُ من ذائقةِ الأديبِ وملاحظاتِهِ حولَ الحياةِ، ووصفُ الناقةِ والخيلِ والحيوانِ. فالشعرُ هو الإنسانُ بكلِّ جَدَليّتِهِ وتجلّياتِهِ من فرحٍ وحزنٍ وجمالٍ، يتجلَّى الآفاقَ الكونيّةَ والطبيعةَ، يرسمُها بآفاقِهِ اللسانيّةِ ودلالةِ المَعْنى.

وما إنْ جاءَ الإسلامُ حتّى بزغَ نوعُ القصيدةِ الدينيّةِ، وإنْ لم تتغيّرِ القصيدةُ عن أسلوبِها الجاهليِّ عندَ بدايةِ صدرِ الإسلامِ، فالشاعرُ يُكافحُ عن الدينِ الجديدِ بنفسِ الأسلوبِ الّذي كانَ يكافحُ بلسانِهِ عن قبيلتِهِ ومفاخرِها، وغَيَّرَ في مفهومِها ليجعلَها عالميّةً، يتكلَّمُ بلسانِ الدينِ الجديدِ وليسَ في عُنقِ زجاجةِ القبيلةِ.

وظهورُ القرآنِ الكريمِ بينَ يدَيِ الأمّةِ وتحدّيهِ لها بأنْ تأتي بآيةٍ من مثلِهِ لهُ أثرٌ في إعادةِ القراءةِ النقديّةِ وأسلوبِ الشاعرِ، معَ المحافظةِ على الإبداعِ الشعريِّ، وسيُدْخِلُ هذا نوعًا من النقدِ وهو متابعةُ النثرِ وخصوصًا الخطابةَ، ولتظهرَ الخطابةُ بنوعٍ أيضًا في الحِجاجِ الكلاميِّ والإبداعِ فيهِ.

وسنلاحِظُ النقادَ بعدَ ذلكَ يتابعونَ كثيرًا من الخطباءِ فيما قبلَ الإسلامِ كقُسٍّ بنِ ساعدةَ، أو كلامِ الكُهّانِ، أو كخُطبتَيِ العربِ: العجوزِ والعذراءِ، إضافةً إلى تسجيلِهم لكثيرٍ من كلامِ المُتنبِّئينَ، ومِن ثَمَّ لتظهرَ كتاباتٌ ككليلةَ ودمنةَ، وغيرِها من مجالسِ الأدبِ، أو حلقاتِ تسجيلِ الحديثِ النبويِّ، والاهتمامِ بتفسيرِ القرآنِ الكريمِ، وحتّى في تسجيلِ المراسلاتِ وتواقيعِ الأمراءِ ورجالِ البَلاطِ على الرسائلِ والمُطالَباتِ، وأسلوبِ هذا التوقيعِ أو ذاكَ، إضافةً إلى المجالسِ والمُطارحاتِ الأدبيّةِ والدينيّةِ بينَ العلماءِ، كما بينَ الخليلِ الفراهيديِّ وابنِ المقفَّعِ وغيرِهما. ولاستنباطِ النحوِ العربيِّ سواءٌ كانَ من تفكيرِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ أو وضعِ أبي الأسودِ الدؤليِّ لأُسُسِهِ، أو ما وضعَه الخليلُ بنُ أحمدَ من قواعدَ لعَروضِ الشعرِ العربيّةِ أيضًا، لها ظاهرةٌ وركيزةٌ في تقدّمِ النقدِ الأدبيِّ.

وما إن انتشرَ الإسلامُ وأرسى دعائمَهُ في تكوينِ دولتِهِ العالميّةِ حتى بدأَ

الشعرُ يحملُ الفكرَ الشعوبيَّ، وهذا منبعُهُ الاختلاطُ الفكريُّ والثقافيُّ والقوميُّ، والترجمةُ، فكوّنَ مدرسةً لها أسلوبُها الخاصُّ، كانَتْ آثارُها واضحةً في زمنِ الدولةِ العباسيّةِ.

إنَّ الانصهاراتِ والزخمَ في تأليفِ المعرفةِ وَلّدا ثورةً في نهضةِ الأدبِ وتتبُّعِهِ من شعرٍ ونثرٍ ونقدٍ أدبيٍّ، فكانَ علمًا متكاملًا في وقتِهِ، كذلكَ ما للترجمةِ من أثرٍ، حيثُ تُرجِمَتْ كتبٌ أدبيّةٌ وعلميّةٌ من لغاتٍ أخرى.

وما زالَ النقدُ في العصرِ الحديثِ يأخذُ رونقَهُ بموسوعةٍ أكثرَ شموليّةً، وهيَ العالميّةُ بمختلِفِ اللغاتِ ليُقاسَ ويُدرَسَ منهُ بكلِّ اللغاتِ حسبَ استيعابِها ومَقْدرتِها في ضَوْعِ العبيرِ الثقافيِّ.

واتساعُ العلومِ النقديّةِ وقوّةُ الأدبِ العربيِّ عامّةً في شرقِ أو غربِ العالمِ العربيِّ الإسلاميِّ كانَ لهُ أثرُهُ في النقدِ الأندلسيِّ بشكلٍ واضحٍ. ويرى الدكتور قاسم الحسينيّ أنَّ الأدبَ الأندلسيَّ وصلَ ناضجًا، إذْ يقولُ: «حينَ كانَ ينتجُ ما أنتجَ كانَ في نظري يحسُّ دومًا أنَّهُ بإزاءِ كيانٍ أدبيٍّ متميّزٍ على مستوى النشأةِ، إذْ وُلِدَ بدونِ طفولةٍ، وصلَ ناضجًا مكتملًا، فباتَ السّعيُ من الأندلسيِّ إلى إضافةِ المَزيدِ من النُّضْجِ والكمالِ، ونُشدانِ التميّزِ والتفرُّدِ»[1].

والمتتبِّعُ للنقدِ الأدبيِّ والكتابةِ الأدبيّةِ معَ ابنِ شُهَيد يلحظ تلكُمُ المقدرةَ الفائقةَ على النقدِ الساخرِ، وعلى ما أثارَتْهُ رسالتُه «التوابعُ والزوابعُ» من إلهامٍ، حتّى أوشكَ دارسونَ أنْ يُقدِّروا استلهامَ ابنِ شُهَيد لها مقارنةً بالإسراءِ

(1) الأدب الأندلسي.. القضايا والظواهر، ت: قاسم الحسيني، ص 6، المطبعة الحسنية، سلا، الرباط، 2007.

والمعراجِ، وبإلهامِ رسلِ اللهِ بالنبوّةِ، واستلهام ابنِ شُهَيد بالرحلةِ الأدبيّةِ التي قادَ مسيرتَها إلى مَرابعِ الجنِّ ولقاءِ الأدباءِ في عالمِ المجهولِ. أعطَوْها نوعًا مِن إلهامِ القرآنِ الكريمِ، ورحلةِ الإسراءِ، مُبعِدين ذلكَ عن الجدليّةِ الدينيّةِ، وإنّما الأخذُ والاقتباسُ لرحلةِ الإسراءِ والمعراجِ، ورحلةِ ابنِ شُهَيد المجهولةِ.

هذهِ الإشكاليّةُ وفقدانُ الكتابِ هما ما دَفَعانا إلى تتبُّعِ كتابِ «حانوتِ عطّارٍ» والبحثِ في مَظانِّ الكتبِ العربيّةِ عنهُ، وكذلك تتبُّع رسالته «التوابعِ والزوابعِ»، وما وردَ من كتابتِهِ في النقدِ، كان ذلك كلّه دافعًا أساسيًّا للبحثِ عَنِ كتابِ الحانوتِ.

وعندما كانَ من النادرِ الإلمامُ بالكتابِ، رأينا أنْ نَسِمَ هذا البحثَ بِاسمِ «بَخورٍ من حانوتِ عطّارٍ»، علَّنا نضعُ لَبِنةً في المكتبةِ الأدبيّةِ والنقدِ مفتاحًا لهذا الأثَرِ، وأنْ يتناولَهُ الباحثونَ بِدراساتٍ أعمقَ، منفصلةٍ لكلِّ كتابٍ وضعناهُ في هذهِ الدراسةِ.

وفيما وصَلَنا، لم يكنْ لِابنِ شُهَيد رأيٌ واضحٌ في نقدِ الشعرِ الذي قيلَ في الطبيعةِ، وذلكَ لِنَقصٍ في المعلومةِ، ونقصٍ في توفّرِ المادّةِ العلميّةِ. وندركُ كم كانَ الأندلسيُّ مفتخرًا وعاشقًا للطبيعةِ التي عاشَ فيها، بَل هيَ الجنّةُ لَدَيْهِ، فما يَضيرُهُ أنْ ينزلَ بعدَها إلى النارِ، فهيَ جنّتُهُ، يقولُ ابنُ خَفاجةَ[1]: (من البسيط)

يا أهلَ أندلسٍ للهِ دَرُّكُمُ ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنّةُ الخُلدِ إلّا في دياركُمُ وهذهِ كُنتُ لو خُيِّرْتُ أختارُ

(1) نقلًا عن الرؤية النقدية في الإبداع الشعري الأندلسي، د.قاسم الحسيني، ص31، منشورات: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط1، 2016.

لا تخشُوا بعدَ ذا أنْ تدخُلوا سَقَرًا فليسَ تُدْخَلُ بعدَ الجنّةِ النارُ

ويقولُ أيضًا: (من الرّمَل)[1]

إنَّ للجَنّـــةِ في الأندلـــسِ مُجْتَلَـى حُسـنٍ ورَيّـا نَفَـسِ
فسَـنا صُـبْحَتِها مـن شَنَـبٍ ودُجـى ليلتِهـا مـن لَعَـسِ
فـإذا مـا هبَّـتِ الـريحُ صـبًا صحتُ: واشوقي إلى الأندلسِ!

وبمقدارِ ما اهتمَّ ابنُ شُهَيد بالأدبِ الشرقيِّ والجاهليِّ في تتبّعِهِ للشعرِ، لا نقول: إنّهُ تركَ الأدبَ الأندلسيَّ، فأكثرُ وقوفِهِ وأعلامِهِ من شعراءِ الأندلسِ، إذْ تتبَّعْنا ما يَربو على ثلاثينَ أديبًا ذكرَهم في «حانوت عطّارٍ».

وبالمقارنةِ بكتابِ «الذخيرةِ في محاسنِ أهلِ الجزيرةِ» لابنِ بسّام الذي ذكرَ أنّهُ ألّفَ كتابَهُ ليُخلِّدَ تأريخ الأدبِ الأندلسيِّ، وجمعَ فيهِ من مختلِفِ المجالاتِ الأدبيّةِ والنثريّةِ لأدباءَ مختلفينَ، كما ذكرَ أنّه كتبَهَ مقارنةً بيتيمةِ الثعالبيِّ، وقامَ فيهِ بالكثيرِ من النقدِ الأدبيِّ، فلا يكادُ يذكرُ أديبًا ناقشَ معَهُ شيئًا من النقدِ والمقارنةِ الشعريّةِ معَ آخرينَ، فإنَّ كتابَ «حانوتِ عطّارٍ» الذي وضعَهُ ابنُ شُهَيد، ومن خلالِ القراءة في ما رُوِيَ منهُ، يعزّزُ صورةَ الأديبِ الأندلسيِّ لتكونَ ذخيرةً للنقدِ الأندلسيِّ والأدبِ عامّةً، يقولُ الدكتور قاسم الحسيني: «وأعتقدُ أنَّ رأيَ ابنِ شُهَيد هذا لا يمكنُ فصلُهُ عن السياقِ العامِّ الذي وردَ فيهِ، وهوَ سياقُ دفاعٍ عن الشخصيّةِ الأدبيّةِ الأندلسيّةِ، تلكَ التي استطاعَتْ بعدَ التقليدِ والمعارَضاتِ والمناقَضاتِ أنْ تُميّزَ نفسَها»[2].

(1) ديوان ابن خفاجة، ص117، دار صادر، بيروت، نفسه، ص151.
(2) الرؤية النقدية في الإبداع الشعري النقدي، قاسم الحسيني، ص 87.

إنَّ ما ذكرَهُ ابنُ بسّام في كتابِهِ «الذخيرةِ» عندَما ذكَرَ أبا عامرٍ ابنَ شُهَيد وغيرَه فقدْ أورَدَ نصوصًا كثيرةً من كتابِ «حانوتِ عطّارٍ»، رغمَ أنَّهُ لم يَذكُرْ ولا مرّةً اسمَ كتابِ «حانوتِ عطّارٍ»، وقدْ أورَدَ رسالةَ «التوابعِ والزوابعِ»، وكما ذكرَ ابنُ بسّام فإنَّ أبا عامرٍ ابنَ شُهَيد رسمَها بشجرةِ الفاكهةِ، وقدْ تناولَها كُثْرٌ بالدراسةِ والتحليلِ النقديِّ، وما تحمّلَهُ من آراءِ ابنِ شُهَيد النقديّةِ والفنيّةِ، وقارَنوا بينَها وبينَ رسالةِ «الغفرانِ» لأبي العلاءِ المعرّيِّ، وأيّ الرسالتَيْنِ أسبَقُ في الكتابةِ، وكانَ جليًّا أنَّ رسالةَ «التوابعِ والزوابعِ» هي الأسبَقُ.

وننوّهُ بذخيرةِ ابنِ بسّام، فإنّها تحتوي على تأريخ كبيرٍ في المعارفِ التاريخيّةِ والأدبيّةِ والأعلامِ، ونقفُ معَ ما أعلنَهُ ابنُ بسّام في مقدّمةِ «الذّخيرةِ» من أنّهُ يعزُّ على كتابِهِ أنْ يذكرَ فيهِ ما يَنْبو عن الأخلاقِ كالهجاءِ المُقْذِعِ، ولكنْ نرى عندَ ذكرِهِ لشعرِ ابنِ شُهَيد، أو لشعرِ السُّمَيْسِرِ أنّه لا يَتوانى عن ذكرِ السُّميسرِ بالمخنَّثِ، ويهتمُّ ابنُ بسّام في ذكرِ الأبياتِ بمثلِ ذلكَ، وكذلكَ بالنسبةِ إلى أبي عامرٍ ابنِ شُهَيد، ولَئِنْ كانَ ابنُ شُهَيد اشتهرَ معَ كثيرٍ من المؤرّخينَ أنّهُ متسكّعٌ في اللذّاتِ، فلم يشتهرِ السُّميسرُ بذلكَ إلّا ما ذكرَهُ ابنُ بسّام عنهُ. ومن الأبياتِ التي ناقشَها ابنُ بسّام في شعرِ ابنِ شُهَيد -وقد ذكرناها في موضعِها قولُه: (من المتقارب)

وذو عَرَقٍ ليسَ ماءَ الحياءِ ... ولكنّهُ رَشْحُ فضلِ الجَنابةْ

وكقولِهِ: (من الطويل)

فأتبَعْتُهُ ما سَدَّ خِلّةَ حالِهِ ... وأتبعَني ذِكْرًا بكُلِّ مَكانِ

رغمَ أنّ هذا البيتَ الأخيرَ قالَهُ ابنُ شُهَيد يصفُ كرَمَهُ، وابنُ بسّام حَرَّفَ

المَعنى. وثمّة بيتٌ لابنِ زيدونٍ، لم يذكرْهُ عندَ كتابتِهِ عنه، ولكنْ أوردَهُ في حديثِهِ عن ابنِ شُهَيد:

مَخَضَتْ في اسْتِهِ الأيورُ حَليبًا فعلَى عينِهِ من الزُّبْدِ نُقْطة

وملاحظةٌ تتكرّرُ كثيرًا معَ ابنِ بسّام حينَ يأتي بأبياتٍ كهذِهِ في شماتةِ شاعرٍ فإنّهُ يقولُ: قالَ بعضُ معاصرينا، وفي التقديرِ أنَّ هذهِ الأبياتَ لِابنِ بسّام وليسَتْ لِغَيرِهِ.

وابنُ شُهَيد بحسبِ ملاحقتِنا لكتابِهِ «حانوتِ عطّارٍ» سلكَ مَسْلَكَ التأليفِ في عصرِهِ أو ما قبلَهُ، ففيهِ الشعرُ والنّقدُ والرسائلُ والأخبارُ، ممّا يصلُ بهِ إلى الموسوعةِ التأريخيّةِ الأدبيّةِ، ومقارنة بعددٍ من الكتبِ الأدبيّةِ نوردُ أمثلةً منها في المشرقِ والمغربِ:

- «يتيمةُ الدهرِ في محاسنِ أهلِ العصرِ» لأبي منصورٍ عبدِ الملك الثعالبيِّ النيسابوريِّ –المتوفَّى سنةَ 429 هـ، والمولودِ سنةَ 350 هـ، وكذلكَ كتابُهُ «الإعجازُ والإيجازُ». ولم يقتصرْ على الترجمةِ بلْ لهُ آراءٌ نقديّةٌ، وقدّمَ كتابَهُ على أقسامٍ بحسبِ المناطقِ كالشّامِ والعراقِ... ، وهو من معاصِري ابنِ شُهَيد، وذكرَ نصوصًا من أعمالِ ابنِ شُهَيد الشعريّةِ والنثريّةِ.
- «إحْكامُ صَنعةِ الكلامِ» لِذي الوزارتينِ أبي القاسمِ محمّدِ بنِ عبدِ الغفورِ الكَلاعيّ الإشبيليِّ الأندلسيِّ، من أعلامِ القرنِ السادسِ الهجريِّ، كانَ معاصرًا لِابنِ بسّام، وكتابُهُ شاملٌ للشعرِ والنثرِ والأعلامِ، وقد وزَّعَهُ على أبوابٍ وفصولٍ.

- «جَـذوة المُقتـبِسِ في ذِكـرِ ولاةِ الأنـدلسِ» للحُميـديِّ أبـي عبـدِ اللهِ محمّدِ بـنِ أبي نصرٍ الأزديِّ المتوفَّى سنةَ 488 هـ، وقد نقلَ في كتابِهِ كثيرًا من «حانوتِ عطّارٍ» لِابنِ شُهَيد.
- كتابُ «الشعرِ والشعراءِ» تأليفُ أبي عبدِ اللهِ بنِ مسلمِ بـنِ قُتيبـةَ، المتوفَّى سنةَ 276هـ، ويتكلّمُ على الشعرِ نقدًا والشعراءِ أعلامًا.
- «العِقدُ الفريدُ» لِشهابِ الدينِ أحمدَ المعروفِ بِابنِ عبدِ ربِّهِ الأندلسيِّ، المولودِ سنةَ 246هـ، وهو كتابٌ شاملٌ جامعٌ من كتبِ الموسوعاتِ الأدبيّةِ.
- «الكامـلُ في اللغـةِ والأدبِ» لأبـي العبّـاسِ محمّـدِ بـنِ يزيـدَ المعـروفِ بالمُبَرِّدِ النحويِّ، المتوفَّى سنةَ 285هـ، وهـو جـامعٌ بينَ النحـوِ والشعـرِ والنقدِ.
- «التقريبُ لِحَدِّ المنطقِ والمدخلُ إليهِ بالألفاظِ العاميّةِ والأمثلـةِ الفقهيّـةِ» لأبي محمّدٍ عليِّ بـنِ أحمـدَ بـنِ حـزمٍ الأندلسيِّ المتوفَّى سنةَ 456هـ، ومن المحتمَلِ أنّه ألّـفَ كتابَـهُ هـذا سـنةَ 439هـ، وهـوَ من أصـدقاءِ ابـنِ شُهَيد، وقد قسمَهُ على كتبٍ، وفي كتابِهِ هذا كتابُ البلاغـةِ، وذكـرَ فيـهِ أنَّ ابنَ شُهَيد ألّفَ كتابًا في ذلكَ، وشهدَ لهُ بالمقدرةِ الفائقةِ.

ونسّقْنا هذا البحثَ في شكلِ كتبٍ كما كانَ ابنُ شُـهَيد وضـعَ كتابَـهُ «حـانوت عطّارٍ»، إذْ رأينا التقيُّدَ بذلكَ.

- منهج البحث

كتابُ «حانوتِ عطّارٍ» ذُكِرَ كثيراً في مصادرِ الكتبِ، ونظرًا لكونِ الكتابِ مفقودًا، فقد كانَ من الصعبِ جدًّا الإلمامُ بمادّتِهِ العلميّةِ، وواجهَتْنا العقباتُ في جمعِ ما أمكنَ من مادّةِ الكتابِ، وقد يكونُ للمتلقّي رؤيةٌ مُغايرةٌ، ولهُ نقدٌ في أسلوبِ الكتابِ وتقديم مادّتِهِ، ونوضِّحُ الأسلوبَ الذي اتُّبِعَ في جَمْعِ المادّةِ وتنسيقِها.

- جمع المادّةِ العلميّةِ

الصعوبةُ التي واجهَتِ البحثَ فقدانُ الكتابِ، وندرةُ المادّةِ، فالمادّةُ العلميّةُ ما هيَ إلّا شذراتٌ متناثرةٌ بينَ أوراقِ الكتبِ، ولا ترقَى إلى تكوينِ مادّةٍ متماسكةٍ، فمَنْ نَقلوا من كتابِ «حانوتِ عطّارٍ» لا يبيّنونَ بالتفصيلِ أو الإشباعِ لتلكَ المادّةِ، عدا أنَّ الكاتبَ نقلَ نَزْرًا، وأفادَ أنّهُ من كتابِ «حانوتِ عطّارٍ»، سواءٌ كانَ هذا عن أعلامٍ، أو حتى ما قالَهُ ابنُ شُهَيد في شعرِهم، إلّا بضعَ كلماتٍ لا تروي رِيَّ الظمآنِ.

- تقسيمُ أبوابِ الكتابِ

لا يوجدُ أيُّ ذكرٍ لتصنيفِ الكتابِ ومحتوياتِهِ إلّا ما أشارَ إليهِ ابنُ حزم في كتابِهِ «التقريب لحدِّ المنطقِ» بأنَّ الكتابَ في البلاغةِ، وأنّهُ قسّمَهُ إلى كتبٍ، فكانَ الرأيُ أنْ ينقسمَ الكتابُ إلى كُتبٍ بدَلًا من أبوابٍ أو فصولٍ، فَرَسْمُ الكتابِ بصورةِ كتبٍ من رأيِ الباحثِ، ورأَيْنا أنَّها الصورةُ المناسبةُ، سواءٌ لإخراجِ الكتابِ، أو لتوزيعِ المادّةِ العلميّةِ.

ففي كتابِ الأعلامِ أشارَ مجموعةٌ من المؤلّفينَ إلى أنَّ ابنَ شُهَيد ناقشَ شعرَ مجموعةٍ من الشعراءِ، ولكنْ لم ينقلْ أحدٌ من مؤرّخي الأدبِ آراءَ ابنِ شُهَيد بتوسّعٍ، ما عدا إشارةً لا تُوحي، ولا تُفيدُ غايةَ الباحثِ.

أمّا الإشاراتُ النقديّةُ فقد وضعْنا لها كتابًا منفردًا، قدّمْناهُ بمقدّمةٍ بسيطةٍ ليسَتْ بموضوعِ البحثِ والتدقيقِ، ثمَّ عرضْنا ما وجدْناه من آثارٍ مختلفةٍ، على شكلِ فصولٍ، وقد يراها المتلقّي مبعثَرةً متهلهلةً، ولكنَّ ذلكَ هو الموجودُ، وما لا يوجَد كلُّهُ لا يُتركُ كلُّهُ.

وكثرَتْ عندَ ابنِ شُهَيد مقطَّعاتٌ في الوصفِ والتشبيهاتِ، ورسائلُ قصيرةٌ في أوصافٍ شتّى، رأَيْنا أنْ نرسمَ لها كتابًا منفردًا.

وما تردّدَ في المنقولِ عنِ ابنِ شُهَيد من أخبارٍ كانَ جديرًا أنْ نعزلَهُ في كتابٍ آخرَ.

وقد أضفْنا إلى الكتابِ فهارسَ، تشمل الآياتِ القرآنيّةَ والشعرَ وأنصافَ الأبياتِ.

فكانَ تبويبُ البحثِ على النحوِ التالي:

- **الكتابُ الأوّلُ: أبو عامرٍ ابنُ شُهَيد**

وفي هذا الكتابِ إحاطةٌ بذكرِ شيءٍ عنِ ابنِ شُهَيد، وإطلالةٌ على الكتابِ، مثلُ: ما قيلَ عنهُ، وما مُدِحَ بهِ شعرًا، والرثاء الذي قيلَ فيهِ، وعن كرمِهِ، ولطائف أخرى من حكاياتٍ رُوِيَت.

كذلكَ بدأناهُ بمدخلٍ عنِ الأندلسِ ووصفِها، وفتحِ المسلمينَ لها، وعرّجْنا على مدينةِ قُرطبةَ التي هي عاصمةُ الأندلسِ، ومدينةُ ابنِ شُهَيد، لتضيءَ لنا بدايةَ الحديثِ عن أبي عامرٍ ابنِ شُهَيد.

- **الكتابُ الثاني: الأعلامُ**

ذكرْنا عددًا من الأعلامِ التي ذكرَها ابنُ شُهَيد في «حانوتِ عطّار»، واعتمدْنا كثيرًا على عباراتٍ من مثلِ «ذكرَهُ ابنُ شُهَيد، أو ذكرَهُ أبو عامرٍ في «حانوتِ عطّارٍ»، وهذا كثيرًا ما يوردُهُ الحُميديُّ في «جَذوة المقتبِسِ»، وفي «بُغيةِ الملتمسِ» للضبّيِّ، وهنالكَ أسماءٌ لم نحصل على معلوماتٍ تاريخيّةٍ أو أدبيّةٍ عَنْها، فأوردْناها كما هيَ.

وفي ذكرِ الأعلامِ أضفْنا معلوماتٍ مختصرةً ممّا قطفْناهُ من كُتبٍ عن هذهِ الشخصيّاتِ وأشعارِها ونثرِها لتخصيبِ المعرفةِ بالعَلَمِ، ولم نرغبْ في الإطالةِ.

- **الكتابُ الثالثُ: النقدُ في كتابِ «حانوتِ عطّارٍ»**

في هذا الكتابِ تقديمٌ عن النقدِ عندَ ابنِ شُهَيد، سواءٌ أكانَ عن نقدِهِ في رسالةِ «التوابعِ والزوابعِ»، أو من فصولٍ نقديّةٍ من هنا وهناكَ، ثمَّ ذكرْنا نصوصًا في النقدِ من كتابةِ أبي عامرٍ كفصولٍ نقديّةٍ، وما عقدَهُ ابنُ شُهَيد بينَه وبينَ الجاحظِ خاصّةً وابنِ سهلٍ وعبدِ الحميدِ، كذلكَ ما حاولَ أنْ يُعطيَ بهِ دروسًا عن طريقةِ تعلُّمِ أسسِ البيانِ، وفيهِ مناقشةٌ لنقدِهِ الشعريِّ والنثريِّ، وتحاملِهِ على معلّمي النحوِ كأسلوبٍ نقديٍّ، واعتمدَ في كتابتِهِ المناقشة كحوارٍ معَ كُتّابٍ كالجاحظِ وعبدِ الحميدِ، وكيفَ أنّهُ لم يتعرّض لكتّابٍ آخرينَ، وليسَتْ لَدينا مادّةٌ غزيرةٌ كَيْ نَرى النقدَ لديهِ بوضوحٍ.

- **الكتابُ الرابعُ: فصولٌ نثريّةٌ وأدبيّةٌ في الوصفِ والتشبيهاتِ**

يقولُ الدكتورُ محمّدُ بنُ شريفي عن التشبيهِ في الأندلسِ [1]: «إذا كانَ أبو تمّامٍ انتزعَ صورَهُ من تراثِ العربِ وأيامِها، ورواياتِها المُضريّةِ الحمراءِ واليمنيّةِ الصفراءِ لقربِ العهدِ بذلكَ، وسهولةِ تَهدِّي الناسِ يومَئذٍ إليهِ، فإنَّ الشاعرَ الأندلسيَّ استعملَ التشبيهَ نفسَهُ، ولكنْ قرّبَهُ إلى أهلِ عصرِهِ، وعامّةِ قُرّائِهِ، وأخذَهُ من لونَيْنِ مألوفَينِ هما: لونُ العُصْفُرِ، ولونُ الزعفرانِ...».

كتابٌ رسَمْنا فيهِ ما رُوِيَ عن ابنِ شُهَيد من نصوصٍ في الوصفِ، ورَوينا نصوصًا أدبيّةً كتبَها ابنُ شُهَيد، ومقتطَفاتٍ تشملُ جُمَلًا تعبيريّةً عن مواضيعَ بكلماتٍ مختصرةٍ، كقولِهِ في المواساةِ، وفي سلطانٍ، وفي ذمِّ رجلٍ، وغيرِ ذلكَ، بأسلوبٍ مختصَرٍ، ربَّما لا يزيدُ على جملةٍ أو جملتينِ، إذ أوردَ الأصفهانيُّ في «خَريدةِ القصرِ وجريدةِ العصرِ» فقراتٍ كثيرةً، غيرَ متوفّرةٍ في الكتبِ كالذخيرةِ ويتيمةِ الثّعالبيِّ، وغيرِها.

وفيهِ جُملةٌ من أوصافٍ، كوصفِهِ الحلوَى، وهذهِ تناولَها باحثونَ بالذكرِ كأنّها مستوحاةٌ من رسالةِ بديعِ الزمانِ، وأوصافٍ أخرى، كوصفِهِ للحمّامِ والبَرْدِ، وغيرِها، وهي أوصافٌ نثريّةٌ، أرادَ ابنُ شُهَيد أنْ يبيّنَ براعتَهُ في النثرِ، وبلاغتَهُ في الكتابةِ خارجَ بيانِ الشعرِ.

إنَّ كتابةَ ابنِ شُهَيد ورسائلَهُ التي وصلتْنا عدا رسالةَ التوابعِ والزوابعِ قصيرةٌ، ولم يُذْكَرْ عنهُ أنّهُ كتبَ رسائلَ في الوصفِ، أو مقارناتٍ كرسالةِ «السيفِ

(1) نقلًا عن: الرؤية النقدية في الإبداع الشعري الأندلسي، د.قاسم الحسيني، ص 67.

والقلمِ» لِابنِ بُرْدٍ، وغيرِهِ من الأدباءِ الذينَ وضَعوا رسائلَ ذاتَ مقارنةٍ أدبيّةٍ، وهذا الأسلوبُ تأثّرَ بهِ ابنُ الحنّاطِ الذي يقارنُ نفسَهُ ويناقضُ ابنَ شُهَيد في الكتابةِ.

- **الكتابُ الخامسُ: مَجلسُ الجنِّ**

لم يكنْ في نظرِنا أنْ نفصلَ مجلسَ الجنِّ عن رسالةِ «التوابعِ والزوابعِ»، وهو كتابٌ في النقدِ الساخرِ الفكاهيِّ، ولكنَّ كُثْرًا نقلُوا منهُ نصوصًا أحالُوها إلى كتابِ «حانوتِ عطّار»، وفي رأينا المتواضعِ أنَّ كتابَ «التوابعِ والزوابعِ» ليسَ كما ذكرَهُ عددٌ من المؤرّخينَ للأدبِ -سواءٌ عن قصدٍ أو غيرِ قصدٍ- من أنّهُ كتابٌ مستقِلٌّ أَلَّفَهُ ابنُ شُهَيد خارجَ «حانوتِ عطّارٍ»، بلْ هوَ جزءٌ منهُ.

- **الكتابُ السادسُ: أخبارُ البخور من «حانوتِ عطّارٍ»**

الرسالةُ التي ذكرَها ابنُ شُهَيد عن مقتلِ عبدِ اللهِ بنِ المنصورِ في كتابِهِ «حانوتِ عطّارٍ» دفعَتْنا أنْ نُخصّصَ كتابًا للأخبارِ، فأورَدْنا عددًا من الأخبارِ التي يمكنُ أنْ تكوّنَ ذاكرةً تأريخيّةً من خلالِ نصوصِ رسائلِهِ وأخبارِهِ الخاصّةِ.

خاتمة

ملحق: رسالة التوابع

والله ولي التوفيق.

إسماعيل بن حمد السالمي

الكتاب الأول

أبو عامر ابن شُهَيد

مدخل

عندما نتكلم عن أبي عامر ابن شُهَيد نجدُ أنفسنا بحاجة إلى تقديم مقدمة بسيطة عن بلاد الأندلس، لأنّ أسرة بني شُهَيد خدمت منذ بداية حكم الدولة الأموية بقيادة عبدالرحمن الداخل صقر قريش، واستمرّت العلاقة حتى انتهاء نسب أبي عامر بموته، ولم يُعقِب. فرأينا أن نضيف إطلالة سريعة على جزيرة الأندلس، وفتحها على يد المسلمين بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير. هذه الإطلالة قد لا تكون من كتاب «حانوت عطار»، ولكن بلا شك تعطينا نبذة عن هذه الحياة التي أنجبت جلّة من الأدباء والشعراء الذين أثْرَوا الأدب العربي بزخم من الشعر والأدب وفنون الثقافة حتى أصبحت منبرًا للأجيال القادمة تبني على أثرهم، وتتلقف ذلك الينبوع الرقيق، والشعورالنفسي، مع رقة في التعبير، وروعة المنطق الحسي والأدبي.

نبذة عن الأندلس[1]

حدود جزيرة الأندلس: فإن حدّها الجنوبي منتهى الخليج الرومي الخارج من بحر مانطس، وهو البحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط) مما يقابل طنجة في موضع يعرف بالزقاق، سعة البحر هنالك اثنا عشر ميلًا، وهذا الخليج هو ملتقى البحرين – أعني بحر مانطس وبحر أقيانس – وحدّاها الشمالي والمغربي البحر الأعظم، وهو بحر أقيانس (المحيط الأطلسي) المعروف ببحر الظلمة، وحدُّها المشرقي الجبل الذي فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين بحر الروم، وهو مانطس والبحر الأعظم، ومسافة ما بين البحرين في هذا الجبل قريبة من ثلاث مراحل وهو الحدّ الأصغر من حدود الأندلس، وحدّاها الأكبران الجنوبي والشمالي مسافة كلّ واحد منهما نحو من ثلاثين مرحلة، وهذا الجبل فيه هيكل الزهرة الذي هو الحد المشرقي من الأندلس، وهو الحاجز ما بين بلاد الأندلس وبين بلاد إفرنسة من الأرض الكبيرة أرض الروم التي هي بلاد إفرنجة العظمى. والأندلس آخر المعمور في المغرب لأنها منتهية إلى بحر أقيانس.

ومسافة ما بين طليطلة التي هي قريبة من وسط الأندلس ومدينة رومية قاعدة الأرض الكبيرة قريب من أربعين مرحلة، ووسط الأندلس كما ذكرنا مدينة طليطلة العتيقة التي كانت قاعدة القوط من قبائل الإفرنج ثم ملكها المسلمون زمان الفتح، وعرضها تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة وطولها

(1) المُعجِب في تلخيص أخبار المَغرب، تأليف: عبد الواحد المراكشي، تح: محمد سعيد، ص14، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط7، 1978.

ثمان وعشرون درجة بالتقريب، فصارت بذلك قريبًا من وسط الإقليم الخامس. وأقلّ بلاد الأندلس عرضًا المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء على البحر الجنوبي منها وعرضها ست وثلاثون درجة، وأكثر مدنها عرضًا بعض المدائن التي على ساحلها الشمالي وعرض ذلك الموضع ثلاث وأربعون درجة. فتبين بما ذكرنا أنّ معظم الأندلس في الإقليم الخامس أميل إلى الشمال، فلذلك اشتد بردها وطالت مدة الشتاء فيها، وعظمت جسوم أهل ذلك المِيل، وابيضّت ألوانهم، وكانت أذهانهم إلى الغلظ ما هي، فنَبَتْ عن كثير من الحكمة.

وطائفة من الأندلس في الإقليم الرابع كإشبيلية ومالقة وقرطبة وغرناطة والمرية ومرسية، فهذه البلاد في الإقليم الرابع أعدل هواءً وأطيب أرضًا وأعذب مياهًا من البلاد التي في الإقليم الخامس، وأهلها أحسن ألوانًا وأجمل صورًا وأفصح لغة من أولئك، إذ كان للميول والسموت في اللغات تأثير بيِّن لمن استقرأ ذلك وفهم علّته.

وجملة مدن الأندلس التي هي أمهات قراها ومراكز أعمالها ومواضع مخاطبات أولي الأمر منها، أولاها في الحدّ الشمالي مدينة شلب ثم مدينة إشبيلية ثم قرطبة ثم جيان ثم غرناطة ثم المريّة ثم مرسية ثم بلنسية ثم مالقة، وهي على البحر الرومي.

فالذي على البحر الأعظم من هذه المدائن شلب وإشبيلية وبينهما قريب من خمس مراحل. والذي على البحر الرومي المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وهي من أعمال إشبيلية ثم مالقة وهي مستقلة ثم المريّة ثم دانية، هذه كلّها على البحر الرومي، ثم سائر ما ذكرنا من المدن ليست على ساحل.

ولمّا استقرّ أمر المسلمين بالأندلس في غرة المئة الثانية تخيروا مدينة قرطبة فجعلوها كرسيّ المملكة ومقر الإمارة، فلم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولة بني أمية بالأندلس فتغلّبَ على كلّ وجهة من الجزيرة متغلِّب.

فهذه جملة من حدودها وبلادها الكائنة بأيدي المسلمين.

فتح المسلمين لبلاد الأندلس[1]

افتتح المسلمون جزيرة الأندلس في شهر رمضان سنة 92 من الهجرة، وكان فتحها على يدي طارق، قيل: ابن زياد وقيل ابن عمرو، وكان واليًا على طنجة مدينة من المدن المتصلة ببرّ القيروان في أقصى المغرب، بينها وبين الأندلس الخليج المذكور المعروف بالزقاق وبالمجاز، رتّبَه فيها موسى بن نصير أمير القيروان، وقيل إنّ مروان بن موسى بن نصير خلف طارقًا هناك على العساكر، وانصرف إلى أبيه لأمرعرض له، فركب طارق البحر إلى الأندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضراء منتهزًا فرصة أمكنته، وذلك أنّ الذي كان يملك ساحل الجزيرة الخضراء وأعمالها من الروم خطب إلى الملك الأعظم ابنته، فأغضب ذلك الملك ونال منه وتوعده، فلمّا بلغه ذلك جمع جموعًا عظيمة، وخرج يقصد بلد الملك، فبلغ طارقًا خلوّ تلك الجهة، فهذه الفرصة التي انتهزها، وقيل إنّ العِلج كتب إليه بالعبور لسبب، وهو أنّ لذريق ملك الجزيرة كان له رسم يوجّه إليه أعيان قوادّه وأمراء دولته ببناتهم، فيُربِّيهن

(1) المُعجِب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي، ص19.

عنده في قصوره، ويؤدِّبُهن بالآداب الملوكية حسبما كانوا يرونه، فإذا بلغت الجارية منهنّ وحَسُن أدبها زوّجَها في قصره لمن يرى أنه كفء أبيها، فوجَّه إليه صاحب الجزيرة الخضراء وأعمالها بابنته على الرسم المذكور، فكانت عنده إلى أن بلغت مبلغ النساء، فرآها يومًا فأعجبته، فدعاها فأبت عليه، وقالت: لا والله حتى تحضر الملوك والقواد وأعيان البطارقة وتتزوجني، هذا بعد مشورة أبي! فغلبته نفسه واغتصبها على نفسها، فكتبت إلى أبيها تُعلِمُه بذلك، فهذا كان السبب الذي بعثه على مكاتبة طارق والمسلمين، فكان الفتح، فالله أعلم أي ذلك كان.

فأول موضع نزله فيما يقال منها المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم، نزلها قبيل الفجر، فصلى فيها الصبح بموضع منها، وعقد الرايات لأصحابه، فبنى بعد ذلك هناك مسجدًا وعرف بمسجد الرايات، ثم دخل طارقٌ هذا الأندلس، وأمعن فيها واستظهرعلى العدو بها، وكتب إلى موسى بن نصير - مولاه - بخبر الفتح وغلبته على ما غلب عليه من بلاد الأندلس، وما حصل له من الغنائم، فحسده موسى على الانفراد بذلك، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان يُعلِمُه بالفتح، وينسبُه إلى نفسه، وكتب إلى طارق يتوعّده إذ دخلها بغير إذنه، ويأمره ألّا يتجاوز مكانه الذي ينتهي إليه الكتاب فيه حتى يلحق به، وخرج متوجهًا إلى الأندلس، واستخلف على القيروان ابنه عبد الله وذلك في رجب من سنة 93، وخرج معه حبيب بن أبي عبدة الفهري، ووجوه العرب والموالي وعرفاء البربر، في عسكر ضخم، ووصل من جهة المجاز إلى الأندلس،

وقد استولى طارق على قرطبة دار المملكة، وقتل لذريق الملك بالأندلس، فتلقّاه طارق وترضَّاه، ورام أن يستلّ ما في نفسه من الحسد، وقال له: إنّما أنا مولاك ومن قِبَلِك، وهذا الفتح لك وبسببك، وحمل طارق إليه ما كان غنم من الأموال، فلذلك نُسِب الفتح إلى موسى بن نصير لأن طارقًا من قِبَلِه، ولأنّه تَمَّ من الفتح ما كان بقي على يَدِ موسى.

وأقام موسى بالأندلس مجاهدًا وجامعًا للأموال، ومرتبًا للأمور بقية سنة 93 وسنة 94 وأشهرًا من سنة خمس وتسعين، وقبض على طارق، ثم استخلف على الأندلس ابنَه عبد العزيز بن موسى، وترك معه من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد، وسدّ الثغور، وجهاد العدو، ورجع إلى القيروان، ثم سار منها بما حصل له من الغنائم وأعدّه من الهدايا إلى الوليد بن عبد الملك، وكان ممّا وجد بمدينة طليطلة حين فتحها مائدة سليمان بن داؤود عليهما السلام، فيقال: إنها طوق ذهب وطوق فضة مكلّلَة باللؤلؤ والياقوت – ومعه - فيما يقال – طارق، فمات الوليد وقد وصل موسى إلى طبرية في سنة 96، وحمل ما معه إلى سليمان بن عبد الملك، ويقال: إنّه وصل وأدرك الوليد حيًّا فالله أعلم. وهذا ما جعل سليمان بن عبد الملك يحنق عليه غلًّا إلى أن مات موسى بن نصير طريدًا.

قرطبة[1]

مدينة ابن شُهَيد صاحب «الحانوت»، وهي قاعدة الأندلس، وأُمُّ مدائنها، ومستقَرّ خلافة الأمويين بها، وآثارهم فيها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر، وهم أعلام البلاد وأعيان الناس، اشتُهِروا بصحة المذهب، وطيب المكسب، وحسن الزّيّ، وعلوِّ الهمة، وجميل الأخلاق، وكان فيها أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وتُجّارها مياسير وأحوالهم واسعة.

وهي في ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضًا، وبين المدينة والمدينة سور حاجز، وفي كلّ مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمّامات وسائر الصناعات، وطولها من غربيِّها إلى شرقيِّها ثلاثة أميال، وعرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود ميل واحد، وهي في سفح جبلٍ مُطِلّ عليها يُسمّى جبل العروس، ومدينتها الوسطى هي التي فيها باب القنطرة. يقول ابن شُهَيد في رثائها: (من الكامل)

ما في الطَّلولِ مِنَ الأحَبَّةِ مُخْبِرُ ... فَمَنِ الذي عنْ حالِها نَسْتَخْبِرُ؟
لا تَسْأَلَنَّ سِوى الفِراقِ فَإنَّهُ ... يُنْبيكَ عنْهُمْ أَنْجَدوا أمْ أَغْوَروا؟
جارَ الزَّمانُ عَلَيْهِمُ فتَفَرَّقوا ... في كلّ ناحيةٍ وباد الأكثرُ
جَرَتِ الخُطوبُ على مَحَلِّ دِيارِهِمْ ... وَعليهمُ فتَغَيَّرتْ وَتَغَيَّروا
فَدَعِ الزَّمانَ يَصوغُ في عَرَصاتِهِمْ ... نَورًا تَكادُ لهُ القلوبُ تُنَوِّرُ
فَلِمِثْلِ قُرْطُبَةٍ يقلُّ بُكاءُ مَنْ ... يبكي بِعينٍ دَمعُها مُتَفَجِّرُ

(1) الروض المِعطار في خبر الأقطار، تأليف محمد بن عبدالمنعم الحميري، تح: د.إحسان عباس، ص456، منشورات مكتبة لبنان.

وفيها الجامع المشهور أمرُه، الشائع ذكرُه من أَجَلِّ مصانع الدنيا كبرَ مساحةٍ وإحكامَ صنعةٍ، وجمالَ هيئةٍ، وإتقانَ بنيةٍ، تهمّم به الخلفاء المروانيون، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميمًا إثر تتميم، حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحارُ فيه الطَّرف، ويعجز عن حسنِه الوصف، وليس في مساجد المسلمين مثله تنميقًا وطولًا وعرضًا، طوله مئة باعٍ وثمانون باعًا، ونصفه مُسَقَّف، ونصفُه صحن بلا سقف، وعدد قسِيِّ مُسَقَّفِه أربعَ عشرةَ قوسًا، وسواري مُسَقَّفِه بين أعمدته وسواري قببه صغارًا وكبارًا مع سواري القبلة الكبرى وما يليها ألف سارية، وفيه مئةٌ وثلاثَ عشرةَ ثريّا للوقيد، أكبر واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلّها تحمل اثني عشرَ مصباحًا، وجميع خشبه من عيدان الصنوبر الطرطوشي، وارتفاع الجائزة منه شبرٌ في عرض شبرٍ إلّا ثلاث أصابع، في طول كلّ جائزة سبعة وثلاثون شبرًا، وبين الجائزة والجائزة غلظ الجائزة، وفي سقفه من ضروب الصنائع والنقوش ما لا يشبه بعضها بعضًا، قد أُحكِم ترتيبها وأُبدِع تلوينُها بأنواع الحمرة والبياض والزرقة والخضرة والتكحيل، فهي تروق العيون، وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها. وسعة كلّ بلاط من بلاط سقفه ثلاثة وثلاثون شبرًا، وبين العمود والعمود خمسة عشر شبرًا، ولكلِّ عمود منها رأس رخام وقاعدة رخام. ولهذا الجامع قِبلة يعجز الواصفون عن وصفها، وفيها إتقان يُبهِر العقول تنميقها، وفيها من الفسيفساء المُذَهَّب والبلّور ممّا بعث به صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله، وعلى وجه المِحراب سبع قسيّ قائمة على عمد، طول كلّ

قوس أشفّ من قامة، وكلّ هذه القِسِيّ مُزَجَّجَة صنعة القوط، قد أعجزت المسلمين والروم بغريب أعمالها، ودقيق وضعها، وعلى أعلى الكلّ كتابان منحوتان بين بحرين من الفسيفساء المذهب في أرض الزجاج اللازوردي، وعلى وجه المحراب أنواع كثيرة من التزيين والنقوش، وفي جهتَي المحراب أربعة أعمدة: اثنان أخضران واثنان زرزوريان لا تقوَّم بمال، وعلى رأس المحراب خَصّة رخام قطعة واحدة مسبوكة مُنمَّقَة بأبدع التنميق من الذهب واللازَوَرد وسائر الألوان، واستدارت على المحراب حظيرة خشب بها من أنواع النقش كلّ غريبة، ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله صنعةً، خشبه أبنوس وبقس وعود المجمر، يقال إنّه صُنِع في سبع سنين، وكان صُنَّاعه ستة رجال غير من يخدمهم تصرفًا، وعن شمال المحراب بيت فيه عُدَدٌ وطسوت ذهب وفضة وحسك، وكلّها لوقيد الشمع في كلّ ليلة سبعٍ وعشرين من رمضان.

وفي هذا المخزن مُصحَف يرفعه رجلان لثقله، فيه أربع أوراق من مُصحَف عثمان بن عفان (رضي الله عنه) الذي خطّه بيمينه، وفيه نقطة من دمه، ويُخرَج هذا المُصحَف في صبيحة كلّ يوم، يتولى إخراجه قوم من قَوَمة الجامع، وللمُصحَف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش، وله كرسيّ يوضع عليه، فيتولى الإمام قراءة نصف حزب فيه، ثم يُرفَع إلى موضعه.

وعن يمين المحراب والمنبر باب يفضي إلى القصر، بين حائطي الجامع في ساباطٍ متّصل، وفي هذا الساباط ثمانية أبواب، منها أربعة تنغلق من جهة القصر وأربعة تنغلق من جهة الجامع. ولهذا الجامع عشرون بابًا مصفحة بصفائح

النحاس وكواكب النحاس، وفي كلّ باب منها حلقتان في غاية الإتقان، وعلى وجه كلّ باب منها في الحائط ضروب من الفصّ المتخذ من الآجرّ الأحمر المحكوك، أنواع شتى وأصناف مختلفة من الصناعات والتنميق.

وللجامع في الجهة الشمالية الصومعة الغريبة الصنعة، الجليلة الأعمال، الرائقة الشكل والمثال، ارتفاعها في الهواء مئة ذراع بالذراع الرشاشي، منها ثمانون ذراعًا إلى الموضع الذي يقف عليه المؤذن، ومن هناك إلى أعلاها عشرون ذراعًا، ويصعد إلى أعلى هذا المنار بدرجين: أحدهما من الجانب الغربي، والثاني من الشرقي، إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا إلّا إذا وصلا الأعلى. ووجه هذه الصومعة مُبطَّنٌ بالكذّان منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة، بصنعة تحتوي على أنواع من التزويق والكتابة. وبالأوجه الأربعة الدائرة من الصومعة صفّان من قسيّ دائرة على عقد الرخام، وبيت له أربعة أبواب مغلقة يبيت فيه في كلّ ليلة مؤذنان، وعلى أعلى الصومعة التي على البيت ثلاث تفاحات ذهبًا واثنتان من فضة وأوراق سوسنية، تَسَعُ الكبيرة من هذه التفاحات ستين رطلًا من الزيت، ويخدم الجامع كلَّه ستون رجلًا، وعليهم قائم ينظر في أمورهم.

وقرطبة على نهر عظيم عليه قنطرة عظيمة من أجلّ البنيان قدرًا وأعظمه خطرًا، وهي من الجامع في قبلته، وبالقرب منه، فانتظم بها الشكل. قالوا: وبأمر عمر بن عبد العزيز قام على نهر قرطبة الجسر الأعظم الذي لا يُعرَف في الدنيا مثله، وحول الأندلس من عمل إفريقية وجرَّد لها عاملًا من قبله، ووقعت المغانم فيها عن أمره.

وذُكِر أن تفسير قرطبة بلسان القوط قرظبة بالظاء المعجمة، ومعنى ذلك بلسانهم: القلوب المختلفة، وقيل: إنّ معنى قرظبة آخر «فاسكنها». ودور مدينة قرطبة في كمالها ثلاثون ألف ذراع، وبها من الأبواب باب القنطرة وهو بقبليّها، ومنه يعبر النهر على القنطرة، والباب الجديد وهو بشرقيّها وباب السّور بجوفيّها، وباب عامر وهو بين الغربي والجوفي منها، وغيرها.

وقصر مدينة قرطبة بغربيّها متصل بسورها القبلي والغربي، وجامعها بإزاء القصر من جهة الشرق، وقد وُصِل بينهما بساباط يسلك الناس تحته من المحجّة العظمى التي بين الجامع والقصر إلى باب القنطرة، وكان طول مسقَّف البلاطات من المسجد الجامع- وذلك من القبلة إلى الجوف، قبل الزيادة -مائتين وخمسًا وعشرين ذراعًا، والعرض من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة مئة ذراع وخمس أذرع، ثم زاد الحَكَمُ في طوله في القبلة مئة ذراع وخمس أذرع، فكمل الطول ثلثمئة ذراع وثلاثين ذراعًا، وزاد محمد بن أبي عامر بأمر هشام بن الحكم في عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعًا، فتمّ العرض مائتين وثلاثين ذراعًا، وكان عدد بلاطاته أحد عشر بلاطًا، عرض أوسطها ستّ عشرةَ ذراعًا وعرض كلّ واحد من اللذين يليانه شرقًا واللذين يليانه غربًا، أربع عشرة ذراعًا، وعرض كلّ واحدة من الستة الباقية إحدى عشرة ذراعًا. وزاد محمد بن أبي عامر فيها ثمانية عشر بلاطًا عرض كلّ واحد عشر أذرع، وطول الصحن من المشرق إلى المغرب مئة وثمانٍ وعشرون ذراعًا، وعرضه من القبلة إلى الجوف مئة واحدة وخمس أذرع، وعرض

السقائف المستديرة بصحنه عشر أذرع، فتكسيره ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومئة وخمسون ذراعًا وعدد أبوابه تسعة: منها ثلاثة في صحنه غربًا وشرقًا وجوفًا، وأربعة في بلاطاته: اثنان غربيان واثنان شرقيان، وفي مقاصير النساء من السقائف بابان، وجميع ما فيه من الأعمدة ألف عمود ومائتا عمود وثلاثة وتسعون عمودًا أساطين رخام كلّها.

وقباب مقصورة الجامع مُذهَّبَة، وكذلك جدران المحراب وما يليه قد أجري فيه الذهب على الفسيفساء، وشرفات المقصورة فضة محضة.

وارتفاع الصومعة اليوم -وهي من بناء عبد الرحمن بن محمد- ثلاث وسبعون ذراعًا إلى أصل القبة المُفتَّحة التي يستدير بها المؤذنون، وفي رأس هذه القبة تفاح ذهب وفضة، وارتفاعها إلى مكان الأذان أربع وخمسون ذراعًا، وطول كلّ حائط من حيطانها على الأرض ثماني عشرة ذراعًا.

يقول أبوعامر ابن شُهَيد: (من الكامل)

والجامِعُ الأعلى يغَصّ بكُلِّ مَن ... يَتْلو ويَسمعُ ما يشاءُ ويَنْظُرُ

وعدد المساجد بقرطبة على ما أحصِي وضُبِط أربعمئة وأحد وتسعون مسجدًا.

وأحواز قرطبة تنتهي في الغرب إلى أحواز إشبيلية، وتأخذ في الجوف ستين ميلًا، وتختلط أحوازها في الشرق بأحواز جيان.

وعلى الجملة فقد كانت أمَّ البلاد وواسطة عقد الأندلس، وحَوَتْ من الأكابر من أهل الدنيا والآخرة من الملوك والعلماء والصالحين والمفتين وغيرهم خلقًا،

ومُتِّعوا فيها ما أراد الله عزّ وجلّ، وذلك حين كان جَدُّها صاعدًا.

يقول ابن شُهَيد في رثائهم: (من الكامل)

حَـزَني علـى سَـرَواتِها وَرُواتِهـا ... وثِقاتِهـا وحُماتِهـا يَتَـكَرَّرُ

نفْسـي علـى آلائِهـا وصَفائِهـا ... وبَهائِهـا وسَـنائِها تَتَحَسَّـرُ

كَبِـديْ علـى عُلَمائِهـا حُلَمائِهـا ... أُدَبائِهـا ظُرَفائِهـا تَتَفَطَّرُ

وبعد ذلك طحنتها النوائب واعتورتها المصائب، وتوالت عليها الشدائد والأحداث فلم يبق من أهلها إلّا البشر اليسير، على كبر اسمها وضخامة حالها. وقنطرتها التي لا نظير لها وعدد أقواسها تسع عشرة قوسًا، بين القوس والقوس خمسون شبرًا، ولها ستائر من كلّ جهة تستر القامة، وارتفاعها من موضع المشي إلى وجه الماء، في أيام جفوف الماء وقلته ثلاثون ذراعًا. وتحت القنطرة يعترض الوادي رصيف مصنوع من الأحجار والعمد الجافية من الرخام، وعلى السدّ ثلاثة بيوت أرحاء، في كلّ بيت أربع مطاحن. ومحاسن هذه المدينة وشماختها أكثر من أن يُحاط بها.

وأديبنا هو: أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن ذي الوزارتين الأعلى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى ابن شُهَيد الأشجعي الأندلسي القرطبي[1]، من ولد الوضّاح بن رزاح الذي كان مع

(1) مصادر ترجمته: الجَذوة، اليتيمة، الذخيرة، المغرب، المطمح، إعتاب الكتاب، المُطرِب، معجم الأدباء لياقوت، وذكر ياقوت الحموي أن ولادته في سنة اثنتي عشرة وثلاثمئة من الهجرة، الوافي، قلتُ: لم يعلق المحقق على الخطأ، والبُغيَة، والمسالك، وله ذكر كثير في في نفح الطيب، وبدائع البدائه، وشرح الشريشي.

الضحاك بن قيس الفهري يوم مرج راهط، وكانت ولادته سنة اثنتين وثمانين وثلاثمئة، وتوفّي ضحى الجمعة سلخَ جمادى الأولى سنة ستٍّ وعشرين وأربعمئة، بقرطُبة، ودُفن ثاني يوم في مقبرة أمّ سلمة.

وشُهَيد: بضم الشين المثلثة وفتح الهاء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة. والأشجَعي: بفتح الهمزة وسكون الشين المثلثة وفتح الجيم وبعدها عين مهملة، هذه نسبة إلى أشجع بن ريث بن غطفان، وهي قبيلة كبيرة[1].

وأسرته من أوائل من خدم في الدولة الأموية مع عبد الرحمن الداخل «صقر قريش» ففي سنة اثنتين وستين ومئة أرسل عبد الرحمن صاحب الأندلس شُهَيد بن عيسى إلى دحية الغساني، وكان عاصيًا في بعض حصون إلبيرة فقتله[2].

فهو من بيت حسبٍ وأدب، عملًا وعلمًا، فأبوه أحمد شغل منصب الوزارة والولاية، وذكرنا له ترجمة في كتاب الأعلام، وكذلك جدّه أحمد ذو الوزارتين، وأبو ذي الوزارتين ممن تقلّد الوزارة، ونجد في سلسلة آبائه أنهم أصحاب مناصب عليا منذ دخول جدهم شُهَيد إلى الأندلس.

(1) وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، مج1، ص116، منشورات دار الثقافة، بيروت.

(2) الكامل في التأريخ ج8- ص10.

أعماله

- ديوان شعر جمعه شارل بلا
- كشف الدكّ وإيضاح الشكّ
- التوابع والزوابع
- حانوت عطّار

حياته

عاش أبو عامر حياة الترف الباذخ، وندرك ذلك ممّا كان يتمتع به من كونه حصل على منصب الوزارة، وما كان لآبائه وأجداده من المال الذي لا يقدَّرُ ولا يُحصى، فجدّه ذو الوزارتين، وللهدية التي قدمها ذِكْرٌ في كتب التأريخ استعظمها المؤرخون -ذكرناها في ترجمته- والأموال التي جمعها أبوه ذكرها ابن شُهَيد حين اعتذر أبوه عن الخدمة، جمعها ابن شُهَيد ليعيش حياة منقطعة النظير من اللهو والمتعة، حتى أوشك على الإملاق. هذه الأخبار ذكرناها في كتاب الأعلام، وفي كتاب أخبار حانوت عطار من هذا الكتاب.

أمّا حياته الأدبية فقد كان مجلسه ناديًا لمحبِّي الأدب، وما تتمتع به الأندلس ومدينة قرطبة بوجه خاص من الأدباء والشعراء، وأصحاب اللغة والنحو، يتوشح بها كتاب البخور من تفاصيل ذُكِرت في مواقعها.

زمن الفتنة

عاصر أبو عامر ابن شُهَيد زمن الفتنة، والفتنة كان أساسها عندما

ضَعُف حكم بني أمية، وضعُفت الدولة العامرية وانتهت، ودخلت البرابرة الأندلس ومدينة قرطبة فخربت في يوم وضحوة، ولم يبق من معالمها وسكانها إلّا القليل، وانتشرت الزعامات كلّ يستولي على مدينة ويقيم عليها إمارته. فرثاها الشعراء، وذكرنا مرثية ابن شُهَيد فيها. وحاول ابنُ شُهَيد ترك قرطبة فلم يستطع، فقال قصيدته المشهورة:

عَجوزٌ- لعمر الصبا- فانِيَه لها في الحَشا صورة الغانيه

1-1 أبوعامر عند مجموعة من المؤلفين

مع الحُميديّ في كتابه «جَذوة المُقتبِس»

قال الحُميديّ في جذوته: أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك أبو عامر، أشجعيّ النسب من ولد الوضاح ابن رزاح، الذي كان مع الضحاك يوم المرج[1].

من العلماء بالأدب ومعاني الشعر، وأقسام البلاغة، وله حظّ من ذلك بسق فيه[2]. وله كتاب: «حانوت عطار»، في نحو من ذلك، وسائر رسائله نافعة كثيرة الجدّ والهزل[3].

وكان حين وفاته حامل لواء الشعر والبلاغة، ولم يخلف لنفسه نظيرًا

(1) جَذوة المُقتَبِس في ذكر ولاة الأندلس للحُمَيدي، ص133، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) نفس المصدر والصفحة.

في هذين العلمين[1].

وقد كان مولده سنة اثنتين وثمانين وثلاثمئة من الهجرة، وتوفي يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ستٍّ وعشرين وأربعمئة بقرطبة، ودُفِن يوم السبت ثاني يوم بعد وفاته في مقبرة أمّ سلمة، وصلى عليه جهور بن محمد ابن جهور[2].

في كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»

حين نستعرض ما كتبه ابن بسّام عن أبي عامر ابن شُهَيد في كتابه الذخيرة، ندرك إعجابه بأدبه مفتونًا به، فقد أورد له مجموعة من الرسائل والأشعار، ومن القطع النقدية والنثرية، والكثير من الأخبار، إضافة إلى فصول من رسالة «التوابع والزوابع» التي صارت المصدر الوحيد لمن كتب عن هذه الرسالة.

ويقول ابن بسّام: «وقد أخرجت من أشعاره الشاردة ورسائله الخالدة، ونوادره القصار والطوال، وتعريضاته السائرة سير الأمثال، ما يجلّ له الوقور حياء، ويحنّ له الكبير إلى صباه» [3].

ومن الرسائل التي أوردها ابن بسّام لابن شُهَيد[4]:

---

(1) نفس المصدر – ص135.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.ت: د.إحسان عباس.ص155 – 156، ج1، دار الغرب الإسلامي.

(4) نفس المصدر والجزء: تنظر الصفحات من 154 وما تلاها.

1. رقعة خاطب بها المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن.
2. جواب على خطاب جاءه من المؤتمن أيضًا، فكتب إليه رسالة أدبية يعتذر فيها عن عدم مقدرته على ترك قرطبة ومفارقتها، ويقول فيها: (من المتقارب)

عجـوزٌ – لَعَمْـرُ الصِّـبا – فانِيَـهْ لَهَـا في الْحَشَـا صُـورَةُ الغَانِيَـهْ

3. رسالة إلى الوزير ابن عباس.
4. رسالة خاطب بها مجاهدًا أمير دانية.
5. رسالة التوابع والزوابع.

الشـــعر

اهتم ابن بسّام كثيرًا بشعر ابن شُهَيد، ويُعتبَر كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» المصدر الرئيسي لشعر أبي عامر ابن شُهَيد سواء في المديح أو غيره، كما أنّ ما ورد في رسالة «التوابع والزوابع» من أشعار ابن شُهَيد مصدرٌ مهمٌّ، اعتمد عليه كلّ من قدّموا ديوان ابن شُهَيد إلى المطابع، إلّا بعض المقطوعات البسيطة كما في «يتيمة الدهر» للثعالبي[1] وغيره، إذ ترد أبيات أو مختارات من قصيدة، كما في كتاب «الملتمس» للضبّي[2] و«جَذوة المُقتَبِس» للحُميدي[3]

(1) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي.ج2.ص41 حتى 58، ت: محمد قميحة، دار الكتب العلمية.

(2) بُغيَة المُلتمِس للضبّي، ص164–165، ت: روحية عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت.

(3) جَذوة المُقتَبِس في ذكر ولاة الأندلس للحُمَيدي– ص133.

و«نفح الطيب» للمقري[1]، وغيرهم ممن ذكروا شعر ابن شُهَيد.

وأورد ابن بسّام أكثر من ستمئة بيت من شعر ابن شُهَيد، بين مقطوعات طويلة وأبيات[2].

ونلاحظ اهتمام ابن بسّام بالأبيات والقصائد التي كتبها ابن شُهَيد في علّته التي توفي فيها. كذلك تعرض لعدد من أسرة أبي عامر ابن شُهَيد وأهله.

وفي وصفه لابن شُهَيد وشعره يقول: كان أبو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها، وينبوع آياتها، ومادة حياتها، وحقيقة ذاتها، وابن ساستها وأساتها، ومعنى أسمائها ومسمياتها، نادرة الفلك الدّوار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام، أو جدّ فزئير الأسد الضّرغام، نظمٌ كما اتسق الدرُّ على النحور، ونثرٌ كما خُلِط المسك بالكافور، إلى نوادر كأطراف القنا الأملود، تشق القلوب قبل الجلود، وجواب يجري النَّفس، ويسبق رجع الطرف المختلس[3].

وقد ضارع أبو عامر محاسن الطبقة العالية البغدادية المضارعة التي بانت فيها قوّتُه، ولدنت اختراعاته ومقدرته، فصار يتناول المعنى الحسن فيُصيِّره محسّنًا بحسن مساقه، فمنها وصفه للنحل والعسل: واسعة الأكفال والصدور

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقَرِّي (في معظم المجلدات)- ت: د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام- ج-1 ص: 154 وما بعدها.

(3) نفس المصدر، ج1، ص155.

مرهفة[1]، ووصف البرغوث فقال: أسود زنجي، ووصف البعوضة فقال: مليكة لا جيش لها سواها، ووصف الثعلب فقال: أدهى من عمرو، فهذه أوصاف لو رامها غيره لكبا جواد بنانه، ونبا حسام لسانه[2].

وعن معارضة شعر ابن شُهَيد وموازنته يقول ابن بسّام: عندما عرض أبو عامر لصاحب أبي تمام بقوله: «بعمرو والقمر الطالع، والرقعة المفكوكة الطابع».

أشار إلى قول أبي تمام في غلامه [3]: (من السريع)

يـا عمـرُو قُـلْ لِلْقَمَـرِ الطَّـالِعِ اتَّسَـعَ الْخَـرْقُ علـى الراقـعِ

وفي الأبيات التي تعرض فيها أبو عامر لأبي جعفر[4]: (من المتقارب)

وَذُو عَـرَقٍ لـيسَ مَـاءَ الحَيَـاءِ ولكِنَّـهُ رَشـحُ فَضْـلِ الجَنَابـهْ

جَرَى المَاءُ في سُفلـهِ جَرْيَ لِـينٍ فَأَحـدَثَ في العُلْـوِ مِنْـهُ صَلابـَهْ

يقول ابن بسّام: وليت شعري ما التصريح عند أبي عامر إذا سُمّيَ هذا تعريضًا؟! وقوله: «جرى الماء في سفله جري لينٍ» أخذه أحدُهم وقد ضَمَّنَهُ قول النابغة: (من الكامل)

يا سَائِلِـي عَـنْ خَالِـدٍ عَهْـدِي بـهِ رَطبُ العِجانِ وكَفُّهُ كالجَلْمَدِ

كالأقحُـوانِ غَـداةَ غـبِّ سَمَائِـهِ جَفَّـتْ أَعَالِيـهِ وَأَسْفَلُـهُ نَـدِي[5]

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – ج1 ص174.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) نفس المصدر، ص217.

(4) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام– ج1، ص: 238.

(5) نفس المصدر والصفحة. ويُنظَر ديوان النابغة الذبياني، ص40، المكتبة الثقافية، بيروت، ت: كرم البستاني.

وقوله: «وذو عرقٍ ليس ماء الحياة» ألـمّ به ابن زيدون فقال من جملة أبيات[1]:

مَخَضَتْ في اسْتِهِ الأُيُورُ حَلِيبًا فَعَلَى عَيْنِهِ مِنَ الزُّبْدِ نُقطَه

وفي خريدة الأصفهاني: وقال ابن زيدون في هجاء رجل كان في عينهِ فَصّ:

مَخضَت في اسْتِهِ الأيورُ حليبًا فعلَت عينَهُ من الزُّبدِ نُقطَه[2]

وفي بيت أبي عامر الذي يقول فيه[3]: (من الطويل)

وعمّمَ صُلعَ الهُضْبِ مِنْ قَطرِ ثَلجِهِ يدانِ مِنَ الصِّنَّبْرِ تَبتدِرانِ

يقول ابن بسّام: أخذه بعض أهل عصرنا يصف الثلج أيضًا فقال[4]: (من البسيط)

وأترعَ الوفدَ من أزباد لُجَّتِهِ بالبرسِ ينبُتُ بَينَ القَوسِ والوتَرِ

فالأرضُ مَلساءُ لا أمْتٌ ولا عِوجٌ كنقطَةٍ من سَرابِ القاعِ لـمْ تَمُرِ

والبيت للأعمى التُّطِيلي، وقول أبي عامر[5]: (من الطويل)

فأتبَعتُهُ ما سدّ خَلّةَ حالِهِ وأتبَعَني ذِكرًا بكلِّ مَكانِ

كقول حبيب[1]: (من مجزوء الرّجز)

(1) نفس المصدر، ص239، االبيت غير موجود في ديوان ابن زيدون، مكتبة صادر، بيروت، تح: كرم البستاني، 1951م.

(2) خريدة الأصفهاني، قسم المغرب والأندلس، ج2، تح: آذر تاش آذر توش، ص58، الدار التونسية للنشر، ط2، 1986.

(3) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1، ص242.

(4) نفس المصدر والصفحة.

(5) نفس المصدر والصفحة.

فَـــــــــراحَ في ثَنائـــــــــي ورُحـــــــتُ فـــــي ثيابـــــهْ

وفي بيت أبي عامر حيث يقول[2]: (من الطويل)

وخَيـلٍ تمشَّـى لِلْـوغَى بِبُطونِهـا إذا جَعلتْ بالمُرتقى الصَّعْبِ تزلَقُ

يقول ابن بسّام: وهذا البيت ممّا لم يحسِن أبو عامر سرقته، ولا بلغ به طبقته، وهو من قول أبي الطيب[3]: (من الطويل)

إذا زلِقَـــت مَشَّـــيْتَها بِبُطونِهـــا كما تتمشّى في الصَّعيدِ الأراقِمُ

وقد استطرد ابن بسّام كثيرًا في قراءة شعر ابن شُهَيد ومتابعته.

ويقول أبو مروان بن حيان:

ذَكَرَ ابنُ شُهَيد أبو مروان بن حيان في غير ما من موضع فقال[4]: كان أبو عامر يبلغ المعنى، ولا يُطيل سفر الكلام، وإذا تأملته ولَسِنَه، وكيف يجرّ في البلاغة رسَنَه، قلتَ عبد الحميد في أوانه، والجاحظ في زمانه.

وشعره حسن عند أهل النقد، تصرف فيه تصرف المطبوعين، وله رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال، قصار وطوال، وكان في سرعة البديهة، وحضور الجواب وجدّتِه، مع رقّة حواشي كلامه، وسهولة ألفاظه، ونزاهة شمائله وخلائقه، آيةً من آيات الله خالقه.

---

(1) نفس المصدر والصفحة.

(2) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص247.

(3) نفس المصدر والصفحة. ويُنظَر: شرح ديوان المتنبي، ص105، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت.

(4) الذخيرة لابن بسّام، ص155، ج1.

ويقول عنه صديقه أبو محمد بن حزم:

هو من المتمكنين من علم البلاغة، الأقوياء فيه جدًّا، قد كتب إلينا أنّه ألّف كتابًا في ذلك لم نره بعد[1].

ويقول عنه ابن الحَنَّاط:

وأخونا أبو عامر – سلمه الله – يُسهبُ نثرًا، ويطول نظمًا، شامخًا بأنفه، ثانيًا من عطفه، متخيلًا أنه قد أحرز قصب السبق في الآداب، وأوتي الحكمة وفصل الخطاب، يستقصر أسانيد الأدباء، ويستجهلُ شيوخ العلماء[2].

وعند بوشعيب الساوري [3]:

(ابن شُهَيد بين الرغبة الذاتية وإكراهات السياق الثقافي) يقول: يبدو أنّ ابن شُهَيد عاش زمنين مختلفين: زمن العناية بالأدب، ونشر الثقافة، والاهتمام بالشعراء والأدباء مع الحاجب المنصور الذي أعلى مراتب العلماء، كما اعتنى بابن شُهَيد وأسرته. وزمن الفتنة البربرية، إذ سيطر أدعياء الثقافة وأهل اللغة والنحو، فأحسَّ ابن شُهَيد بنوع من التهميش بعد الحظوة التي كانت له، فعاش حالتين نفسيتين متناقضتين وهما: الإحساس بالتفوق والشعور بالتهميش من قبل الوسط الثقافي. ولذا تميز في كتابته بين كلام نافع وهو: المضمون، والنقد،

(1) التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه لأبي محمد ابن حزم الأندلسي، ص618، دراسة ابن عقيل الظاهري، تحقيق التركمان، دار ابن حزم، بيروت.

(2) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصِّلة للمراكشي، ج4، ص245، ط1، 2012م، دار الغرب الإسلامي، تونس، تح: مجموعة.

(3) النصّ والسياق.. دراسة لرسالة التوابع والزوابع، ص26، منشورات: محاكاة، دمشق.

والآراء، والمناظرات، وإطار غير نافع: القصة التي هي في رسالة «التوابع والزوابع»، والتي هي مجرد مطية، وإطار للكلام النافع. ولكن ليس لهذا الأخير أن يتم دون الكلام غير النافع.

ويرى بوشعيب أنّ ابن شُهَيد له في رسالته «التوابع والزوابع» تقاطع مع النبي محمد (ص) خاصة في قصة الإسراء والمعراج، ومع شخصيات الأنبياء، فيرى ابن شُهَيد أنّ الشعرية لها خاصية منبع الشعر وهو الإلهام، كما هي خاصية النبوة مصدرها الوحي[1].

ومع الإسراء والمعراج هناك التقاء الانتقال من مكان مألوف إلى مكان غريب وغير مألوف، ومناقشة النبي لقضايا دينية كمناقشة ابن شُهَيد لقضايا أدبية، وقضية التفضيل؛ فالأنبياء فضّلوا النبي، وابن شُهَيد حظي باحترام كبير من قبل التوابع[2].

وهنالك متطابقات كثيرة رآها الساوري في مطابقة ابن شُهَيد لقصة الإسراء والمعراج استغلها ابن شُهَيد سواء في عالمه النفسي وهو التحدي وإثبات الذات، أو لفرض عقليته الناقدة عن وعي وتجربة وثقافة جمّة كانت مصدرًا لإلهامه وكتابته.

وقال أبو المطرف عبدالرحمن بن فتوح:

إنّ أبا عامر ابن شُهَيد أقوى الشعراء استعارات، وأصحهم تشبيهات،

(1) النص والسياق، بو شعيب الساوري، ص48.

(2) نفس المصدر، ص50.

البحر العجاج، والسراج الوهّاج [1].

ويقول بالنثيا:

ابن شُهَيد الشاعر الناقد يمثل في نظرنا رجل الفكر الصرف، فلم يصبح الأدب في يده خدمة بل سيادة، وأما عن جانبه النقدي فقد خلّف لنا رسالة صور فيها رحلة إلى الجنة سابقًا بذلك المعري ودانتي[2]. (نقلًا عن غرسيه غومس).

ويقول عنه أبو الحسن بن سراج:

وكان من البلاغة في مدى غاية البيان، ومن الفصاحة في أعلى مَراتبِ التِّبيان، وكُنا نحضُر مَجلسَ شَرابِه، ولا نغيب عن بابه، وكان له بباب الصومعةِ من الجامعِ موضِعٌ لا يُفارِقه أكثر نهارِه، ولا يُخليهِ من دُرَرِهِ وأزهاره[3].

ويقولُ عنه ابُن دِحية في مُطربه:

وأبو عامر هذا أرسَخُ أهلِ الأندلُس قاطِبَةً بالأدب، ينسلّ إليه من كلّ حَدب، ولم يرَ لنفسه في البلاغَة أحدًا يُجاريه، ويُساجِله في جميعِ العُلوم ويباريه، وأما الكرمُ فلا يُقارِبُه فيه أحدٌ من أهل بلَدِه ولا يُدانيه[4].

---

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام، ج1، ص698.

(2) تأريخ الفكر الأندلسي لآنخل بالنثيا، نقله عن الإسبانية د.حسين مؤنس، ص96-97.

(3) تأريخ الفكر الأندلسي لآنخل بالنثيا، ص96-97.

(4) المُطرِب من أشعار أهل المعرب لابن دحية الكلبي، ضبطه وشرحه: د.صلاح الدين الهواري، ص138.

2-1 تأثره بالقرآن الكريم في أدبه النثري:

كان أساس الثقافة في الأندلس العربية، وفي الدولة الإسلامية عامّة هي الثقافة العربية، هذه الثقافة التي أرسى دعائمها القرآنُ الكريم، إذ قال تعالى: ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ [الشعراء195]، هذه الثقافة التي اتخذت من القرآن ثوابت ثقافية دينية، تدافع عنها الأمة بمختلف طوائفها وانتمائها القبلي، وجعلت الإسلام الذي يرسخه القرآن الكريم دستورها وقانونها الذي تنتمي إليه، وتتخذه منبراً في حياتها، وأسلوبها الثقافي، وثوابت سياستها، وكان للقرآن والأدب العربي ازدواجية الثقافة، فكثيرًا ما يُستشهد بالشعر العربي في تفسير اللغة القرآنية.

هذه الثقافة التي رضعها وتشبع بها أبو عامر ابن شُهَيد لا بُدّ لها أن تكون ذات تأثير في أدبه، فمن أمثلة ذلك:

- في وصف الناقد الذي لا يفهم البيان: اضطرمت في قلبه نيران الجوى، ولمع فيه البرق، واستنّ فيه الودق، وسفحت عليه الدموع، وبان فيه الخشوع، وهو: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ**﴾ [النور39]، لا يستحق صاحبه غير أن يكون تِلْعابة، أو صاحب براعة.
- يصف كتابته: ولم أكن كالثلج تقتبس منه نارًا، وهو من الآية: ﴿**إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً**﴾ [طه: 10]، ونلاحظ هنا معاكسته، حيث يستوقد النار

من الثلج، كالحمار يحمل أسفارًا، قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الجمعة: 5].

- وعند مخاطبة أبي بكر يحيى ابن حزم: «كيف أوتي الحكم صبيًّا» ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾ [مريم: 12]، وهُزَّ إليه بجذع نخلة الكلام فاسَّاقَط عليه رُطبًا جنيًّا، وهو قوله تعالى: ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**﴾ [مريم: 25].
- وفي وصف الجاحظ لكتابته: قرعك الله بقارعته، وهو من قوله تعالى: ﴿**الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**﴾ [القارعة: 1-3].
- وفي وصف البرد والحمام: فلما رأى الناس أخلاطًا، تذكر جهنم، ولفحها المتضرم، وقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا**﴾ [مريم: 71].
- وفي وصف الحلوى: زجاجة نورية، كأنها الكواكب الدريّة، ورَعَدَ قُراءٌ لله تعالى وخيرته، كالرعد يسبح بحمده، والملائكة من خيفته، وهو من قوله تعالى: ﴿**اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ**﴾ [النور: 35]، ومن قوله تعالى: ﴿**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ**﴾ [الرعد: 13].

وفيها: البطنة تُذهِب الفطنة، وهو يقول: «أكلها دائم وظلها»، حتى التهم

جماهرها، فهو قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: 35].

- وفي فصل نثري: لسان مبين يفيض عليه، فيُعرِب عن نفسه، ويكشف عن حقيقة ذاته، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9]، وقال: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: 19]. وقال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: 18].
- وفي وصف أبي جعفر: فإنه بقية من بني إسرائيل الذين استحلّوا الحرام، واجترعوا السيئات والآثام، ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: 166]، ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 66].
- ومع ابن الفَرَضي: حتى انتهيت إلى دار ذات أجوان، قد غشيها دخان كقطع العنان، من كبريت وزنجفور وأبزروت، فتذكرت: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: 10]. ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: 11].
- وفي قطعة: كبا الجدّ بمن كبا، ونبا المجد عن هامة من نبا، ﴿حتى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: 235] ﴿لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللّهِ

﴿تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الأنفال: 44].

- وفي جدل بينه وبين الإوزة: قالت: أقسم أنّ الله ما علّمَك الجدل في كتابه، قلت: محمول عنك خفيف، لا يلزم الإوز حفظ آي القرآن، قال الله عزّ وجل في محكم كتابه حاكيًا عن نبيّه إبراهيم عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

3-1 حكايات ونصوص

من النفح للمقَّرِي قال: حكى أبو عامر ابن شُهَيد عن نفسه، قال: عاتبتُ بعضَ الإخوان عتابًا شديدًا عن أمر أوجع فيه قلبي، وكان آخر الشعر الذي خاطبته به هذا البيت [1]: (من الطويل)

وإنِّي على ما هاجَ صَدرِيْ وغاظَني ... لَيأمنُني مَنْ كانَ عِندي لَهُ سِرُّ

فكان هذا البيت أَشَدَّ عليه من عضِّ الحديد، ولم يزل يقلق به حتى بكى إليَّ منه بالدموع [2].

- بات أبو عامر ابن شُهَيد ليلةً بإحدى كنائس قُرطبَة وقد فُرشت بأضغاث

(1) يُنظَر ديوان ابن شُهَيد، ص109، جمع وتحقيق: يعقوب زكي، دار الكاتب العربي، القاهرة.

(2) نفح الطيب للمقَّرِي، ج 2، ص 499.

آسٍ، وعُرِّشت بسرورٍ واتّناس، وقَرْع النواقيس يهيجُ سمعَه، وبرقُ الحُميّا يسرع لمعه، والقسُّ قد بَرزَ في عبَدَة المسيح، متوشِّحًا بالزنانير أبدعَ توشيحٍ، قد هجَروا الأفراح، واطَّرحوا النِّعَمَ كلَّ اطِّراح: (من البسيط)

لا يَعمدونَ إلى ماءٍ بآنيَةٍ ... إلّا اغترافًا مِنَ الغُدرانِ بالرَّاح

وأقام بينهم يعملُها حُميًّا، كأنما يرشفُ من كأسِها شَفةً لميا، وهي تنفحُ له بأطيب عَرف، كلما رشَفها أعذب رشف، ثُم ارتَحل بعدما ارتجل، فقال[1]: (من الكامل)

ولَرُبَّ حانٍ قد شَممْتُ بدِيرِهِ ... خَمرَ الصِّبا مُزِجتْ بصِرفِ عَصيرِهِ
في فِتيَةٍ جَعلوا السُّرورَ شِعارَهُم ... مُتصاغِرينَ تَخَشُّعًا لِكبيرِهِ
والقِسُّ مما شاءَ طُولَ مُقامِنا ... يَدعُو بِعُودٍ حَولَنا بزَبُورِهِ
يُهدي لنا بالرّاحِ كلَّ مُصفَّرٍ ... كالخَشفِ[2] خفَّرَه التماحُ خَفِيرِهِ
يتناولُ الظُّرَفاءُ فيهِ وشُربُهم ... لِسُلافِهِ والأكلُ مِن خِنزيرِهِ

- حُكي أنّ الحافِظَ أبا محمد بن حزم قصد أبا عامرَ ابن شُهَيد في يوم غَزيرِ المطرِ والوَحَل، شديد الريحِ، فلقيَه أبو عامر، وأعظمَ قصدَه على تلك الحال، وقالَ له: يا سيدي، مثلُك يقصدني في مثل هذا اليوم! فأنشده

(1) نفح الطيب للمقَّرِي، مجلد 2، ص525، ويُنظَر ديوان ابن شُهَيد ص115، يعقوب زكي.
(2) الخِشف: ولد الظبي، والإبل التي تسير في الليل.

أبو محمد بن حزم بديهًا[1]: (من الطويل)

فلو كانتِ الدُّنيا دُوينَك لُجّةً وفي الجَوِّ صَعقٌ دائمٌ وحَريقُ
لسَهّلَ وُدّي فيكَ نَحوكَ مَسلَكًا ولمْ يتَعذَّرْ لِي إليكَ طَرِيقُ

- حضر أبو عامر ابنُ شُهَيد ليلةً عند الحاجِب أبي عامر المظفر بن أبي عامر بقُرطُبة، فقامت تسقيهم وصيفةٌ عجيبة صغيرةُ الخَلْق، ولم تَزل تسهَرُ في خِدمتهم إلى أن همّ جنَّد الليلُ بالانهزام، وأخذ في تَقويضِ الظلام، وكانت تُسمَّى أُسيماء، فعَجب الحاضِرون مِنْ مُكابَدتِها السّهَرَ طولَ ليلَتِها على صِغَر سنِّها، فسألَه المُظفرُ وَصفَها، فقال ارْتِجالًا[2]: (من مُخَلَّع البسيط)

أفدِيْ أُسَيماءَ مِنْ نَديمٍ مُلازمٍ للكؤوس راتِبْ
قَد عَجِبوا في السُّهادِ منها وهْيَ لَعَمري مِنَ العَجائبْ
قالوا: تَجافَى الرُّقادُ عَنْها فقلتُ: لا تَرقُدُ الكواكِبْ

- حُكيَ أنّ ابن شُهَيد كان يومًا مع جماعةٍ من الأدباءِ عند القاضي ابن ذكوان، فجيء بباكورَة باقلّاء، فقالَ ابنُ ذكوان: لا يَنفرِدُ بها إلّا مَنْ وَصفَها، فقالَ ابنُ شُهَيد: أنا لها، وارتَجَل[3]: (من المنسرح)

إنَّ لَآليكَ أحدَثتْ صَلَفا فاتَّخَذت مِن زُمُرُّدٍ صَدفا

(1) نفح الطيب للمقَرِّي، ج2، ص83.
(2) نفس المصدر، ج3، 344. ويُنظَر ديوان ابن شُهَيد، ص95.
(3) نفح الطيب للمقَرِّي، ج3، ص244. ويُنظَر ديوان ابن شُهَيد، ص127.

تَسكُنُ ضَرَّاتُها البحورَ وذي ... تسكنُ للحُسنِ رَوضَةً أُنُفا
هامَت بلِحْفِ الجبالِ فاتَّخَذتْ ... من سُندُسٍ في جِنانها لُحُفا
شَبَّهتُها بالثغورِ من لُطُفٍ ... حَسْبُكَ هذا من بِرٍّ مَن لَطُفا
قَدَّم دُرَّ الرياضِ منتخَبًا ... مِنهُ لأفراسِ مَدْحِهِ عَلَفا
أكلٌ ظريفٌ وطعمُ ذي أدبٍ ... والفولُ يَهواهُ كُلُّ مَن ظرُفا
رخَّص فيه شيخٌ لَهُ قَدَرٌ ... فكان حسْبي مِنَ المُنى وكَفى

- حُكيَ أنّ جماعَةً من أصحاب ابنِ شُهَيد قالوا: يا أبا عامر، إنكَ لآتٍ بالعجائب، وجاذبٌ بذوائبِ الغرائبِ، ولكنك شديدُ الإعجاب بما يأتي منك، هازٌّ لعطفك عند النادِرِ يُتاحُ لك، ونحن نُريدُ أن تصِفَ لنا مجلسَنا هذا، وكان الذي طَلبوه منه زُبدةَ التَّعنيت، لأن المعنى إذا كان جلفًا ثقيلًا على النفس، قبيحَ الصورةِ عند الحِسّ، كلَّتِ الفِكرةُ عنه وإن كانت ماضِيةً، وأساءَتِ القريحةُ في وصفِه وإن كانت مُحسِنة، وكان في المَجلس بابٌ مخلوع معترضٌ على الأرض، ولبدٌ أحمر مبسوطٌ قد صُفِّفَت خفافُهم عند حاشيَتِه، فقال مُسرعًا[1]: (من مُخَلَّع البسيط)

وفِتيَةٍ كالنجوم حُسنًا ... كلَّهُمُ شاعِرٌ نبيلُ
مُتَّقِدُ الجَبينِ ماضٍ ... كأنّهُ الصَّارِمُ الصَّقيلُ
رامُوا انْصِرافي عَنِ التَّعالِي ... والغَرْبُ مِن دونِهِ كَليلُ
فاشْتدَّ في إثرِها فَسيحٌ ... كلٌّ كثيرٍ لَهُ قليلُ

(1) نفح الطيب للمقَرِّي، ج 3، ص245. ويُنظَر ديوان ابن شُهَيد، ص139.

في مَجلِـــسٍ زانَـــهُ التَّصابِـــي وطـــارَدَتْ وَصـــفَهُ العُقـــولُ
كأنَّمـــــا بابُـــــه أســـــيرٌ قـــدْ عَرَضـــتْ دونَـــهُ نُصـــولُ
يُـــرادُ مِنـــهُ المَقـــالُ قَسْـــرًا بحـــرَ دَمٍ تحْتنـــا يَسِـــيلُ
كـــأنَّ أخفافَنـــا عليـــهِ مراكِـــبٌ مـــا لهـــا دَلِيـــلُ
ضَـلَّتْ فلـمْ تـدرِ أيـنَ تَجـرِي فهـلْ علـى شَـطِّهِ تَقيـلُ؟

فعجِب القومُ من أمره، ثُمّ خرجَ من عندهم، فمَرَّ على بعضِ معارِفه من الطَّرائفيين وبين يديه زنبيلٌ ملآن حرشفًا، فجعل يدَه في لجام بغلته، وقال: لا أترُكك أو تصِف الحرشَفَ، فقد وصَفه صاعد فلم يقُل شيئًا، فقال له ابنُ شُهَيد: ويحك! أعلى مثلِ هذه الحال؟ قال: نعم، فارتجل[1]: (من الرّجز)

هـل أبصَرتْ عيناكَ يا خَليلِـي قَنافِـــذًا تُبـــاعُ في زنبيـــلِ؟
مِـنْ حَرْشَـفٍ مُعتمَـدٍ جَلـيلِ ذي إبَـرٍ تنفُـذُ جِلـدَ الفِـيلِ
كأنَّهـا أنيـابُ بنـتِ الغُـولِ لو نخَسَت في اسْتِ امْرِئٍ ثَقِيلِ
لَقفَزَتْـهُ نَحـوَ أرضِ النِّـيلِ لَـيسَ يُـرى طَـيَّ حشا منذِيـلِ
نَقلُ السَّخيفِ المائنِ الجَهُـولِ وأكـلُ قَـومٍ نـازِحِي العُقـولِ
أقْسَـمتُ لا أُطعِمُهـا أكيلِـي ولا طعمتُهـا علـى شَـمُولِ

حدَّث أبو بكر محمد بن أحمد بن جعفر بن عثمان المُصحَفي قال: دخلتُ على أبي عامر ابن شُهَيد، وقد ابتَدأتْ عِلّتُه التي مات فيها، فأنِسَ

(1) نفح الطيب للمقَرِّي، ج3، ص246. يُنظَر ديوان ابن شُهَيد، ص140، يعقوب زكي.

بي، وجرى الحديثُ إلى أن شكَوتُ له تَجنِّيَ بعضِ صحابي عليَّ، ونفارَهُ عني، فقال لي: سأسعى في إصلاحِ ذات البَيْن، فخرجتُ عنه، واتَّفقَ لِقائي لذلك المتجَني عليَّ مع بعضِ أصحابي وأعزّهم عليّ، فلما رآني ذلك الصديقُ مُولِّيًا عنه أنكرَ عليه، وسألَه عن السببِ الموجِب، فأخبرَه، وزادا في مَشيهِما حتى لحقا بي، وعزمَ عليَّ في مُكالمَةِ صاحبي، وتعاتبنا عِتابًا أرق من الهواء، وأشهى من الماء على الظَّمأ، حتى جئنا دار أبي عامر، فلما رآنا جميعًا ضحك وقال: من كان الذي تولى إصلاحَ ما كُنا سُرِرْنا بفسادِه؟ قُلنا: قد كان ما كان، فأطرق قليلا ثُم أنشد[1]: (من المنسرح)

مَنْ لا أُسَمِّي ولا أَبوحُ بهِ ... أَصْلَحَ بيني وبَينَ مَنْ أَهْوَى
أَرسلتُ مَنْ كابَدَ الهَوى فَدَرَى ... كَيفَ يُداوِي مَواضِعَ البَلوَى
ولِيْ حُقوقٌ في الحُبِّ ظاهِرَةٌ ... لكنَّ إلْفي يَعُدُّها دَعْوَى
يا ربِّ إنَّ الرسولَ أَحْسَنَ بي ... يا ربِّ فاحْفَظْنِي من الأَسوا

4-1 كرمه وجود

ومن لطائف كرمه وجوده ماحكاهُ ابن دِحيةَ في مُطربِهِ قال[2]:

كان رجُلٌ من أهل طُلَيْطلَةَ ذا محَلٍّ شريفٍ، ومكانٍ عالٍ مُنيفٍ، فنبا به الوطنُ، وخانَه على معهوده الزمن، فأتى إلى قُرطُبة رَثَّ الحال، مُنْبَتَّ الحِبال، لا يملكُ فتيلًا، ولا يُدرِك كثيرًا ولا قليلًا، فأنزلَ عِيالَه في أحَد الفنادِقِ، وخَرجَ يلْتَمِسُ حُرًّا يستَجديه، وفاضلًا يستهديه، فأُرشِد إلى أبي

(1) نفح الطيب للمقَرِّي، ج3، 262. يُنظَر ديون ابن شُهَيد، ص171.
(2) المُطرِب من أشعار أهل المغرب لابن دِحية الكلبي، ص139.

عامر ابنِ شُهَيد، فكتب إليه كتابًا يُعربُ عن فضْل أدب، وكريمِ نَسب، فقال للرَّافع له: ما زِيُّ هذا الرجُل ولبسُه؟ وكيف هِمَّته ونفسُه؟ فأعلمه بما بدا من حالِه، وظهرَ من اختلالِه، فأمَرَ بدُخولِه، فلما دخَل أَدناهُ أبو عامرٍ وقرَّبَه، ورتَّب له من البرِّ والإكرام ما رَتَّبه، ثُم إنه أسَرَّ إلى وكيلِه بكلامٍ لم يَدرِه الرّجُلُ، إذ كان حائرًا قدِ اكتنَفهُ الخجَلُ، ثم أمر أن يُدخَل في الحمَّام، ويُحتفَل في البرِّ به والإكرام، فلما خرجَ منه ألفَى سَبَنِيَّةً بثيابٍ أُعِدّتْ له فلَبسها، وأُعيدَ إلى دار ابنِ شُهَيد، ووافقَ ذلك اليوم دعوةٌ لبعضِ القوم، فمَكثَ الرَّجُل وهو مُعَلَّق البال، بمن تركه هنالك من العِيال، فلما انتظمَ الأصحاب، وقُدِّمَ الطعامُ والشراب، دخلَ الرّجُلُ مَدخَلَهُم في ذلك المأْنس، وأخذَ مكانه من المجلِس، وأبو عامر ابن شُهَيد يؤثِر مكانه، ويدعو إلى بِرِّه إخوانَه، فمكَثَ الرجُلُ بين فرَحٍ وتَرَحٍ، طورًا مُمتدَّ الأُنس، وتارةً مُكدّر النّفس، فلما كان عَشِيُّ اليومِ الثاني خرجَ الرجلُ وقد قُدِّمَ له مركبٌ سار عليه، وغلامٌ بشمعةٍ بين يدَيه، إلى أن أدّى به إلى هذه الدار، وهي مشهورة بقُرطُبة إلى الآنَ بين جميعِ الديار، فقال: انزل يا مولاي، قال الرّجلُ: ليست هذه داري، وإنما نزلتُ في الفُندُقِ الفلاني. فقال الغُلام: بل هي دارُك، أعطاكَها سيدي، وأنا والدّابَّة لك. فأُخرِسَ الرجلُ ودخلَ الدارَ، فوجدَها قد مُلِئَت نِعمًا كثيرةً، وفُرشًا وثيرةً، وعِيالُه في مُنضَّد تلك المجالس، قد أُفرِغت عليهم أفخرُ الملابس، وقد مُلِئتْ خزائنُها بما يملأ العُيونَ قُرّة، والقُلوبَ مسرَّةً.

5-1 في مدح أبي عامر ابن شُهَيد

قال الحُميديّ في جَذوة المُقتَبِس: ولابن الحنّاط من كلمة طويلة في مدح أبي عامر ابن شُهَيد، أولها[1]: (من البسيط)

أمّا الفِراقُ فلِي مِنْ يَومِهِ فَرَقُ ... وقد أَرقْتُ لَهُ لَوْ يَنْفَعُ الأَرَقُ

أظْعَانُهم سابَقَتْ عَيْنِي التي انْهَمَلَتْ ... أمّا الدُّمُوعُ مَعَ الأظْعَانِ تَسْتَبِقُ

عاقَ العَقِيقُ عَنِ السُّلوانِ واتَّضَعَتْ ... في تُوضِحٍ لِيَ مِنْ نَهجِ الْهَوى طُرُقُ

لولا النَّسِيمُ الذي تأتِي الرِّيَاحُ بِهِ ... إذا تَضَوّعَ مِن عَرْفِ الحمَى الأُفُقُ

لَمْ أَدْرِ أَنَّ بُيوتَ الْحَيِّ نازِلَةٌ ... نَجْدًا ولا اعْتادَنِي نَحْوَ الحِمَى الْقَلَقُ

ما في الهَوادِجِ إلّا الشمسُ طالِعَةٌ ... وما بِقَلْبِيَ إلّا الشَّوقُ والأَرَقُ

وله أيضًا من قصيدة قالها في مدح أبي عامر ابن شُهَيد[2]: (من البسيط)

سُقْيا لِمَعهَدِ لَذَّاتٍ عَهِدْتُ بِهِ ... غِزلانَ وَجْرَةَ تَرْعى رَوْضةً أُنُفَا

مِنْ كُلِّ بَيْضَاءَ مثلِ الْبَدرِ مُطّلَعًا ... هَيْفَاءَ مثلِ قَضِيبِ الْبَانِ مُنْعطفَا

إِلْفٌ أَلِفْتُ الضّنَا مِنْ بَعْدِ فُرْقَتِهِ ... حتّى غَدا بَدَنِي مِنْ دِقَّةٍ أَلِفَا

وعندما كتب أبو عامر في علّتِه إلى ابن حزم علي بن حزم قصيدته التي يقول فيها[3]: (من الطويل)

ولمَّا رأيتُ العَيْشَ لَوّى بِرَأسِهِ ... وَأَيْقَنْتُ أنَّ الموتَ لا شَكَّ لاحِقِي

فَمَنْ مُبْلِغٌ عَني ابْنَ حَزْمٍ وكانَ لِي ... يدًا في مُلِمَّاتِي وعَضْدَ مَضَايِقِي

---

(1) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص58.

(2) جَذوة الحُميدي، ص58.

(3) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص 256.

فكتب إليه أبو محمد[1]: (من الطويل)

أبـا عـامرٍ نادَيْـتَ خِـلًّا مُصَـافِيَا ... يُفَدِّيْكَ مِنْ دَهْـمِ الخُطوبِ الطَّوارِقِ
وألَّمْـتَ قلبًا مُخْلِصًا لَكَ مُمْحِضًا ... بِـوُدِّكَ مَوصُولَ العُـرا والعَلائِـقِ
شـدائِدَ يَجْلُوهَـا الإلَـهُ بِلُطفِـهِ ... فَلا تَأسَ إنَّ الدَّهْرَ جَـمُّ المَضَـائِقِ
فَمُعقِبُ سُوءِ الحالِ حُسْنَى وفَرْحَةٌ ... وتالِي رَخَاءِ العَيْشِ إحْدَى البَوائِقِ
وَرُبَّ أَسِيرٍ في يَـدِ الهَـولِ مُطْلَـقٌ ... وَمُنطَلِقٍ والـدَّهْرُ أَسْـوَقُ سَائِـقِ
سَفِيْنَةُ نُـوحٍ لَـم تَضِـقْ بِحُلُولِـهَـا ... وَضَاقَ بِهِم رَحْـبُ المَلا والسَّمالِقِ
فَإِنْ تَنْجُ قُلتُ: الحَمْدُ للهِ مُخلِصًا ... فَمِنْ أَعْظَمِ النُّعْمَى بَقاءُ المُصَادِقِ
وإنْ تَكُنِ الأُخْرَى فَأَقرِبْ بِلاحِقٍ ... تَـأَخَّرَ مِنَّـا مِـنْ تَقَـدُّمِ سَـابِقِ
فَقُربُكَ لِيْ أُنْسٌ وَبُعْدُكَ مُوحِشي ... ولُقيَاكَ مَسْلاتِي وفقدُكَ شَائِقِـي

كتب أبو مروان بن الجزيري إلى الوزير أبي عامر ابن شُهَيد، ويبدو أنّه كتبها وأرسل معها باقة ورد[2]: (من البسيط)

قُـلْ للـوَزِيرِ الـذي بَانَـتْ فَضَائِلُـهُ ... وقـامَ فينـا مَقَـامَ الغَيْـثِ نَائِلُـهُ
إذْ بَـانَ فَضْـلُ مَسَـاعِيْهِ وَهِـمَّتِـهِ: ... بَيِّنْ لنا شَرْحَ مَعْنىً سالَ سَائِلُـهُ
أواخِـرُ الـوردِ إذْ تَجْنِيْـهِ مُلتَقِـطًا ... أزكـى وأَعْطَـرُ نَشْـرًا أمْ أَوَائِلُـهُ؟
وأيُّ حَالَيْـهِ مَوجُـودًا ومُفْتَـقَدًا ... أَوْلَى وأَجْدرُ أَنْ تُرْعَى وَسَائِلُهُ؟
وقـد أتـاكَ لِتَوْدِيْـعٍ علـى عَجَـلٍ ... خُضْـرًا مَقَانِعُـهُ حُمْـرًا غَـلائِلُهُ

(1) نفس المصدر، ص255.
(2) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص174.

فَامْنَحْهُ منكَ قَبولًا واقْضِ نَهْمَتَهُ مِـنَ الـوَدَاعِ فقـد زُمَّـتْ رواحِلُـهُ

فأجابه أبو عامر ابن شُهَيد: (من البسيط)

يـا سَـيِّدًا أرِجَـتْ طِيبًـا شَمَـائِلُهُ وشَـاكَهَتْ شِـعرَهُ حُسْـنًا رَسَائِلُـهُ
وسَـائِلًا لِـيَ عمّـا لَـيْسَ يَجْـهلُهُ ولا الذي كُلِّفَ التَّفْصِيْلَ جاهِلُـهُ
الوَردُ عَهْدًا ونَشْرًا صِنوُ عَهْدِكَ لا تُنْسِـي أَوَاخِـرَه طِيْـبًا أَوَائِلُـهُ
وَوَصْلُهُ في كِلا الحَالَينِ مُفتَرَضٌ سِـيَّانِ قاطِعُـهُ جَهْـلًا وَوَاصِلـهُ
فـالعُودُ يَخفِـقُ والمِزْمَـارُ يَتْبَـعُهُ وهَاجِرُ الرَّاحِ قَدْ هَاجَتْ بَلابِلُـهُ
تُخْبَرْ بِمِثْلِ الذي أَنْتَ العَـلِيْمُ بِـهِ أَيَّامُنـا والصِّـبا تُعصَـى عَواذِلُـهُ

6-1 ما رُثِيَ به

قال أبو الأصبغ القرشي في رثاء ابن شُهَيد[1]: (من الطويل)

شَهَدْنا غَرِيباتِ المَكَارِمِ والعُـلا تُبَكّيْ على قَبْرِ الشُهَيديِّ أحْمَـدَا
وما زالَ أهْلُ الدِّينِ والفَضْلِ والتُّقَى عُكُوفًا بـه حتى حَسبناهُ مَسْجِـدَا
أُرِيدَ بِسَـقْيِ الْغَيْثِ إحياءُ حُفْـرَةٍ كَـدَرْنَا بِهَـا نَجْـمَ العُـلا الْمُتَوَقِّـدَا
وَلَمْ أَرَ مِثْلِي بَاتَ مُسْتَسْقِيَ الْحَيَا لماءِ حَيَاءٍ كانَ يَشْفِي مِنَ الصَّـدَى
فأَيُّ جَمَالٍ صَارَ في قَبْضَـةِ الـثَّرَى وأيُّ بَهَـاءٍ قَـدْ طَوَتْـهُ يَـدُ الـرَّدَى
وأيُّ قَنَاةٍ في طُلَى الأرضِ غُيِّبَـتْ وأيُّ حُسَامٍ في حَشَا الأرضِ أُغْمِدَا

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج1، 259.

بِنَفْسِي الذي أَوْدَى وأنشأ للنَّـدَى حَمَامًـا على دَوْحِ العَـلاءِ مُغَـرِّدَا
أبـا عـامرٍ، بُعْـدًا لِسَـهْمٍ مُصِيبَـةٍ رَمَـاكَ بِـهِ رَيْـبُ المَنـون فَأَقْصَـدَا
لقـد فُـتَّ في نَشْـرِ الفَضَـائِلِ يَافِعًـا وبرّزْتَ في جَمْعِ الْمَكارِمِ أَمْـرِدَا
لَشَقَّتْ عليكَ المَكرُماتُ جُيُوبَهَـا وَأَظْهَرَ فيكَ المَجْدُ خَـدًّا مُخَـدَّدَا

وقال أيضًا من قصيدة في رِثائه[1]: (من الطويل)

نَأَى مَنْ بِهِ كانَ السُّرُورُ مُواصِـلًا وَأَسْـلَم قَلْبِـي للصَّـبَابَةِ والفِكْـرِ
لَعَمْرُكَ مَا يُجْدِي النَّعِيْمُ إذا نَـأَتْ وُجُوهُهُمُ عَنِّي ولا فُسْحَةُ العُمْرِ

وقال أبو حفص بن برد الأصغر في رثاء أبي عامر ابن شُهَيد[2]: (من الوافر)

بِفِيْـكَ التُّـرْبُ مِـنْ نـاعٍ نَعانـي نَعَـى غَيْـرِي إِلَـيَّ وَمَـا عَدَانِـي
وَكَيْـفَ ولَـمْ يَسِلْ طَرْفِي بِدَمـعٍ عليـهِ، ولـمْ يُجَـنَّ لَـهُ جَنَـانِي؟
لأَيَّـةِ خَصـلةٍ تَبْكِيـكَ عَـينٌ ومـا لِـي بالحِسَـابِ لهـا يَـدِانِ؟
أَلِلْهِـمَمِ المَنُوطَـةِ بالثُّرَيَّـا أَمِ الشِّـيَمِ المُهَـذَّبَةِ الحِسَـانِ؟
أَمِ الكَـرمِ الـذي مـا زالَ يَجْـرِي مَـعَ الْأَنـواءِ في طَلَـقِ الرِّهَـانِ؟
أَمِ الْقلـمِ الـذي قـد كـانَ يَجْنِـي مِـنَ القِرْطـاسِ نُـوّارَ البَيَـانِ؟
أَمِ الـرأيِ الـذي مـا زالَ يُغْنِـي عَـنِ السَّـيْفِ المُهَنَّـدِ والسِّنـان؟
شَـهِدْتُ لقـدْ أُصِـيْبَ بنـو شُـهَيدٍ بِقَاطِعَـةِ السّـواعِدِ والبنـانِ
بـهِ دَرَجـوا مِـنَ الدُّنيـا فبانُـوا وكـلٌّ مـا خَـلا الرحمـنَ فانـي

(1) نفح الطيب للمقَرِّي، ج3، ص594.
(2) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص259.

قال الحُميديّ: أخبرني الرئيس أبو الحسن عبد الرحمن بن راشد الراشديّ قال: لما نعيتُ أبا عامر ابنَ شُهَيد إلى أبي عبد الله بن الحنّاط وقد عرفت ما كان بينهما من المناقضة بكى، وأنشدني لنفسه بديهة[1]: (من السريع)

لمَّا نعى الناعي أبا عامِرٍ ... أَيْقَنْتُ أَنِّي لستُ بالصَّابِرِ
أَوْدَى فَتَى الظَّرْفِ وتِربُ النَّدى ... وسيدُ الأولِ والآخِرِ

وقال أبو جعفر بن جرج وقد وقف على قبر أبي عامر ابنِ شُهَيد فرأى شِعرَه المنقوش الذي يُخاطِبُ فيه صاحِبَه الزّجّالي: (من مُخَلَّع البسيط)

يا صاحِبِيْ قُمْ فقَدْ أَطَلْنَا ... أَنَحْنُ طُولَ المَدى هُجُودُ؟

قالَ يرثيه[2]: (من مجزوء البسيط)

ماذا طَوَتْ ويبَها اللُّحُودُ ... مِنْ كَرَمٍ فَرعُهُ حَصِيْدُ
هذا الشُهَيديُّ رَهْنُ قَبْرٍ ... وشِعرُهُ ناطِقٌ شَهيدُ
بادَرَنِي في الصَّفِيْحِ مِنْهُ ... مُحاوِرٌ صَحبَهُ مُشيدُ
وأَفْصَحَ القَبْرُ باعْتِبَارٍ ... وامْتَنَعَ القَولُ والنشِيدُ
كيفَ يَحِيرُ الْجَوابَ قَومٌ ... كالتُّربِ في تُرْبِهِمْ هُجُودُ؟
قَدْ عَفِيَتْ مِنهُمُ جُنُوبٌ ... وعُفِّرَتْ مِنهُمُ خُدودُ
ونَخَرَتْ بالبِلى عِظَامٌ ... وانتَثَرتْ في الثَّرى الجُلُودُ
كَمْ شَيَّدُوا في الدُّنا قُصورًا؟ ... وقَصْرُهُمْ مَلْحَدٌ مَشِيدُ

(1) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص58.
(2) الذخيرة لابن بسّام، ج3، ص342.

كـــمْ نَعِمُـــوا لـــذَّةً وكَـــمْ قَـــدْ ... غـــادَتْهُمُ بـــالكُؤوسِ غيـــدُ؟
مـــا مَـــنهُمُ إنْ دَعـــا سَـــؤولٌ ... مُبْـــدِئُ قَـــولٍ ولا مُعِـــيدُ
أعْـــزِزْ أبـــا عـــامِرٍ عَلينـــا ... أنّـــكَ مِـــنْ دُونِنـــا الفَقِيْـــدُ
لَـوْ كُنـتَ تُفـدَى فَـدَتْكَ نَفْسـي ... وَطـــارِفُ المَـــالِ والتِّلِيْـــدُ
كـمْ لـكَ مِـنْ مَنْطِـقٍ صَـؤولٍ ... فَصْـــلٍ كمـــا تَـــزأرُ الأُسُـــودُ؟
أيـــنَ غَمَاماتُـــكَ الْغَـــوادي ... يـــروى بهـــا الوَهْـــدُ والنجُـــودُ؟
أيـــنَ وَزاراتُـــك الهـــوادي؟ ... أَيـــنَ إمَاراتُـــك الصعُـــودُ؟
ولَّـــتْ كمـــا أقشَـــعَتْ سَحَـــابٌ ... فـــلا بُـــرُوقٌ ولا رُعُـــودُ
أَوْدَى عَمِيْـدُ الـوَرى فَكُـلُّ الـ ... ـــوَرى لِفَـــرطِ الْأَسَـــى عَمِيـــدُ
إنْ تَحتَصِـدْكَ المَنُـونُ حَصـدًا ... فَكُـــلُّ زَرْعٍ غَـــدًا حَصِيْـــدُ
ولـــو تُنيـــلُ العُـــلا خُلُـــودًا ... كـــانَ لتلـــكَ العُـــلا خُلُـــودُ
إيـــهٍ أبـــا عـــامِرٍ وأنـــتَ الـــ ... ـــجَوادُ بـــالقَولِ لا تَجُـــودُ
إنّـــا أَزَرْنَـــا الرِّكـــابَ قَصْـــدًا ... قَـــبرُكَ حَـــقٌّ لَـــهُ الْقُصُـــودُ
كالبيـــتِ تَهْـــوِي إلَيْـــهِ شُعْـــثٌ ... وَمُشْـــعَراتُ الهَـــدِيِّ قُـــودُ
جَـــادَ بِـــذاكَ الثَّـــرَى رَبِيـــعٌ ... كَمِثْـــلِ مـــا جَـــادَ مِنْـــكَ جُـــودُ
لِيُزْهِـــرَ النَّـــوْرُ فـــي ذُراهُ ... كَأَنَّـــهُ لَفْظُـــكَ البَـــرودُ
يَقـــولُ مَـــنْ جَـــاءَهُ أَوَشْـــيٌ ... أمْ ذلـــكَ المَنطِـــقُ السَّدِيْـــدُ

مصادر كتاب «حانوت عطّار»

كتاب «حانوت عطّار» يحتوي على كثير من أسماء الأعلام حسب ما

وصل إلينا من المصادر التي نقلت عنه، كما أنه يشتمل على مقطوعات نثرية في الوصف وذكر البلدان والأخبار، إضافة إلى آرائه النقدية.

ففي كتاب «جَذوة المُقتَبِس» للحُميديّ يأتي بذكر عدد من أعلامه نقلًا من كتاب «حانوت عطّار»، ويؤكد بقوله: ذكره أبو عامر ابن شُهَيد في كتاب «حانوت عطّار»، أو ذكره ابن شُهَيد.

والضبّي في «بُغية الملتمِس» ينقل النصوص التي ذكرها الحُميديّ نقلًا من «حانوت عطّار»، وقليلًا ما كان يقول: ذكر الحُميديّ، وإنما يشير مباشرة بقوله: ذكره أبو عامر في «حانوت عطّار». و«المُغرِب في حُلى المَغرِب» فإنه يقول: ذكره أبو عامر ابن شُهَيد.

وهناك أعلام لم تذكرهم المصادر إلّا نقلًا من كتاب «حانوت عطّار»، كأخيه وعمّه.

أما أبو محمد بن حزم في كتابه السابع من كتاب «التقريب لحدّ المنطق» فإنه يقول: وبلغَنا حين تأليفنا هذا أنّ صديقنا أحمد بن عبد الملك ابن شُهَيد أَلَّفَ في ذلك كتابًا، وهو من المتمكّنين من علم البلاغة الأقوياء فيه جدًّا، وقد كتب إلينا يخبرنا بذلك، إلّا أننا لم نرَ الكتاب بعد.

وكذلك ابن الصيرفي في كتابه «المختار من شعر شعراء الأندلس» أورد الرسالة التي أُنشِئَت عند الظَّفَر بعبد الله بن المنصور وقتله، لَمَّا خرج على أبيه، فقد ذكر أنّها من كتاب «حانوت عطّار». وذكر أبياتًا من شعره، ومقاطعَ من نثره.

أمّا الأصفهاني في خريدته فذكر مقطوعات من التشبيهات والرسائل قال إنها من «حانوت عطّار». إضافة إلى الكَلاعيّ في كتابه «إحكام صنعة الكلام».

الكتاب الثاني
الأعلام

1. ابن الرمادي[1]

علي بن أبي عمر يوسف بن هارون الرّمادي: أديب شاعر، ذكره أبو عامر ابن شُهَيد، وروى له في وصف سحابة[2]: (من البسيط)

كأنَّما الرَّعْدُ فيها قارئٌ سُوَرًا قَرَأْتُها بِشُعاعِ البَرْقِ مَكْتُوبُ

ويقول الحُميديّ صاحب «جَذوة المُقتَبِس» بأنّه سمع هذا البيت إنشادًا من أبي عامر ابن شُهَيد[3].

وكان يسمى أبا جنيس، وهي الأصل الدارج الإسباني الذي أُخِذَ منه اسم الرمادي، وكان يُرمَى بالزندقة لكثرة مخالطتِه النّصارى، توفِّي سنة 413هـ[4].

وقال: ابن بسام الرّمادي وابن هذيل وأبو مروان ليسوا من طبقة هذا الديوان، إذ تقدّم بهم الزمان، ولا من شرطنا، إذ لم يلحقهم أحدٌ من أهل عصرنا[5]. وقد أورد له حكاية مع يحيى بن هذيل في وصف الحمامة، فقال: وقد افتُضِح في وصف الحمامة في هذه العروض والقافية بأفقنا: يوسف ابن

(1) بُغيَة المُلتمِس، ص 375.
(2) بُغيَة المُلتمِس للضبّي، ص375.
(3) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي ص310. وللعلم: عندما توفي أبو عامر كان الحُميدي طفلًا.
(4) تأريخ الفكر الأندلسي، لبالنثيا، ص83- 91.
(5) نفس المصدر، مج3، ص261.

هارون الرّمادي مع يحيى بن هذيل، وأنا أسوق الحكاية بنصّ ما حكاه الرّمادي عن نفسه، قال: بكرت إلى المُطرف بن مثنى فألفيت قد بَكَّر قبلي يحيى بن هذيل، فقال لي ما عندك؟ فقلت ما عندي كبير معنى، ولكن ما عندك أنت؟ فأخرج من كُمِّه قصيدته التي يقول فيها في صفة الحمامة[1]: (من الكامل)

ومُرِنّـةٍ والـدّجنُ يَنسِـجُ فَوقَهـا ... بُرْدَيْـنِ مِـنْ طَـلٍّ وَنَـوْءٍ بَـاكِ
مَالَـتْ على طَيِّ الجَنَاحِ وإنَّمَـا ... جَعَـلَتْ أَرِيكَـتَها قَضِيـبَ أَرَاكِ
وَتَرَنَّمَـتْ لَحْنَـيْنِ قَـدْ حَلّتْهُمَـا ... بِـغِنَاءِ مُسْمِعَـةٍ وأَنَـةِ شَـاكِ
ففقدتُ مِنْ نَفْسي لِفَرْطِ تَلَهُّفِـي ... نَفَسَ الْحَيَاةِ وقُلتُ مَنْ أَبْكَـاكِ؟

فأنشدَنيها، وأنا أعدُّ محاسنه فيها، فلما أكملها قال لي: انصرف إلى المكتب وتأدب حتى تُحْكِمَ مثل هذا، فكأنه حرّكني، واتفق أنّه لم يخرج إلينا أبو المطرف ذلك اليوم، فبكرت من الغد إليه وأنشدته قصيدتي التي أقول فيها في وصف الحمامة[2]: (من الكامل)

أَحَمَامَـةٌ فَـوْقَ الْأَرَاكَـةِ تَثْنِـي ... بحيـاةِ مَـنْ أَبْكَـاكِ مَـا أَبْكَـاكِ؟
أمّا أنا فَبَكَيْتُ مِنْ حُرَقِ الْهَوَى ... وفِراقِ مَنْ أَهْوَى، أَأَنْتِ كَذاكِ؟

قال: فلما سمعها ابنُ هذيل قال: عارضتني! قلت: لا، والله إلّا ناقضتك، فقال: اذهب فقد أخرجتك من المكتب. ويقول ابن بسّام: إنّ كلام الرمادي من الحُلو المصوغ، فلا نسبة بينه وبين كلام ابن هذيل، وقد انفرد في صفتها انفراد سهيل[3].

(1) ذخيرة ابن بسّام، ج3، ص259.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) ذخيرة ابن بسّام، مجلد3، ص260.

وابن بسّام لم يذكر المصدر الذي نقل منه الرواية، إذ يذكر أنّه لم يلتقِ بمن التقوا بالرمادي[1].

ومن شعر الرمادي في صفة الألثغ قوله:[2] (من الكامل)

لا الرَّاءُ تَطْمَعُ في الْوِصَالِ ولا أنا الهَجْرُ يَجْمَعُنَا فَنَحْنُ سَوَاءُ
فإذا خَلَوْتُ كَتَبْتُهَا في راحَتِي فَبَكَيْتُ مُتَحِبًا أَنَا والرَّاءُ

وكان يوسف بن هارون الرّمادي أول من أكثر من التضمين في المراكز في بناء الموشحات، يضمّن كلّ موقف يقف عليه في المركز، فهو أول من اعتمد في الموشحات الوقف في المركز [3].

ويوسف بن هارون من أوائل من أكثر من شعر الزجل بالأندلس، وسمّاه بالنثيا: أبا يوسف هارون، وكان سعيد بن عبد ربه (ابن عم صاحب العقد) سبق إلى ذلك (أي في كتابة شعر الزجل)، وكان سعيد مَعنيًّا بكتابات الإغريق [4].

ويرى بالنثيا أنّ الزجل والمُوَشَّحة فنٌّ شعري واحد، ولكنّ الزجل يطلق على السوقي الدارج منهما، فقد كان يُتغَنَّى به في الطرقات، أما المُوَشَّحَة فلا تكون إلّا في الفصحى[5].

(1) نفس المصدر، مجلد3، ص261.
(2) الذخيرة لابن بسّام، مجلد1، ص239.
(3) تأريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا، ص186.نلاحظ أنّ بالنثيا في ص83 ذكر وفاته سنة 413هـ.
(4) تأريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا، مؤنس، ص189.
(5) نفس المصدر، ص174.

ويقول بالنثيا بأنّ يوسف بن هارون اتُّهِم بالزندقة، لكثرة اتصاله بالنّصارى، وتوفي سنة412هـ[1]. (يُلاحَظ أنّ بالنثيا أورد له تاريخين للوفاة: 1412-و1413هـ).

2. ابن فاكان[2]

أبو عبد الله بن فاكان، أديب شاعر، يتكلم على معاني الآداب ومحاسن الأشعار. ذكره أبو عامر ابن شُهَيد، وذكر له مع صاعد بن الحسن منازعات في ذلك[3].

3. ابن ماء السماء

عُبادة بن عبد الله بن ماء السماء أبو بكر. من فحول شعراء الأندلس، متقدم فيهم مع علمه، وله كتاب في «أخبار شعراء الأندلس»، ذكره أبو محمد علي ابن أحمد وأنه كان حيًّا في صَفَر سنة إحدى وعشرين وأربعمئة [4].

وذكره أبو عامر ابن شُهَيد فقال: إنّ عُبادة مات في شوّال سنة تسع عشرة وأربعمئة بمالقة، ضاعت منه مئة دينار فاغتمَّ عليها غمًّا كان سبب منيّته[5].

يقول الحُميديّ: فلا أدري على من تمَّ الوهمُ منهما في هذا، وأبو محمد

(1) ذخيرة ابن بسّام، ج3، ص260.
(2) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص397.
(3) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص397.
(4) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص293.
(5) نفس المصدر والصفحة.

أعلم بالتواريخ، والله أعلم [1].

ومن شعر عُبادة يصف هول البرد الذي كان في صَفَر سنة إحدى وعشرين وأربعمئة قوله [2]: (من المنسرح)

يـا عِبْـرةً أُهـدِيَتْ لِمُعْـتَبِرٍ ... عَشِـيَّةَ الأربعـاءِ مِـنْ صَـفَرِ
أَقْبَلَنـا اللهُ بَـأسَ مُنْتَقِـمٍ ... فيهـا وثَنّـى بِعَفـوِ مُقْتَـدِرِ
أَرْسَـلَ مِـلْءَ الأكُـفِّ مِـنْ بَـرَدٍ ... جَلامِـدًا تَنْهمِـيْ علـى البَشَـرِ
فَيَـا لَهَـا آيَـةٌ وَمَوعِظَـةٌ ... فيهـا نَـذِيْرٌ لِكُـلِّ مُزدَجِـرِ
كَـادَ يُـذِيبُ الْقُلـوبَ مَنظَرُهَـا ... وَلَـو أُعِيْـرَتْ قَسَـاوَةَ الحَجَـرِ
لا قَـدَّرَ اللهُ في مَشِيـئَتِهِ ... أَنْ يَبْتَلِينَـا بِسَـيِّءِ القَـدَرِ
وَخَصَّـنَا بِـالتُّقَى لِيَجْعَلَنَـا ... مِـنْ بَأْسِـهِ المُتَّقَـى علـى حَـذَرِ

وهو عُبادة بن عبد الله الأنصاري من ذرِّيَّة سعد بن عُبادة، وقيل له: ابن ماء السماء لجدّهم الأول، ولحق بقرطبة الدولة العامرية والحمودية ومدح رجالها. وكان في ذلك العصر شيخ الصناعة وإمام الجماعة [3].

وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها، ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة مُنْآدها، وقوّم ميلَها وسنادها، فكأنها لم تُسمَع بالأندلس إلّا منه، ولا أُخِذَت إلّا عنه، واشتُهِر بها

(1) نفس المصدر والصفحة.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص361.

اشتهارًا غلب على ذاته، وذهب بكثير من حسناته[1].

وهو الذي أحدث في الموشحات التّضفير، وذلك أنّه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمنها[2].

ومن شعره: [3] (من الطويل)

إذا رُمتُ قَطْفَ الوردِ سَاوَرَنِي الصَّدْغُ ... بِعَقْرَبِ سِحْرٍ في فُؤادِي لهُ لَدغُ
غَزَالٌ بِجِسْمِي فَترَةٌ مِنْ جُفُونِه ... وفي أَدْمُعِي مِنْ لونِ وجْنَتِهِ صَبْغُ
زِيَارَتُهُ أَخفَى خَفَاءً مِنَ السُّهَى ... ودُونَ فَرَاغِي مِنْ مَحَبَّتِهِ الفرغُ

وقوله: [4] (من الكامل)

أُجْلُ المُدامَةَ فَهْيَ خَيرُ عَروسِ ... تَجْلُو كُروبَ النَّفْسِ بالتَّنْفِيْسِ
واسْتَغْنِمِ اللذّاتِ في عَهدِ الصِّبا ... وَأَوَانِهِ، لا عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسِ

وقال عُبادة: أول شعر قلتُه أنّي وقفتُ على هدَف الرمي بعُدوَة النهر بقرطبة، وثَمّ غلمان من أبناء العبيد ينتضلون، فقلت: [5] (من الطويل)

وما راعَنِي إلّا سِهَامٌ رَواشِقٌ ... إلى هَدَفٍ يَنْحُوهُ كُلٌّ يَدَيْ ظَبْيِ
أَقَامُوهُ كَيْ يَرْمُوا إليهِ فلم يَكُنْ ... لَهُمْ غرَضٌ حاشا فُؤادِيَ في الرَّمْيِ

قال ابن بسّام: أخبرني الفقيه أبو بكر بن العربي عن الفقيه أبي عبد الله

(1) نفس المصدر والصفحة.
(2) نفس المصدر، ص362.
(3) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص363.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) نفس المصدر، ص366.

الحُميديّ قال: أخبرني الفقيه أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم أنّ أبا بكر عُبادة كان حيًّا في سنة إحدى وعشرين وأربعمئة، قال أبو عبد الله الحُميديّ: وذكره أبو عامر ابن شُهَيد، فقال: إنّ عبادة هذا مات في شوّال سنة تسع عشرة بمالقة، ضاعت له مئة مثقال، فاغتمَّ عليها وكانت سبب وفاته[1].

4. أبو جعفر بن اللمائي[2]

أبو جعفر أحمد بن اللمائي، أديب شاعر، ذكره أبو عامر ابن شُهَيد، ومن شعره: [3] (من المتقارب)

أَلِمَّا فَدِيتُكُما نَسْتَلِمْ ... مَنازِلَ سلمى على ذِي سَلَمْ
مَنازِلُ كُنتُ بِها نازِلًا ... زَمَانَ الصِّبَا بَيْنَ جِيْدٍ وفَمْ
أَمَا تَجِدانِ الثَّرَى عَاطِرًا ... إذا مَا الرِّياحُ تَنفَّسْنَ ثَمْ؟

هوالوزير الكاتب أبو جعفر ابن اللمائي أحد أئمة الكتاب، وشهب الآداب، من سخرت له فنون البيان تسخير الجنّ لسليمان، وتصرف في محاسن الكلام، تصرف الرياح بالغمام [4]. وقد أورد له مجموعة من النثر والنَّظم.

فمن شعره قوله[5]: (من مجزوء الكامل)

غَنَّى وَلِلْإِيْقَاعِ فَوْ ... قَ بَيَانِ مَنْطِقِهِ بَيَانْ

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص362 – 363.
(2) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص 394.
(3) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص 394.
(4) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص472.
(5) نفس المصدر، ص475.

وكأنَّمَـــــا يَـــــدُهُ فَـــــمٌ وَقَضِيبُـــــهُ فيهـــــا لِســـــانْ

وقال في علّته عندما روّح عليه بعض إخوانه: [1] (من المنسرح)

رَوّحَنِـــي عَائِـــدِي فَقُلـــتُ لَـــهُ: مَـهْ، لا تَزِدْنِي على الـذي أَجِـدُ
أَمَـا تـــرى النَّـــارَ وهـــي خَامِـدَةٌ عنـــدَ هُبُـــوبِ الرِّيَـــاحِ تَتَّقِـــدُ؟

وقوله: [2] (من السّريع)

يـا كَبِـدِي بالْبَـيْنِ مَـنْ أَكْلَمَـكْ؟ ويا دُمُوعَ الْعَينِ مَـنْ أَسْجَمَكْ؟
ويـا فـؤادي كـم أُقَاسـي الْهَـوى مُكْتَتِمًـا عَنِّـيَ، مـا أَكْتَمَـكْ!؟
عَلَّمْتُـكَ الْكَتْـمَ أَمَـا تَسْتَـحِي وَيْحَـكَ أَنْ تَكْتُـمَ مَـن عَلَّمَـكْ؟
كُنـتُ أُداوِيـكَ فـلا ذَنْـبَ لِـي لَـوْ أَنَّنِـي أَعلَـمُ مـن أَسْقَمَـكْ؟

وقد رثاه ابن شُهَيد حين وصله نعيُه بقصيدة منها: [3] (من البسيط)

أمِـنْ جَنابِهُـمُ النَّفـحُ الجَنُـوبِيُّ أَسْرَى فَصَاكَ بـه في الْغَوْرِغَـارِيُّ؟

ومنها:

فَقلتُ والسُّقمُ مَنْشُورٌعلى جَسَدِي يَحْدُو الرَّدَى وَرِدَاءُ الْعَيْشِ مَطْوِيُّ
أَهْدَى اللَمَائِيُّ مِـنْ أَزهَـارِ فِكْرَتِهِ نَشْـرًا فقـال الـدُّجَى: مَـرّ اللمـائِيُّ
فَقِيلَ: مـاتَ، فقـالَ الليلُ: قَـارَبَ ذا فَانْهَـالَ مِـنْ مُقلَتِـيْ لَـوْنٌ سـماكِيُّ
وَبِـتُّ فَـردًا أُنـاجِي مُقْلَتِـيْ شَـغَفًا كَـأَنَّنِي في ثُقُـوبِ الـدارِ جِنِّـيُّ

(1) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص475.
(2) نفس المصدر، ص476.
(3) نفس المصدر، ص255.

لا عِشْتُ إِنْ متَّ لِيْ يا وَاحِدِي أَبَدًا وَمَوتُنَا واحِدٌ لا شَكَّ مَرْئِيُّ

وهناك مفارقة في هذه القصيدة وموت أبي عامر ابن شُهَيد، حيث إنّ اللمائي توفي عام 465 هـ وأبو عامر ابن شُهَيد مُتوفى سنة 426 هـ، ويعلق الدكتور إحسان عباس على ذلك: ربما أنهما كانا شخصين، أو أنّ النعي يكون كاذبًا [1].

قُلتُ: القصيدة ليست في رثاء أبي جعفر اللمائي، كما وردت عناوينها في الكتب والدواوين، وليست بحاجة إلى ما أتعب نفسه الدكتور إحسان عباس في تأريخ موت أبي جعفر، بل هي في رثاء ابن شُهَيد لنفسه، ولولا ما ذُكر لها من عناوين، لكنت وضعتها في مرثيات ابن شُهَيد لنفسه.

أمّا جملة: «فقيل: مات، فقال الليل: قارب ذا» فإنّها بالبساطة لحزن اللمائي على مرض ابن شُهَيد، أي مات كمدًا حين رآه. ويؤكّد ابنُ شُهَيد هذا في قوله: «إن متُّ قبلك... أو متّ قبلي..»، فهذا يعطينا نظرةً أنّ اللمائي كان في زيارة لابن شُهَيد فحزن كثيرًا، فنظم ابن شُهَيد القصيدة، وأيضًا ذُكر أنّ ابن شُهَيد هَمَّ بقتل نفسه، وقد نظم ذلك في قصيدة أخرى أيضًا.

ومن نثر اللمائي قوله[2]:

وردني كتاب كريم بنتِ البلاغة سماءَ بيانه، وجادت أرض إحسانه، فنور شمسه يشرق في ليل نِقْسه، وكوكب نوّاره يأتلق في أسطاره، فأصبحت تختال بخُلّتك، وتبسِم عن مودتك، وقد سرى خيالك فشوّق، واستطار برقك فأرّق، فأجفان الإخلاص ناظرة إليك، ويدُ القَبول مسلّمة عليك.

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص255.
(2) نفس المصدر، ص474.

5. أبو جعفر بن جواد

أبو جعفر بن جواد مشهور الفضل، مذكور في علم الطبّ، معروف بالمروءة، وسعة النفس والإيثار.

ذكره أبو عامر الشُّهَيدي في كتاب «حانوت عطّار» وقال: أخبرني حامد بن سمجون قال: لما أنشد أبو عُمر بن دراج خيرانَ العامري قصيدتَه المشهورة فيه عند خروجه من البحر، وبخسه حظّه في الجائزة، بلغ الخبر أبا جعفر بن جواد، فقصده بخمسة عشر مثقالًا ودفعها إليه، وقال له: اعذر أخاك فإنّه في دار غربة[1].

6. أبو ساكن حامد بن سمجون[2]

له تصرف في البلاغة، وكتاب في البديع، ذكره أبو عامر ابن شُهَيد، وأثنى عليه[3].

ويقول عنه ابن سعيد في المُغرِب، نقلًا عن الحجاري: إنه من بيت جليل، كانوا بدورَ مجالس، وصحب أبو ساكن الظافرَ بن ذي النون، ومن شعره:[4]

(من السريع)

كَلَّفْتَنِي الصّبْرَ وَأَنتَ الذي ... أنفقتَه حتى أَطَعْتَ الجِمَاح

أَشْكُو ولا تَرْحَمُنِي دَائمًا ... كما شَكا البَحْرُ لِعَصْفِ الرِّيَاحْ

(1) جَذوة الحميدي، ص394.

(2) جَذوة الحُميدي، ص 197.

(3) جَذوة الحُميدي، ص197.

(4) المغرب ج2، ص53، ت: د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4.

وَتُظْهِـرُ الخَجْـلَةَ مَكْـرًا كمـا تَخْجَلُ عند الْقَطْعِ بِيْضُ الصِّفَاحْ

وفي التكملة لابن الأبار: له كتاب في البديع، ويقول: هو فيما أحسب صاحب التآليف في الأدوية [1].

07. أبو عمر بن دراج القسطلي[2]:

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج القسطلي، ذكره أبو عامر ابن شُهَيد فقال: والفرق بين أبي عمر وغيرِهِ أنّ أبا عمر مطبوع النظام، شديد أسر الكلام، ثم زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب، وما تراه من حوكه للكلام، وملكه لأحرار الألفاظ، وسعة صدره، وجيشة بحره، وصحّة قدرته على البديع، وطول طلعته في الوصف، وبغيته للمعنى وترديده، وتلاعبه به وتكريره، وراحته بما يتعب الناس، وسعة نفسه فيما يضيق الأنفاس... انتهى كلام ابن شُهَيد[3].

ومن قصيدة له في وصف وداعه لمن تخلفه، وذكر ابنه الصغير بما لا شبيه له ولا نظير، ولا مثيل ولا عديل: [4] (من الطويل)

وَلَمَّـا تَـدَانَتْ لِلْـوِدَاعِ وقـد هَفَـا بَصِـيرِيَ مِنْهَـا أَنَّـةٌ وَزَفِـيرُ
تُنَاشِـدُنِي عَهْـدَ الْمَـوَدَّةِ والهَـوَى وفي الْمَهْـدِ مَبْغُـومُ النِّـدَاءِ صغِيرُ

(1) التكملة لكتاب الصِّلة، ج1، ص432.
(2) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص57-58.
(3) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص57-58.
(4) نفس المصدر، ص75.

عَيِّيٌ بِمَرْجُوعِ الخِطَابِ وَلَفْظُهُ ... بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ خَبِيرُ
تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ الْقُلُوبِ وَمَهَّدَتْ ... لَهُ أَذْرُعٌ مَحْفُوفَةٌ وَنُحُورُ
فَكُلُّ مُفَدّاةِ التَّرَائِبِ مُرْضِعٌ ... وَكُلُّ مُحَيَّاةِ الْمَحَاسِنِ ظِيْرُ
عَصَيْتُ شَفِيْعَ النَّفْسِ فيه وَقَادَنِي ... رَواحٌ بِتَدْآبِ السُّرَى وَبُكُورُ
وَطَارَ جَنَاحُ البَيْنِ بِي وَهَفَتْ بِهَا ... جَوَانِحُ مِنْ ذُعْرِ الفِرَاقِ تَطِيرُ
لَئِنْ وَدَّعَتْ مِنِّي غَيُورًا فإِنَّنِي ... على عَزْمَتِي مِنْ شَجْوِهَا لَغَيُورُ

ونثر أبي عمر، رحمه الله، دون نظمه الرائق بكثير، فلذلك ما ألممت منه بالشيء اليسير، وعوّلت على عارض شعره الغزير [1].

وقال يصف الهلال: (من الرّجز) [2]

وَمَحَقَ الشَّهْرُ كَمَالَ البَدْرِ ... فَلاحَ في أُولَى الصَّبَاحِ النَّضْرِ
كَأَنَّهُ قُرْطٌ بِأُذْنِ الْفَجْرِ

وكان أبو عمر القسطلي وقتَه لسانَ الجزيرة شاعرًا، وأولًا حين عَدِّ معاصريه من شُعرائها المشهورة، وآخرَ حاملي لوائها، وبهجةَ أرضها وسمائها، وأسوةَ كُتابِها وشُعرائها، لهُ عُقِدَ فخرُها المحمولُ وسُهِمَ، وبه بُدئ ذكرها الجميل وخُتِم، حَلَّ اسمه من الأماني محلَّ الأنس، وسارَ نظمُهُ ونثرُهُ في الأقاصي والأداني مسيرَ الشَّمس [3].

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص61.
(2) يتيمة الدهر للثعالبي، ج2، ص133.
(3) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص56.

ويقولُ عنه الثعالبي في يتيمته: بلغني أنّ أبا عمر القسطلي كان عندهم بصُقع الأندلس كالمتنبي بصُقعِ الشام، وهو أحدُ شُعرائهمُ الفحولِ هنالك، وكان يُجيدُ ما ينظم.[1]

ومن نثر القسطلي، كتب إلى سليمان بن الحكم أمير المؤمنين[2]:

«حاشا لله أن أَسْتَشِفَّ الحسيَ قبل جُمومه، وأستكرِهَ الدَّرَّ قبل حُفوله، أو أتعامى عن سراجِ المعذرة، وأرغبَ عن أدب اللهِ في نظرة إلى ميسَرة.

وقد قلبتُ لهم ظهر المِجَنّ، وميَّزتُ بين المعسورِ والميسورِ، فما وجدتُ أحسنَ بَدءاً، ولا أحمدَ عودًا، مما أذِن اللهُ فيه لعبادِه الذين أعمَرَهُم أرضَه، وسّخَّر لهم برَّهُ وبحرَه، أن يمشوا في مناكِبِها ويأكلوا من رزقهِ، وحين نتقَلَّبُ ففي كرمك، وأين نأمَنُ ففي حَرمكَ، وحيثُ لا تُوحِشنا دعوتُك، ولا تفوتنا نعمتُك، من مُلكِكَ إلى مُلكِكَ».

وله من أخرى إلى علي بن حمُّود[3]:

«حسبُكَ اللهُ يا ابنَ رسولِ اللهِ، وعلى هُدىً من الله فيما خَفَقتْ إليه راياتُك، وصدقت به آياتُك، جديرٌ أن يُعِزَّ بطاعتِه نصرَك، كما شرحَ بتوفيقه صدرَك، ويُتمِّمَ بتأييده أمرك، بما أوليتَ بأوليائِه المؤمنين، وأبليتَ في عباده الصالحين، المُصابين في الأموالِ والأهلين، أيّام تزاحمت إليهم أسباب القضاء بالبأساء

(1) نقلاً من الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص57.
(2) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص58- 59.
(3) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص59.

والضرّاء، وأبرقت عليهم آفاق السماء بسيوف الأعداء، تسِحّ بوابل الدّماء وتموج بأسراب السّباء، فسرعان ما هاموا فلا وزر، وربعوا فلا مستقرّ، ونادوا ولات حين مناص ولا فوت، إلّا من أعفاه الموت، فأصبحوا أنفاض الجلاء، وأغراض الفناء، قد جهدوا بالبلاء، وعَيُوا بالداء العياء، فلَئِن زُلزِلت بهم الأرض، لقد سكن بهم عزّ سلطانك، ولئن تهافت بهم الذعر، لقد اطمأنّوا في مهاد أمانك.

8. أبو القاسم الإفليلي[1]

إبراهيم بن محمد بن زكريا بن مفرج من ولد سعد بن أبي وقاص القرشي الزهري، من أهل قرطبة. وإفليلُ قرية من قُرى الشام كان هذا النسب إليها[2].

وُلدَ في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة. وتُوفِّيَ في آخِر السّاعة الحادية عَشْرةَ وأولِ السّاعة الثانيَةَ عشرةَ من يومِ السبت الثالثَ عَشرَ من ذي القِعْدَةِ من سنة إحدى وأربعينَ وأربع مئة، ودُفِنَ يوم الأحدِ بعد صلاة العصرِ في صحن مسجدٍ خَربٍ عند باب عامر، وصلى عليه محمد بن جهور بن محمد بن جهور[3].

(1) كتاب الصِّلة في تأريخ علماء الأندلس لابن بَشكَوال، ص90.

(2) كتاب الصِّلة في تأريخ علماء الأندلس لابن بَشكَوال، اعتنى به د. الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ص90.

(3) نفس المصدر، ص91.

كان حافظًا للأشعارِ واللغة قائمًا عليهما، ووَليَ الوَزارة للمُستكفي بالله، وكان صادق اللهجة، حسَنَ الغيبِ، صافي الضمير، حسَنَ المُحاضرَةِ، مُكرِمًا لجليسِهِ، ولَقِيَ جماعة من أهلِ العلمِ وجماعة من مشاهير المُحدِّثين[1].

قال ابن حيان: قد بَذَّ أهلَ زمانِه بقرطُبَة في علمِ اللسانِ العربي، والضَّبطِ لِغريبِ اللغةِ، في ألفاظ الأشعارِ الجاهليَّةِ والإسلامِيَّة، والمُشارَكة في بعضِ معانيها، وكان غيورًا على ما يَحملُ من ذلك الفنّ، كثيرَ الحَسدِ فيه، راكِبًا رأسَه في الخطأِ البيِّنِ إذا تقَلَّده أو نشب فيه، يجادِلُ عليه، ولا يصرِفُه صارفٌ عنه، وعَدِمَ عِلمَ العروضِ ومَعْرفته مع احتياجه إليه، وإكمالِ صناعَته به، فلم يكن له شروعٌ فيه، وكان لَحق الفتنة البربريَّة بقرطُبَةَ، ومضى الناس من حائنٍ وطاعن، فازدلف إلى الأمراءِ المُتداولين بقُرطُبة من آل حمودٍ، ومن تلاهم إلى أن نالَ الجاهَ[2].

ولَحقَته تهمة في دينِه في أيام هشام المَرواني في جُملَة مَنْ تُتُبِّعَ من الأطباء في وقتِه، وطُلِبَ ابنُ الإفليلي، وسُجن بالمُطبَق، ثُمّ أُطلق[3].

(1) نفس المصدر والصفحة. يُنظَر أيضًا: مسالك الأبصار للعمري، ج7، ص202، ت: كامل سلمان، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان.

(2) الذخيرة لابن بسّام، ص240، ج1، إصدار جامعة فؤاد الأول 1939م، بتقديم: د.طه حسين.

(3) نفس المصدر، ص241.

يقول ابن شُهَيد في كلام وصفه فيه[1]: وهو أشدهم ضنانة بألّا يكون بالأندلس محسن سواه، وكان الرأي عندي أن يسكن جليقية، حتى لا يسمع لخطيب فيها ذكرًا، ولا يحسّ لشاعر شعرًا، فينعم هنالك فردًا، وليست شبيبته شبيبة أديب، ولا جلسته جلسة عالم، ولا أنفه أنف كاتب، ولا نعمته نعمة شاعر.

وهذه الأبيات – أدناه – في ديوان ابنِ شُهَيد بجمع وتحقيق يعقوب زكي، وكذلك كرّر الأبيات الدكتور محيي الدين ديب في كتابه: ديوان ابن شُهَيد الأندلسي ورسائله، يقول ابن شُهَيد في مدح أبي القاسم الإفليلي[2]: (من الخفيف)

غيرَ أنّي معَ الوزيرِ أبي القا ... سم حِزب محضٌ منَ الأحزابِ
التَّقِيُّ النَّقِيُّ كهلًا وطفلًا ... فارسُ الجَيْشِ راهِبُ المِحْرابِ

والبيتان نُقلا من الذخيرة، وقد توهّما في ذلك، ففي الذخيرة هو أنّ الرسالة موجهةٌ إلى الوزير ابن عباس، وقد ذكر ابنُ شُهَيد نصًّا أنه قال في مدحه ذلك، إذ يقول: «ثُمّ تذكّرتُ علمي بك، وقولي فيك، وذكر البيتين، ثمّ قال: فعَلِمتُ أنّك صاحبُ محراب، ومؤمِنٌ بآيةِ الكتاب». وذكرنا هذه الأبياتَ هنا أنها في مدح الإفليلي بناءً على رأيهما وليسَ حسب المصدر الذي نقلاه منه، أو رأْينا في

(1) المُغرِب في حُلى المَغرِب، ج1، ص72.

(2) ديوان ابن شُهَيد، جمعه وحققه: يعقوب زكي، ص87، دار الكاتب الغربي، القاهرة. وينظر: ديوان ابن شُهَيد ورسائله، محيي الدين ذيب، المكتبة العصرية، بيروت، ص58.

ذلك [1]. ولكنّ الملاحَظ أنّ ما ورد في البيت اسم أبي القاسم، وليس ابن عباس، والوزن يستقيم، ربما يوجد خلط في المعلومة أوالنقل! والمعروف أن الإفليلي مُتَّهَمٌ في دينه.

وننقل نص رسالة ابن شُهَيد إلى الوزير ابن عباس، كما وردت في الذخيرة، مع الملاحظة أنّا استنبطنا من الرسالة مواضيع رأيناها في أبواب من هذا الكتاب[2]:

رسالة ابن شُهَيد إلى الوزير ابن عباس:

لما أَسندتُ منك إلى هضبة لا انخرام معها، واستمسكتُ بعُروة لا انفصامَ لها، إذ وردَ عليَّ كتاب رسولي إليك، يذكُرُ تغيُّرك له، وأنكرتُ ذلك عليك، ثُم تذكرتُ قولَهم: ما نزل حتى رحل، وقولُ الآخر وهو المتنبي: (من البسيط)

كَرِيْشَةٍ بِمَهَبِّ الرِّيْحِ سَاقِطَةٍ لا تَسْتَقِرُّ على حَالٍ مِنَ الأَرَقِ

وفي فصلٍ منها: وقلتُ أيَسْتَنْوِقُ الجمل! ويتضع الكوكب، وتخِفّ حَصاة الحلم، ويتضعضعُ جبلُ العمل والعلم، ويكبو جوادُ الهمم، وتزلُّ نعلُ الكرم، وتغلبُ الدنيا الدين، ويسطو الشك باليقين؟ ثُم تذكرتُ قولي فيك: (من الخفيف)

غَيرَ أَنِّي مع الوزيرِ أبي الْقَا سِمِ حِزبٌ مَحْضٌ مِنَ الْأَحْزَابِ

(1) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص170–171.

(2) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص170–174.

التَّقِـيُّ النَّقِـيُّ كَهْـلًا وَطِفْـلًا فارِسُ الْجَيْشِ رَاهِبُ الْمِحْـرَابِ

فعلمتُ أنك صاحبُ محراب، ومؤمنٌ بآية الكتاب، فتُلّت الأوهامُ للجباه، وكُبِحتُ الظنونُ كبحةً أقعدَتْها عن الأشباه، ولم تبق إلّا بقيةٌ من قول القائل: (من الطويل)

ولو تَرَكَ الناسُ الْمُلُوكَ لَأَحْسَنُوا ولَكِـنّ أولادَ الزِّنـاءِ كثيـرُ

فبحثتُ عمّن طرأ عليك من الأنذال، وحلَّ عليك من الأعلاج، فقيل لي ابن فتح، فأنعمتُ البحثَ، وأعملتُ لطائف الكشف، حتى صَحّ عندي أنه كدَّرَ صفوكَ عليَّ، وغيَّرَ شُربَك لدي، فقلتُ: من ها هنا أُتينا، ومن هذه القوسِ اللئيمة رُمينا، وقَصَصي مع هذا العلجِ طويل.

«من خلال قراءة الأسطر أعلاه نلحظ أنّ الرسالة مُوجَّهة إلى أبي العباس، وليس إلى الإفليلي، ونلاحظ أنّ الدكتور إحسان عباس في تحقيقه للذخيرة حذف كلمة: (ومنها)، وذكر ذلك في الهامش [1]، ربما ليتناسق بأن تكون رسالة جديدة موجهة إلى الإفليلي، حسب ما جاء في الأبيات الشعرية، وكذلك نلاحظ أنّ في نهاية الرسالة ورد ذكر أبي القاسم». ونكمل الرسالة:

وفي فصل منها: ولم يزل يسعى لإفساد تلك النيّات حتى فسدت وانتقضت، وزاد في إفساد تلك الضمائر، ورام التدبير من غير طرق الأكابر، حتى تلف وأتلف، وكانت العاقبة ما عاينت، والمغبّة ما شاهدت، ولقد سألني

(1) الذخيرة، ابن بسّام، ج1، ص171.

أبو جعفر أن ينفرد ذات يوم بأكبر وزيرين عندنا، ووجّهني فيهما، وحضرا، فنفث هذا الساحر فانصرفا، فخاطبته بأبياتٍ أقول فيها: (من السريع)

هَـلّا سَـتَرْتَ الشَّـيْنَ بالـزَّيْنِ ... مِـنْ قَبْـلِ إِحْضَـارِ الـوَزِيْرَيْنِ
قـد عَلِمَـا أَنَّهُمَـا أُحْضِـرا ... لِخَلْـوَةٍ أَثْقَـلَ مِـنْ دَيْـنِ
لمّـا تَـدَانَتْ قَـابَ قَوْسَـيْنِ ... أَصَـابَهَا الحاسِـدُ بِالـعَيْنِ
فَانْصَـرَفَا مِثْـلَ انْصِـرَافِ الفَـتَى ... أَسْـلَمَ إِلْفًـا لِيَـدِ البَـيْنِ
صَـدَّهُمَا مِـنْ قِـرْدِكَ المُصْطَـفَى ... نَطْحَـةُ نَطّـاحٍ بِرَوْقَـيْنِ
ومـا رأى النـاسُ علـى مـا مضـى ... مِـنْ قَبْلِـهِ قِـرْدًا بِقَـرْنَيْنِ
أَرْبَعَـةٌ في مَجْلِـسٍ جُمِّـعُوا ... فَطَـارَ هَـذانِ بِـهَذَيْنِ
قـد لَزِمَـا جَنْبَيْـكَ لَـمْ يَبْرَحَـا ... لَهْفِـيْ علـى ضَـيْعَةِ جَنْبَـيْنِ
فَأَنْـتَ مـا بَيْنَهُمَـا جَـالِسٌ ... جُلُـوسَ أَيِّـرٍ بَـيْنَ خُصْـيَيْنِ

وما كان هذا القردُ أهلاً لأن يُحمَل عليه حُرُّ كلام، ولا يُرمى بفضل بيان، وبالحريِّ أن يُرقم على عتبة دُكّان، أو يُصوّر على باب حمّام، وقد غُرس في وجعائه رأسُ نخلة، وخُبِّئَ في سعفها عُشّ نحلة، أو يُنقش في خاتم قيمار، وقد علاهُ خنزير، وعطس مستنجاهُ بإبرة زنبور، فإنّه بقيّة من بني إسرائيل الذين استحلّوا الحرام، واجترحوا السيئات والآثام، فلما عتوا عمّا نهوا عنه، قيل لهم: كونوا قردة خاسئين، فجُعلت نكالًا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتّقين. (تنظر الآية 65–66 من سورة البقرة).

ولـولا أنـه منتسـب إلـى آل هاشـم، إلـى عِصـابة أقلّنـي كـرمهم، وأظلّتنـي

نِعمُهم، ومُسندٌ على العلّات من أبي جعفر، إلى وزير كان لي وَزرًا، رقرق شرابي، وأخصب به جنابي، لأدرت به دائرة السوء، وسريت إليها في لُمّة من صعاليك الأحرار، وصميم الرجال، فأحرقتها على نازلها، وجعلت عاليَها سافِلَها، امتثالًا لقوله تعالى في ديار قوم لوط، فالشائع لدينا أنها قرارٌ لبنات السحق، وبركة لسمكات العشق، يتناكح بها النسوان بعضهن إلى بعضٍ بالصدقات، ويستعملن خرز جلود البقر في الكيرنجات، فاللهَ اللهَ في قبول هذا القرد والالتباس به، فإنه قُدارُ من لزمه، وهو والفرضي رضيعا لبان، وفرسا رِهان، ولذا لم يؤثِّر فيه إذ نقره على الرأس، لأنّ الأفعى لا تقتلها نهشة الأفعى، وأخافُ عليك عاديتَه، وأتقي على أيامك بادرتَه، كان الله خليفتي، عليك يا أبا القاسم، واللهَ اللهَ في إعادة نفحة من كرائم نفحاتك على قرية أبي الجوديّ، فلو أنها الجوديّ كرامة، وقرية النّمل عمارة لقلَّت فيما أتغنّى به من شكرك، وأترنّم به من تقريظك ومدحك، والذي أستقبله من ذلك أكثر منىً: عليَّ أن أهديَ من ذلك لطيمة إلى جارتك القيروان، وأخرى إلى حبيبتك مكة بيت الرحمن، بكلام عذب، ومساقٍ رَطب، يُبكي الحجيج، ويقدحُ نار العجيج، تحنُّ له الرباب، وترِقّ له الأعراب. واعلم أنّ نعمتك فيها لشهرتها بك، وارتفاعِها بارتفاعك، مكتوبةٌ بكفّ الثّريّا في مفرق السماء، نونها الهنعة، وعينُها الشّولة، وميمها النّثرة، فإن أعقبَتها «لا» كان الدّبران كاتبها عليك، ترمقها الأبصار، على انتزاح الأقطار.

ويقولُ عنه ابنُ شُهَيد: وليس العجبُ في هذه العصابة، إلّا مِن أبي القاسم،

فإنـهُ زادَ علـيهم في الصـناعة، وبـزَّهُم بوُفُـورِ البِضـاعة، داخَـل الشُّـعراءِ فأخـذ لَبـاقتَهُم، وصـار في جُملَـة الكُتـاب فاسـتعار صـلَفهُم ورَشـاقَتَهم، وباشَـر أهـلَ الحِسابِ فاستفادَ طَريقةَ البراهين، وناظرَ أهلَ الجدلِ فتعَلَّم القوانينَ، وعرَفَ عناصِر الكلام، فكُلُّ عِلـمٍ يزعُمُـه قبضَ يده، وكـلُّ جِدٍ وهـزلٍ فإليه منسـوبٌ، وعنهُ مأخوذٌ، وهوَ مع ما اجْتَمع له من ذلك كُلِّه وحُبِي به أشـدُّهم صَبابة بـألاّ يكـون بالأنـدَلُسِ مُحسِـنٌ سِـواه، ولا مُجيـدٌ حاشـاهُ، وكـان الـرأيُ عنـدي لـه أن يَسكُنَ أرضَ جليقية أو قُطرًا بعُد عنِ الإسلامِ حتى لا يسمع فيه لخَطيبٍ ذِكـرًا، ولا يُحِسَّ لشاعِرٍ ذكرًا، فيكونُ هنالك فَردًا[1].

ويقولُ عنه: وأمّـا أبـو القاسـم الإفليلي فمكانُـه في نفسـي مَكين، وحَبلـه مـن نفسي متينٌ، وحُبُّه بفؤادي دخيلٌ، عل أنّه حامِلٌ عليَّ، ومنتسِبٌ إليَّ [2].

ويقول: سُئل أنف الناقة عن أبي القاسم، قال: فتىً لم أعرف على مَن قرأ[3].

ويقولُ ابنُ الإفليليِّ عند استعمالِ ابـن شُـهَيد لِوَحْشـيِّ الكـلام: إنَّ أبـا عـامر يضَعُ هـذا الكـلامَ في موضِـعِه، وهـو أدرَبُ في استعمالِه[4]. وقـد ذكـر ابـن شُـهَيد هذه الجملة في حانوته.

قال الحجاري: كان بارد النظم والنثر، لم يندر له من شعره إلّا قولـه[5]:

(1) الذخيرة لابن بسّام، ص190.
(2) نفس المصدر، ص213.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص186.
(5) المُغرِب في حُلى المَغرِب، ص73.

(من المتقارب)

صَـــحَبتُ الْقَطِيْـــعَ وَنَادَمْـــتُهُ وَأَصْـبَحْتُ في شُـرْبِهِ ذا انْقِطَـاعْ
وَأَبْصَـرْتُ أُنْسِـي بـه وَحْـدَهُ كَـأُنسِ الرَّضِـيْعِ بِثَـدْيِ الرِّضَـاعْ

قال: وهو القائل في يحيى بن حمود من قصيدة: (من المديد)

أَنـــتَ خَيـــرُ النـــاسِ كُلِّهِـــمُ يـــا بْـــنَ مَـــنْ مـــا مِثْلُـــهُ بَشَـــرُ
فـإذا مـا لُحْـتَ بَيْنَهُـمُ قِيْـلَ هـــذا البَـــدْوُ والحَضَـــرُ

قال الحجاري: وأنشدتهما لأحد الأُدباء فقال لي عندما سمع عجز البيت الأول، ورأى ترادف الميمات: هذه عُقد ذَنَب العقرب[1].

9. أبو المَخْشِيّ[2]

أبو المَخشيّ (وورَدَ المُخَشّى) شاعر أعرابي مشهور قديم، أنشد له أبو عامر ابن شُهَيد فيما استَحسَن من شعره في كتاب «حانوت عطّار»:[3] (من الوافر)

وهَـــمٍّ ضَـاقَنِي في جـوْفِ يَـمٍّ كِـلا مَوْجَيهِمـا عِنْـدِي كَبِـيْرُ
فَبِتْنَـــا والقُلُـــوبُ مُعَلَّقَـــاتٌ وَأَجْنِحَـــةُ الرِّيَـــاحِ بِنَـــا تَطِيْـــرُ

وأنشد له أبو محمد علي بن أحمد:[4] (من الطويل)

---

(1) نفس المصدر والصفحة.
(2) جَذوة الحميدي، ص401.
(3) جَذوة الحميدي، ص401.
(4) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص401.

هُمَـا مَهَّـدَا لِـي العَـيْشَ حتـى كأنّني خَفِيَّةُ رَفٍّ بينَ قَادِمَتَي نَسْرِ

ويقال إنّ هذا البيت ردّ ابنَ هرمة عن الأندلس، وقد وصل إلى تيهرت حين أنشده في جملة ما أنشده من شعره.

أبو المَخشِيّ عاصم بن زيد بن يحيى بن يحيى بن حنظلة بن علقمة ابن عدي بن زيد التميمي ثمّ العبادي[1]، وفي بغية الملتمس للضّبّي[2] هو: قديم الجود والصّنعة، عربيّ الدار والنشأة، وإنّما تردد بالأندلس غريبًا طارئًا، وهو من فحول الشعراء القدماء المتقدمين، وهو نقلٌ بالنصّ من كتاب «حانوت عطّار».

وفي كتاب «المُغرِب في حُلى المَغرِب» نقلًا عن «المسهب»[3]: إنّ أباه دخل الأندلس من المشرق مع جند دمشق، فنزل بقرية شَوْش، ونشأ ابنه على قول الشعر، واشتُهِر به، إلّا أنّه كان جسورًا على الأعراض، فقطع لسانَه هشام بن عبد الرحمن سلطان الأندلس، وانجبر قليلًا، واقتدر على الكلام، وكان الشعراء يطعنون في نسبه بالنَّصرانية، ولمّا قال فيه ابن هبيرة: (من الوافر)

أَقْلَفْتُكَ التي قُطِعَتْ بِشَوْشٍ دَعَتْكَ إلى هِجَائِي وَانْتِضَالِي؟

أجابه بقوله: (من الوافر)

(1) المُغرِب في حُلى المَغرِب، ج2، ص123.
(2) بُغيَة المُلتمِس للضبّي، ص528.
(3) المُغرِب في حُلى المَغرِب، ج2، ص123.

سألتَ وعنـد أُمِّـكَ مِـنْ خِتَـانِي بَيَـانٌ كـانَ يشـفي مـن سُـؤالِي

فغلب عليه. وكان الذي غاظ عليه هشام أنّه قال في مدح أخيه سليمان المباين له: (من الوافر)

وليس كَمِثلِ مَنْ إِنْ سِيْـمَ عُـرفًا يُقَـلِّبُ مُقْلَـةً فيهـا اعْـوِرارُ

وكان هشام أحول، فاغتاظ، وركب منه ما ركب من المثلة، وكبر ذلك على أبيه عبد الرحمن وعنّفَه عليه، وأحسن إلى أبي المَخشِيّ.

قال: وذكر ابن حيان أنّه مات في دولة الحَكَم بن هشام، وأورد له الأبيات التي أنشدها الحُميديّ في «الجَذوة».

أمّا مع الصفدي في الوافي بالوفيّات[1]: فإنّ القصيدة التي عرَّض فيها بهشام قالها في أخيه أيوب وليس سليمان، المعروف بالشامي، ويروي سببًا آخر لقطع لسانه، إذ اتّفق أنّ أبا المخشيّ مدح هشامًا، ووفد عليه إلى ماردة، وهو يتولى حربَها لأبيه، فلما مثَلَ بين يديه قال: يا عاصم، إنّ النساء اللاتي هجوتَهنّ لمعاداة أولادهنّ، وهتكتَ أستارهنّ، قد دعون عليك فاستجاب الله لهنّ، وبعث عليك مني من يدرك منكَ بثأرهِنّ وينتقم لهنّ، ثم أمر بقطع لسانه، ثم نبت بعد ذلك وتكلم به. وابن ظافر الأزدي في بدائع البدائه ذكر ذات الأخبار عن أبي المَخشِيّ نقلًا عن صاحب كتاب

(1) الوافي بالوفيات للصفدي، باعتناء: وداد القاضي، ج16، ص566، دار: فرانز شتايز، بيروت، 1991م.

«المُقتبَس في أنباء أهل الأندلس»[1].

وابن عبد الملك في كتاب «الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة»[2] أورد نسبًا مطوّلًا لأبي المخشيّ، وهو يرى أنّ البيت الذي قطع هشام بسببه لسان أبي المَخشِيّ مُحرَّف ومدسوس عليه، ولكنه أضاف بأنّه قطع لسانه وسمل عينيه، فبقي أعمى، وفي ذلك يقول: [3] (من الرَّمَل)

خَضَعَتْ أُمُّ بَنَاتِي لِلْعِدا ... إذ قَضَى اللهُ قَضَاءً فَمَضَى

وَرَأَتْ أَعْمَى ضَرِيرًا إِنَّما ... مَشْيُهُ بالأرضِ لَمْسٌ بِالعَصَا

فَبَكَتْ وجدًا وقالت قَوْلَةً ... وَهيَ حَرّى بلغتْ مِنِّي المَدَى

ففؤادي قَرِحٌ مِنْ قَوْلِهَا ... ما مِنَ الأدواءِ دَاءٌ كالعَمَى

وإذا نالَ العَمَى ذا بَصَرٍ ... كانَ حيًّا مثلَ مَيْتٍ قد ثَوَى

وَكَأَنَّ النَّاعِمَ المَسْرُورَ لَمْ ... يَكُ مَسْرورًا إذا لاحَ الرَّدَى

وكانت وفاة أبي المَخشِيّ في دولة الحكم بن هشام. وهناك حكاية مع الحكم بن هشام وابنة أبي المَخشِيّ، وهي حسّانة التميمية بنت أبي المَخشِيّ

(1) بدائع البدائه لابن ظافر، صحّحه: مصطفى عبدالقادر عطا، ص28، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007م.

(2) الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصِّلة للمراكشي، ج3، ص84.

(3) الذيل والتكملة للمراكشي، ج3، ص84. ويُنظَر تعليق الدكتور قاسم الحسيني على القصيدة في (الأدب الأندلسي.. القضايا والظواهر)، ص71-72.

الشاعر، منقولة من نفح الطّيب للمَقَرِّي قال: [1]

تأدبَتْ وتعلمَت الشِّعر، فلما مات أبوها كتبت إلى الحكم – وهي إذ ذاك بِكرٌ لم تتزوج –قصيدةً، منها: [2] (من البسيط)

إني إليكَ أبا العاصي مُوجّعَةٌ ... أبا المُخَشَّى سَقَتْهُ الواكِفُ الدِّيَمُ

قد كُنتُ أَرْتَعُ في نُعماهُ عاكِفَةً ... فاليومَ آوِي إلى نُعْمَاكَ يا حَكَمُ

فاستحسن شِعرها، وأمر لها بإجراء مرتَّب، وكتب إلى عامله على إلبيرة، وجهّزها بأحسن جهاز.

ثُمّ وفدت على ابنه عبد الرحمن بِشَكيّة من عامله جابر بن لبيد والي إلبيرة، فعرفَها وعرف أباها، فأنشدته أبياتًا منها[3]: (من الطويل)

إلى ذي النّدى والمجد سارت ركائبي ... على شَحَطٍ تَصْلَى بنارِ الهَوَاجِرِ

أَيَجْبِرُ صَدْعِي إنَّهُ خير جابر ... ويمنَعُني من ذي الظُّلامَةِ جابِرِ

ورفعت إليه خطّ والده، وحكَت جميع أمرها، فقبَّل خطّ والده، وقال لها: انصرفي يا حسّانة فقد عزلتُه لك، ووقّع لها بمثل توقيع والده، فقبّلت يده، وأمرَ لها بجائزة، فانصرفت، وبعثت إليه بقصيدة منها [4]: (من البسيط)

ابنُ الهشامَينِ خَيرُ الناسِ مَأْثَرَةً ... وَخَيْرُ مُنْتَجَعٍ يومًا لِرُوَّادِ

(1) نفح الطيب للمقري، ج4، ص167 وما بعدها.

(2) نفح الطيب للمقَرِّي، ج4، ص167-168.

(3) نفح الطيب للمقَرِّي، ج4، ص167-168.

(4) نفح الطيب للمَقَرِّي، ج4، ص167-168.

إنْ هَز يـوم الـوَغَى أَثْنَاءَ صَعْدَتِهِ رَوّىَ أَنَابِيْبَهَا مِنْ صِـرفِ فِرْصَادِ
فـإنْ أَقَمْـتُ ففـي نُعْمَـاكَ عاكِفَـةٌ وإنْ رَحَلْـتُ فقـد زَوَّدتَنـي زادِي

10. أخو أبي عامر ابن شُهَيد[1]

أنشد له في الكتاب المذكور «حانوت عطّار»[2]: (من المتقارب)

شَكَوْتُ إِلَيْـكَ صُـروفَ الزَّمَـانِ فلـمْ تَعْـدُ أَنْ كُنْـتَ عَـوْنَ الزمـانِ
وَتَقْصُـرُ عـنْ نِعْمَتِـي قُدْرَتِـي فيـا ليتَنـي لِسِـوَى مَـنْ نَمَانِـي
ولا غَـرْوَ للحُـرِّ عنـد المَضِيْـ ـقِ أَنْ يَتَمَـنَّى وَضِيْـعَ الأمانِـي

ذكر أبو عامر ابن شُهَيد أنّ له أخًا اسمه موسى، ولكنّه لم يذكر ولادته ولا تأريخ وفاته أو سِنيه حين تُوفي، إذ يقول: أخي موسى انتزعَهُ المنصورُ من أبيه، وأحَلَّهُ محلَّ بنيه، فاجتمعت الأفواه على الثُّدِيِّ، والتقَتِ الشِّفاهُ على الدُّرِّ المَرِيِّ، وقبضَه اللهُ إليه، وقد رتع في مراتعِكُم، وجَثمَ في مضاجِعِكُم، فنحنُ عُمَّارُ مقاصِرِكُم أحياءً، وقُطَّانُ مقابِرِكُم أمواتًا، جَمعنا بذلك عِشرَةَ العاجِلَة والآجِلَةِ، وحصَلنا على صُحبَةِ الدنيا والآخِرَةِ[3].

(1) المُغرِب في حُلى المَغرِب، ص81.
(2) المُغرِب في حُلى المَغرِب، ج1، ص81.
(3) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص158. والملاحظ أنّ ابن بسّام ذكر الأبيات في مجلس الجنّ من رسالة التوابع والزوابع.

11. أحمد بن برد الأصغر[1]

أحمد بن محمد بن أحمد بن برد أبو حفص، مولى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد ابن شُهَيد، أبو حفص الكاتب، مليح الشعر، بليغ الكتابة، من أهل بيت أدب ورياسة، له: «رسالة في السيف والقلم والمفاخرة بينهما»، وهو أول من سبق بالقول في ذلك بالأندلس[2]، ومن شعره:[3] (من الطويل)

تأمَّلْ فقد شَقَّ الْبَهَارُ مُغَلِّسًا ... كُمَامَيْهِ عن نُوّارِهِ الخَضِلِ النَّدِي
مَداهِنُ تِبْرٍ في أَنَامِلِ فِضَّةٍ على ... أَذْرُعٍ مَخْروطَةٍ مِنْ زبرجَدِ

ومن شعره:[4] (من مجزوء الكامل)

لمّا بدا في لازَوَرْ ... دِيِّ الحَرِيرِ وقَدْ بَهَرْ
كبَّرْتُ مِنْ فَرْطِ الْجَمَا ... لِ وَقُلْتُ ما هذا بَشَرْ
فَأَجَابَني: لا تُنْكِرَنْ ... بَ السماءِ على القَمَرْ

وكان في وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفث فيه بسحره، وأقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره[5]... وإنّ آل برد جمهور كتابة، ومحور خطابة، وقد فخر أبو حفص هذا بذلك في كتابه الموسوم بـ«سر الأدب وسبك الذهب»

(1) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص 118.
(2) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ويُنظَر مطمح الأنفس، ص95.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص388. وجَذوة الحُميدي بتحقيق الهواري ص118.
(5) الذخيرة لابن بسّام، مجلد1، ص374.

من أرجوزة يقول فيها: [1] (من الرّجَز)

مَـنْ شَـاءَ خَـبرِي فأنـا ابـنُ بُـرْدِ حَـدُّ حسامِـي قِطعَـةٌ مـن حَـدِّي

وَأَرْفَــعُ النــاسِ بِنَــاءً جَــدِّي مَـنْ نَظَـمَ الألفـاظَ نَظْـمَ العِقْـدِ

وقد أورد له ابن بسّام فصولًا من كتابه المذكور، ومنها: في مدح الإخاء: [2]

- بيننا خصائص وَدادة، كأنها وشائج ولادة.
- رعيت به السعدان، وأخذت من ريب دهري به الأمان.
- جلّى من مطلبي ما أظلم عليّ، وأشعل من همّتي ما خمد لديّ.
- هو ذخري المُعَدّ، وركني الأشدّ، وسلاحي الأحدّ.

وله رسالة السيف والقلم، وهي على شكلِ محاورة بينهما، «... قال: القلم، قال: السيف،..»، كتبها إلى المُوَفَّق، أبي الجيش مجاهد، ورسالة في النخلة، وهي رسالة في النخلة ورطبها، ومنها: «نعم، تقول العرب لصغار النخل: الجثيث، والوَدِيّ، والهِراء، والفسيل، والأشاء، والكافور، والضَّمْد، والإغريض، فإذا انعقد سمّته السيّاب، فإذا اخضرّ، قبل أن يشتدّ سمته الجَدال، فإذا عظم فهو البسر، فإذا صارت فيه طرائق فهو المُخَطَّم،....» [3].

ورسالة سمّاها: «البديعة»، في تفضيل أُهُبِ الشاء على ما يُفترشُ من الوطاء[4].

---

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص375.

(2) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص387.

(3) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص408.

(4) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص410.

ومن أشعاره: [1] (من مجزوء الرَّمَل)

بِـــأَبِي أنـــتَ وأُمِّـــي ... لِـــمْ تَطَبّعْـــتَ بِظُلْمِـــي؟
أَبَـــدًا تَـــأْتِي بِعَتْـــبٍ ... دونَ أنْ آتِـــي بجُـــرْمِ
بينَنَـــا فـــي الحُـــبِّ قُرْبَـــى ... سُقـــمُ عَيْنَيْـــكَ وَجِسْـــمِي

وقال:[2] (من السريع)

يـــا مَـــنْ بِفِيـــهِ يَعبَـــقُ العَنْـــبرُ ... ومِـــنْ لَمَـــاهُ سُـــكَّرٌ مُسْـــكِرُ
صَـــحَّ الهَـــوَى مِنّـــا ولكنّـــني ... أَعْجَـــبُ مِـــنْ بُعْـــدٍ لنـــا يُقْـــدَرُ
كَأَنَّنَـــا فـــي فَلَـــكٍ دَائِـــرٍ ... فأنـــتَ تَخْفَـــى وأنـــا أظهَـــرُ

قال ابن برد: ولما مات محمد بن ربيب، صنيعة أبي الأحوص وأبي عُتبة، وورد الخبرُ قُرطبةَ، سألني أبو عامر ابن شُهَيد رثاءَهُ، [3] ووصف عِلّتهِ، وكانت العلّة الكبرى، فقلت[4]: (من الرَّمَل)

سَـــيَرُوحُ المَـــرْءُ إنْ لـــمْ يَـــغتَدِ ... والمَنايـــا لِلفَتـــى في مَرْصَـــدِ
مَـــاتَ مَـــنْ كُنَّـــا نَـــراهُ أَبَـــدًا ... بَـــارِئَ الـــنفسِ عَلِيْـــلَ الْجَسَـــدِ
بَحْـــرُ سُـــقْمٍ مَـــاجَ في أَعْطافِـــهِ ... فَرَمَـــى في جِـــلْدِهِ بالزَّبَـــدِ

(1) نفس المصدر، ص390.
(2) نفس المصدر، ص391.
(3) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص401.
(4) نفس المصدر، ص402.

12. أحمد بن عباس [1]

الوزير أبو جعفر أحمد بن عباس، قد بَذَّ أهل زمانه في أربعة أشياء [2]:

المال أولًا: لم تجتمع عند أحدٍ من نُظرائه ما اجتمع عنده من عَيْن وورقٍ، ودفاتِرَ وخِرقٍ، وآنية ومتاع، وأثاثٍ وكُراعٍ.

والعُجْب: فلم يكن الفضل بن يحيى ولا معلّمه عمارة بن حمزة، ولا عبيد الله بن ظبيان، ولا مطعم بن جبير في ذلك إلّا بعض قوى سببه، وحُثالة واطئ عَقِبِه.

والبخل: حتى لو أنّ الجاحظ رآه ما ضرب في البخل مثلًا، ولا ذكر في رسالته رجلًا. له في ذلك أخبارٌ تخرق سُجُف العادة، وتضيق عن قبول الزيادة.

والكتابة: وهي أقل أربعته، وعلى كلّ حالٍ فله بها يد، ونفس ممتدّ، وفيها يوم وغد، وعدة وعدد.

وكتب إليه أبو عامر ابن شُهَيد رسالة يعاتبه على إرجاع رسوله خاوي اليدين من طلبٍ سأله إياه، يقول فيها: ولما أسندتُ منك على هضبةٍ لا انخِرام معها، واستمسكتُ بعروةٍ لا انفصام لها، إذ ورد عليّ كتاب رسولي إليك، يذكر تغيُّرك له، وأنكرتُ ذلك عليك[3].

ومن رسائله: رقعةٌ خاطب بها أبا المغيرة بن حزم، يقول فيها:[4]

---

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص492.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص170.

(4) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص494.

أنهى إليَّ كتابَك رجل طويل القامة، صَعِل الهامة، بعينيه ليانة، وعلى أسنانه طُرامة، وفي شاشيته وضارة، وفي منطقه لُكنة صعبة، وعلى أنفه عقدة كالكُبّة، وفي أطواقه سَعَة، يخرج منكباه من أقطارها كأنّها ثيابُ واله، أو شبارق راهب تائه، وفي مشيته تفحج قبيح كأنه عائم في يبس، وعليه غِفارةٌ شفافة شبكية السيدارة، وأظنّ العمالقَةَ غَزلت صوفَها زمن الفِطَحل، والأكاسِرة تولَّتْ صباغها عام الصفر، كأنّها الطيلسان الحربيّ، أو التُّبّان السعديّ، ولقيتُ الرجل وقد أحاط بي جمع، والتفَّ عليَّ قوم، فوقفتُ معه موقفًا كفاكَ اللهُ خِزْيَه، ولا وقفك مثله، وقد عهدتكَ تجري بميدان الفكاهة، وتنخرطُ في سلك الدُّعابَة، فلما أسلمَ إليَّ الكتاب ولحظت عنوانه، وحَيّاني بلفظٍ لم أفهم لسانه، قلتُ: خبَّأها أبو المغيرة وربِّ الكعبة، وأهدى إليك بهذا الإنسان لعبة، ورماك عن قوس فكاهته بهيئةٍ باذَّة، دهاكَ من تماثيلِ خيالِه بطلعَةٍ شاذَّة، وسدَّ تطييبكّ بسدادٍ من ثغره، وطار إلى أُفُقِ تنديرَكَ بجناحٍ من هَزله، فتماسكتُ وما كدتُ، ثُم تجلدتُ، ولَجأتُ إلى فَضِّ الكتاب، وابتَغَيتُ نقلةً لأستترَ بجملة أسباب، واعتصمتُ بعصمة خطِّه الموشِيِّ، ولفظه البابليّ، وصَعدتُ في الكتابِ صوَّبتُ لأعمل لنفسيَ شغلًا، حتى رأيتُ النسبَ، وسمعتُ اللقَب، فقلتُ الرجل -لا محالةَ - عِبريُّ المنتمى، وشاهد الطَّلْعَة عَدلٌ مُزكّى، فَوَحَقِّ الطِّربِ، وحُرمَةِ الأدبِ، لقد هممتُ أن أُوَفِّي الشطارة حَقّها، وأسِمُ الخلاعةَ وَسمَها، فأجعل في يدِه عُكازَ قصبةٍ خضراء، وفي رأسه قلنسوةٌ بيضاء، وأضعُ على عاتقه خُرْجًا بنُخالةٍ، وأُقيمُ من نفسي وَمَنْ حضَر عَرّافةً وآلة، وآخذُ به من طُرُقِ بني مَردخاي على قارِعَة المحجّة بين الناس، وأُقلِّده سيف الباجيّ أبي

القاسم، فإنّه صفيحة مقشرة لا غِرارَ لها ولا ظُبَّة، كأنّه قضيب صاحبِ إسفيريا، أو عمدٌ نيزكيٌ لم يحدد له زُجًّا، وهذا شرط ذلك اللعب، ففي نفوس القومِ خَوَر، ولا تحملُ معه السلاح إلّا بخوف وحذر، وتأملتُ خُفَّيْهِ فإذا بهما مِن كِيمُختٍ بال، مُصدَّران تصدير السندال، قد انهرتت أشداقُهما، وتهدّلت مشافرُهما، وصار عاجُهما آبنوسًا، ونعلهما خيالًا مرسوسًا، فقلتُ: لا يزدوج طيلسانُ ابن حرب إلّا بخُفَّيْ حُنَين، وقد كُفينا ارتيادَ خِلعة، توافق هذه الطلعة، ثم جمعت جَراميز صبري، وأخذتُ بكَظمِ نفسي، واستعذتُ بالله من آفةِ الغفلة، وشغلَ بالي ذلك المرأى الشنيع، والموقِفُ المَهول، وحُرمت عامَّةَ نهاري مَنْ يُعْلِمُني، حتّى ظفرتُ بمن أوسَعَنِيهِ علمًا، وفسَّرَه لي نصًّا، فلففتُ رأسي حياءً منه، وتمنيتُ أن تُضمرني البلادُ عنه، وأدركَتهُ -لا محالةَ- خجلَةُ ذلك المُلتقى، فحماني زَورَتَه، ومنعني عَودَتَه، يُرَجِّمُ فيَّ الظنَّ السَّوء، وإن يقل فمعذور، وأن يكن مني فغير ملوم، لأنّكَ رميتني بآبدةِ الأوابد، وداهيةِ الغَبَر، ومشكِلَةٍ لا تنفرِج بالبديهة، ولا يُنفَذُ فيها إلّا بطول الرويَّةِ، وما أعجبَ شأنها إن كان وقعَ اتّفاقًا، وأغلب الظنّ أن تأتيَها اعتمادًا.

13. أحمد بن عبد الملك ابن شُهَيد[1]

أحمد أبو العباس -وفي روايات يُكَنَّى بأبي عمر- ابن عبد الملك بن عمر ابن شُهَيد بن الوضاح الأشجعي، ذكره أبو عامر ابن شُهَيد في مجلس الجنّ،

(1) مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلَح أهل الأندلس للفتح بن خاقان ص55، تح: د.هدى شوكت، دار الكتب العلمية، لبنان، 2014م.

مفتخرًا بشعره، وعند ابن خاقان في المَطمَح:[1] «هو مفخر الإمامة، وزهر تلك الكمامة، وحاجب الناصر عبد الرحمن، وحامل الوزارتين».

وهو أول من تَسمّى بذي الوزارتين في الأندلس، وله شعر رقيق منه قوله:[2] (من الطويل)

تـرى البـدرَ منـهُ طالِعًـا فكأنـما ... يَجُولُ وِشَاحاها على لُؤلُؤٍ رَطْبِ
بَعِيدَةُ مَهْوَى الْقُرطِ مُخْطَفَةُ الحَشَا ... وَمُفعَمَةُ الْخَلْخَالِ مُفعَمَةُ القَلبِ

وكان بينه وبين الوزير عبد الملك بن جهور متولي الأمر معه، ومشاركِه في التدبير، منافسة وكلاهما يتربص بصاحبه دائرة السوء، فطاف ابن شُهَيد برَبَض ابن جهور، فتأخر الإذن عليه بالدخول إليه، وكان ابن جهور يُلقَّب بالحمار، فكتب إليه ابن شُهَيد هذه الأبيات: [3] (من الطويل)

أَتَيناكَ لا عَنْ حاجَةٍ عَرَضَتْ لنا ... إليكَ ولا قَلْبٌ إليكَ مَشُوقُ
وَلكِنَّنا زُرْنا بِفَضْلِ حُلُومِنا ... حِمَارًا تَولَّى بِرَّنا بِعُقُوقِ

وقد ذكر أبو عامر في كتابه «حانوت عطّار» هذه الأبيات، وكان جدّ أبي العباس بن شُهَيد بيطارًا بالشام، فقال ابن جهور: (من الطويل)

حَجَبناكَ لَمَّا زُرْتَنا غيرَ تائِقٍ ... بقلبٍ عَدُوٍّ في ثيابِ صَدِيقِ
وما كان بيطارُ الشَّآمِ بِمَوْ ... ضِعٍ يُباشِرُ فيه بِرَّنا بِخَلِيقِ

(1) مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلَح أهل الأندلس للفتح بن خاقان، ص55.
(2) نفس المصدر، ص56.
(3) نفس المصدر، ص57.

وقد أهدى ابنُ شُهَيد الناصرَ هدية ذكرتها الكتب التاريخية والأدبية لضخامتها مُحتفين بها، وهدية ذي الوزارتين للناصر نقلًا من كتاب «نفح الطيب» للمقّري[1]:

وكان الناصر – رحمه الله – قد استوزَر عبد الملك ابن شُهَيد، وأهدى له ابن شُهَيد هديتَه المشهورة المتعددة الأصناف، وقد ذكرها ابن حيّان وابن الفَرَضي، وغيرهما من المؤرخين، قال المَقَرِّي في نفح الطيب:

قال ابن خلدون: وهي مما يدلّ على ضخامة الدولة الأموية، واتساع أحوالها، وكان ذلك سنة عشرين وثلاثمئة لثمانٍ خلون من شهر جُمادى الأولى.

وهي هدية عظيمة الشّأن، اشتهر ذكرها إلى الآن، واتفق على أنه لم يهادَ أحد من ملوك الأندلس بمثلها، وقد أعجبت الناصر واهل مملكته جميعًا، وأقروا أنّ نفسًا لم تسمح بإخراج مثلها ضربة عن يدها.

وكتب معها رسالة حسنة بالاعتراف للناصر بالنعمة والشكر عليها، استحسنها الناس، وكتبوها، وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصًا، وأسمى منزلته على سائر الوزراء، وأضعف له رزق الوزارة، وبلّغه ثمانين ألف دينار أندلسية، وبلغ مصروفه إلى ألف دينار، وثنّى له العظمة لتثنيته له الرزق فسمّاه (ذا الوزارتين) لذلك، وكان أول من تسمّى بذلك في الأندلس، امتثالًا لاسم صاعد بن مخلد وزير بني العباس ببغداد، وأمر بتصدير فراشه في البيت،

(1) نفح الطيب للمقَرِّي، ج1، ط5.

وتقديم اسمه في دفتر الارتزاق أول تسمية، فعظم مقدارُه في الدولة جدًّا.

وتفسير هديته المذكورة على ما ثبت في كتاب ابن خلدون على ما يفسّر:

خمسمئة ألف مثقال من الذهب العين، وأربعمئة رطل من التبر، ومصارفةً خمسة وأربعون ألف دينار من سبائك الفضة في مئتي بدرة، واقتصر ابن الفَرَضي على خمسمئة ألف دينار فقط، واثني عشر رطلًا من العود الهندي الذي يُختَم عليه كالشمع، ومئة وثمانين رطلًا من العود المُتَخَيَّر، ومئة رطل من العود الشبه المنتقى، هكذا ذكره ابن خلدون.

وقال ابن الفَرَضي مستندًا إلى الكتاب الذي وجَّهَه ابن شُهَيد مع الهدية: إنّ العود الغالي من ذلك أربعمئة رطل، منها في قطعة واحدة مئة وثمانون رطلًا.

وقال ابن خلدون: ومئة أوقية من المِسك الذكي المُفضَّل في جنسه، انتهى.

وقال ابن الفَرَضي نقلًا عن الكتاب المصحوب مع الهدية: إنّ المسك مئة أوقية واثنتا عشرة أوقية، ومن العنبر الأشهب الباقي على خلقته بغير صناعة خمسمئة أوقية، منها قطعة عجيبة ململمة الشكل وزن مئة أوقية، هكذا في تأريخ ابن خلدون.

وفي ابن الفَرَضي: أنّ الكلّ مئة أوقية، وأنّ هذه القطعة أربعون أوقية، ومن الكافور المرتفع النقي الذكي ثلاثمئة أوقية.

قال ابن خلدون: ومن اللباس ثلاثون شقة من الحرير المُختم المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء المختلف الألوان والصنائع، وعشرون أفرية من عالي جلود الفنك الخُراسانية. وخالفه ابن الفَرَضي، إذ قال: ومن أنواع الثياب ثلاثون شقة خنج خاصية للباسه بيضاء وملونة، وخمسة ظهائر شعبية خاصية

له، وعشر فراء من غالي الفنك، سبعة بيض خراسانية وثلاث ملونة، وستة مطارف عراقية خاصة له، وثمانٍ وأربعون ملحفة زهرية لرقاده.

ولم يذكر ابن خلدون ذلك، وابن الفَرَضي أعرَفُ، ولاسيما أنّه استند إلى كتاب المُهدي، وصاحب البيت أدرى.

قال ابن خلدون: وعشرة قناطير شُدّ فيها مئة جلد سمّور، وقال ابن الفَرَضي أيضًا، وزاد ابن خلدون: وستة من السُّرادِقات العراقية، وثمانية وأربعون من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب، ثُم قالا معًا: وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول، وألف رطل من لون الحرير المنتقى للاستغلال، وزاد ابن خلدون: وثلاثون شقة من الغريون لسروج الهبات، وزاد ابن الفَرَضي في الحرير المذكور: قيل: إنه قبضه منه صاحب الطراز، ولم يأت به مع الهدية، وإنما دفعه لصاحب الطراز، وأثبته في الدفتر، قالا: وثلاثون بساطًا من الصوف مختلفة الصناعات طول كلّ بساط منها عشرون ذراعًا، وقال ابن خلدون: منتقاة مختلفة الألوان، قالا: ومئة قطعة مُصَلّبات من وجوه الفُرش المختلفة، زاد ابن الفَرَضي: الصناعات من جنس البُسط، قالا: وخمسة عشر نخًّا من عمل الخزّ المقطوع شطرها، قال ابن الفَرَضي: وسائرها من جنس البُسط الوجوه، قال ابن خلدون: ومن السلاح والعُدّة: ثمانمئة من التجافيف المزينة أيام البروز والمواكب، وقال ابن الفَرَضي: مئة تجفاف بأبدع الصناعات وأغربها وأكملها، قالا: وألف ترس سلطانية، ومئة ألف سهم، زاد ابن خلدون: من النّبال البارعة الصنعة، قال ابن خلدون: ومن الظّهر: خمسة عشر فرسًا من الخيل العِراب المُتخيَّرة لركاب السلطان فائقة النعوت،

وقال ابن الفَرَضي: ومن الخيل مئة فرس منها من الخيل العراب المُتخيَّرة لركابه خمسة عشر فرساً، وخمسة من عرض هذه مُسرَجَة مُلجَمة لمراكب الخلافة، مجالس سروجها خزٌّ عراقي، وثمانون فرساً ممّا يصلح للوصفاء والحَشَم، وقال ابن خلدون: مئة فرس من الخيل التي تصلح للركوب في التصرف والغزوات. قال ابن الفَرَضي: وخمسة أبغل عالية الرّكاب، وقال ابن خلدون: وعشرون من بغال الرّكاب مُسرَجة مُلجَمة لمراكب الخلافة، مجالس سروجها خزٌّ جعفري عراقي، قالا: ومن الرقيق أربعون وصيفًا، وعشرون جاريةً من مُتخيَّر الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم، وقال ابن خلدون في الجواري: مُتخيَّرات بكسوتهنّ وزينتهِنّ، وقال ابن خلدون: ومن سائر الأصناف قرية تُغِلّ آلافًا من أمداد الزرع، ومن الصخر للبنيان ما أنفق عليه في عام واحد ثمانون ألف دينار، وعشرون ألف عمود من الخشب من أجمل الخشب وأصلبه وأقومه قيمتها خمسون ألف دينار، انتهى.

نصّ ابن خلدون: من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر[1]:

«أهدى أحمد بن عبد الملك هديّتَه المشهورة المتعددة الأصناف. ذكرها ابن حيان وغيره، وهي مما نقل من ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها، وهي: خمسمئة ألف مثقال من الذهب العين، وأربعمئة ألف رطل من التبر

(1) تأريخ ابن خلدون، ج4، ص137، اعتنى به: عادل بن سعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م.

ومصارفه خمسة وأربعون ألف دينار، ومن سبائك الفضة مئتا ألف بدرة، واثنا عشر رطلًا من العود الهندي يُختَم عليه كالشمع، ومئة وثمانون رطلًا من العود الصمغي المُتخيَّر، ومئة رطل من العود الشبه المنقى، ومئة أوقية من المسك الذكي المُفضَّل في جنسه، وخمسمئة أوقية من العنبر الأشهب المُفضَّل في جنسه على خليقته من غير صناعة، ومنها قطعة مُلملَمة عجيبة الشكل وزن مئة أوقية، وثلاثمئة أوقية من الكافور المترفِّع الذكاء، ومن اللباس ثلاثون شقة من الحرير المُختم المرقوم بالذهب للباس الخلفاء، مختلفة الألوان والصنائع، وعشرة أفرية من غالي جلود الفنك الخراسانية، وستة من السُّرادقات العراقية، وثمان وأربعون من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب، وثلاثون شقة الغريون من الملاحف لسروج الهبات، وعشرة قناطير من السمور فيها مئة جلد، وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول، وألف رطل من الحرير المنتقى للاستغزال، وثلاثون بساطًا من الصوف، وعشرة منه مُنَقَّاة مختلفة، ومئة قطعة مُصَلَّيَات من وجوه الفرش المختلفة، وخمسة عشر من نخاخ الخزّ المقطوع شطرها، ومن السلاح والعدة ثمانمئة من تخافيف الزينة أيام البروز والمواكب، وألف ترس سلطانية، ومئة ألف سهم من النبال البارعة الصنعة، ومن الظهر خمسة عشر فرسًا من الخيل العراب المتخيرة لركاب السلطان فائقة النعوت، وعشرون من بغال الركاب مسرجة ملجمة بمراكب خلافية، ولجم بغال مجالس سروجها خز جعفري عراقي، ومئة فرس من عتاق الخيل التي تصلح للركوب في التصرف والغزوات، ومن الرقيق أربعون وصيفًا، وعشرون جارية متخيرات بكسوتهن وزينتهن، ومن سائر الأصناف

ومن الصخر سيات ما أنفق عليه في عام واحد ثمانون ألف دينار، وعشرون ألف عود من الخشب وأصلبه وأقدمه، قيمته خمسون ألف دينار».

(وعرضت الهدية على الناصر سنة سبع وعشرين، فشكرها وحَسُن لديه موقعها).

فصل من نهاية الرسالة التي بعثها ابن شُهَيد إلى الناصر:

قال المَقَرِّي: وفي آخر الكتاب[1]:

«ولمّا علمتُ تطلعَ مولاي -أيّده الله تعالى- إلى قرية كذا بالقنبانية[2] المنقطعة الغرس في شرقها، وترددَه -أيّده الله تعالى- لذكرها، لم أهنأ بعيش حتى عملتُ الحيلة في ابتياعها بأحوازها، وأكتبتُ وكيلَه ابن بقية الوثيقة فيها باسمه، وضمّها إلى ضياعه، وكذلك صنعتُ في قرية شيرة[3] من نظر جيان[4] عندما اتّصل بي من وصفِه لها وتطلعِه إليها، فما زلتُ أتصدى لمسرتِه بها حتى تتبعتُها الآن بأحوازها وجميع منازلها وربوعها، واحتاز ذلك كله الوكيل ابن بقية، وصار في يده له أبقاه الله سبحانه، وأرجو أنه سيرفع فيها هذه السنة آلافَ أمداد من الأطعمة إن شاء الله تعالى.

ولمّا علمت نافذَ عزمه -أبقاه الله تعالى- في البنيان، وكلفَه به، وفكرت في عدد الأماكن التي تطلع نفسه الكريمة إلى تخليد آثاره في بنيانها -مدّ الله تعالى

(1) نفح الطيب للمقَرِّي، ج1، ص359.

(2) تدل على الحقول الواقعة جنوب قرطبة.

(3) شيرة: من أعمال جيان.

(4) جيان: كورة كبيرة بالأندلس تتصل بكورة إلبيرة.

في عمـره، وأوفى بهـا علـى أقصـى أملـه- علمـتُ أن أسَّـه وقوامـه الصـخر والاستكثار منه، فأثارت لي همتي ونصيحتي حكمة حيلة أحكمها سعدك وجدك اللذان يبعثان ما لا يتوهم عليه، حيلة أقيم لك فيها بعام واحد عدد ما كان يقوم على يدَي عبدك ابن عاصم في عشرين عامًا، وينتهي تحصيل النفقة فيها إلى نحو الثمانين ألفًا أعجل شأنه في عام، سوى التوفير العظيم الذي يبديه العيان قبلًا إن شاء الله تعالى، وكذلك ما ثاب إليّ في أمر الخشب لهذه المنية المكرمة، فإنّ ابن خليل عبدك المجتهد الدؤوب انتهى في تحصيل عدد ما تحتاج إليه في ثلاثمئة ألف عود، ونيَّف على عشرين ألف عود، على أنه لا يدخل منه في السنة إلّا نحو الألفي عود، ففتح لي سعدك رأيًا أقيم له بتمامه جميع هذا الخشب العام على كماله بورود الجلبية لوقتها، وقيمته على الرّخص ما بين الخمسين ألفا والستين ألفًا». انتهى.

ومن شعر أحمد بن عبد الملك ابن شُهَيد في الغزل: (من الوافر)

حَلَفْتُ بمنْ رَمَى فَأَصَابَ قلْبِي ... وقَلَّبَهُ على جَمْرِ الصُّدُودِ
لَقَدْ أَوْدَى تَذَكُّرُهُ بِقَلْبِي ... وَلَسْتُ أَشُكُّ أَنَّ النفسَ تُودِي
فَقِيدٌ وهوَ مَوْجُودٌ بقلبي ... فواعَجَبًا لِمَوْجُودٍ فَقِيْدِ

14. إدريس بن اليمان[1]

إدريس بن اليمان أبو علي، شاعر جليل عالم، ينتجع الملوك فيُنَفِّق عليهم.

(1) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص 168-169.

ذكره أبو عامر ابن شُهَيد فنسبه إلى بلده، فقال: اليابسي، وينسبه آخرون فيقولون: الشّبيني بالباء المعجمة، لأن الغالب على بلده شجرة الشّبين، وشجرة الصنوبر [1].

ومما يستحسن له في صفة الدرق [2]: (من البسيط)

إلى موقَّحَةِ الأَبْشَارِ مِنْ دَرَقٍ ... يَكَادُ مِنْهَا صَفَا الْفُولاذِ يَنْفَطِرُ

مُؤَنَّثَاتٌ ولكِنْ كُلَّمَا قُرِعَتْ ... تَأَنَّثَ الرُّمْحُ والصمصامَةُ الذَّكَرُ

أبوعلي إدريس بن اليماني العبدري اليابسي، ويابسة من الجزائر الشرقية على سمت مدينة دانية من الأندلس، وأُخبرتُ أنّ أصله من قسطلة الغرب، من عمل شنتمرية ابن هارون، وبدانية قرأ، وبها نشأ، ومنها انبعثَ انبعاثَ السيل، وأدرك إدراك الليل، حتى تضاءلت له الهضاب عن قدره، وماجت الأرض ببحره، وصار شعره سَمَرَ النادي، وتَعِلَّةَ الحادي، وتمثُّل الحاضر والبادي، وطِفِق يتردد على ملوك الطوائف بالأندلس تردُّدَ الكأس على الشرب، ويجري في أهوائهم جري الماء في الغصن الرطب، وكان كلّما قال قصيدة لم يضرب عليها حجابًا، ولا ضمنها كتابًا، حتى يأخذ بها مئة دينار.

ومن شعره، نظر إلى غلام وسيم بالحمّام عليه أسمال فقال: [3] (من الطويل)

(1) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص168- 169.

(2) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص169.

(3) الذخيرة لابن بسّام، ج3، ص253.

تَوَشَّحَ بالظلماءِ وهوَ صَبَاحُ فَأُمْرِضَتِ الأَلْبَابُ وهيَ صِحَاحُ
وَظَلَّ فُؤادِي طَائِرًا عنْ جوانحي ولـيسَ لَـهُ إلّا الغَـرَامَ جنـاحُ
قَضِيبُ صَبَاحٍ فـي وِشَـاحِ دُجنّةٍ ألا لَيْتَني تحتَ الْوِشَاحِ وِشَاحُ
ولا عَجَبٌ أنْ أفسدَتني جُفُونـهُ فكُـلُّ فسـادٍ في هَـواهُ صَـلاحُ

وقال [1]: (من الكامل)

عَلِقَ الهوى قبلَ الهَواءِ عَلاقَةً مـا زالَ في نَـزعٍ بهـا ونِـزاعِ
فكأنَّمَا سَكَنَ الهوى في قلْبِهِ مِنْ قَبْلِ سُكْنَى القلبِ في الأَضْلاعِ

وفي صفة الخيل –من القصيدة–: [2] (من الكامل)

خَيـلٌ يَمِيـدُ الـدَّهرُ عند هُبُوبِهَـا مَيْدَ القَضِيبِ بِعَاصِفٍ زَعـزاعِ
فكـأنَّ خُطـفًا مِـنْ نَتَـائِجِ أَعْـوَجٍ تَنْقَـضُّ مِـن فُرْسَـانِهَا بِسِبَـاعِ

يقول أبو عبد الله الحُميديّ: أدركت زمانَه، ولم أرَه. وروى له شعرًا عن طريق أبي عثمان خلف بن هارون القطيني في مدح إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري. ويقول: إنّ له شعرًا كثيرًا مجموعًا[3].

واستحسن له أبو عامر ابن شُهَيد في التشبيه قوله: [4] (من الكامل)

فكـأنَّ كـلَّ كمَامـةٍ مِـنْ حَـولِهِمْ خِلْـبٌ وكـلُّ شـقيقةٍ تـامُورُ

(1) نفس المصدر، ص253.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص169.
(4) نفس المصدر والصفحة.

15. الزبيري[1]

الزبيري صاحب أبي العلاء صاعد بن الحسن اللغوي، كان أديبًا شاعرًا فكهًا بديهيًّا، ذكره أبو عامر ابن شُهَيد، وقال: كان أمّيًّا، لا يقرأ ولا يكتب، وكان مع هذا من أطبع الناس شعرًا، وأسرعهم بديهة، وكانت له منزلة من رجال المصر، وأهل الجاه منهم، وله مع صاعد غرائب أشعار وأخبار [2].

وقال الحُميديّ: أخبرنا أبو الحسن الراشدي، عن أبي عامر ابن شُهَيد أنّ أبا عبد الله بن فاكان الشاعر تناول نرجسة فركّبَها في وردة، ثم قال له ولصاعد: صِفاها، فأُفحِما ولم يتجه لهما القول، فبينما هم على ذلك إذ دخل الزبيري، فلما استقر به المجلس أُخبِر بما هم فيه، فجعل يضحك ويقول بغير رويّة واصفًا لما كلِفا وصفه [3]: (من السريع)

مَا لِلأَدِيبَيْنِ قَدْ أَعْيَتَهُمَا ... مَلِيحَةٌ مِنْ مُلَحِ الجنّه

نَرْجِسَةٌ فِي وَرْدَةٍ رُكِّبَتْ ... كَمُقْلَةٍ تَطْرِفُ مِنْ وَجْنَه

16. الناجم

الناجم شاعر أديب، ذكره أبو عامر ابن شُهَيد، وذكر له أخبارًا مع صاعد بن الحسن[4].

---

(1) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص396.

(2) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص396.

(3) نفس المصدر، ص397.

(4) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص399.

17. عبد الرحمن أبو المطرّف[1]

عبد الرحمن بن أبي الفهد أبو المطرِّف، أشجعيّ النسب، من قيس مضر، من أهل إلبيرة، سكن قرطبة، له تصرف في البلاغة والشعر، وكان من شعراء الدولة العلويّة[2].

ذكره أبو عامر ابن شُهَيد وغيره، وهذا نصّ كلام أبي عامر فيه، قال: «وأبو المطرف بن أبي الفهد رحل إلى العراق عنّا ولم يستوف الثلاث والعشرين، ثم خَفِي علينا خبره، وكان من أشعر من أنبتته الأندلس، ووطئ ترابها بعد أبي المُخشّى أوّلًا، وأحمد بن درّاج آخرًا»[3]. وكان من أبصر الناس لمحاسن الشعر، وأشدّهم انتقادًا له، وشعره بلطائف غرائبه وبدائع رقائقه يروى، وهو غزير المادة، واسع الصدر، حتى إنّه لم يكن يبقي شعرًا جاهليًّا ولا إسلاميًّا إلّا عارضه وناقضه، وفي كلّ ذلك نراه مثل الجواد إذا استولى على الأمد لا يني ولا يقصِّر، وكانت مرتبته في الشعراء في أيام بني عامر دون مرتبة عبادة في الزّمام، فاعجب»[4].

أخبر أبو محمد علي بن أحمد قال: قال أبو عامر أحمد بن عبد الملك الشُهَيدي أنه عمل بحضرته أربعين بيتًا على البديهة إلى عُبادة ليس فيها حرف

(1) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص277.
(2) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص277.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) نفس المصدر والصفحة.

يعجَم، أولها: «حلمُك ما حدّ حدَّه حدٌّ»[1] وذكر من أشعاره: [2] (من الطويل)

أَبَـاحَ فُـؤادِي لَـوعَةٌ وَغَلِيْـلُ ... فبـاحَ بِسِـرِّي زَفـرَةٌ وَعَـوِيلُ
وَبَـيَّنَ مـا أُخْفِيـهِ دَمْـعٌ يحيـلُهُ ... هَوىً بَيْنَ أَحْنَاءِ الضُّلُوعِ يَجُولُ
وَلَيلُ هُمومِي أَطْلَعَتْ فيهِ هِمَّتي ... كَوَاكِـبَ عَـزْمٍ مـا لَهُـن أُفُـولُ
تُلاحِظُهَـا الأيّـامُ وهـي حَسِـيرةٌ ... وَيَرْنُـو إليهـا الدَّهْـرُ وهـو كَلِيـلُ

ومن شعره: [3] (من الطويل)

قِفَا بي قليلًا في رُسُومِ المَنـازِلِ ... ولا تُنكِرَا فَيْضَ الدُّمُوعِ الهَوامِلِ
ومُنتخَل مِنْ حُرِّ شِعْرِي انْتَخَلتُهُ ... لِمُنتَحِـلٍ غـرّ العُـلا والفَضَـائِلِ

18. عبدالرحمن أبو المطرف المستظهِر باللَّه [4]

قال الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك ابن شُهَيد: كان المستظهِر – رحمه الله – شاعرًا مطبوعًا، يستعمل الصناعة فيجيد، وهو القائل في ابنة عمه: [5] (من الطويل)

حَمَامةُ بَيْتِ العَبْشَمِيِّينَ[6] رَفْرَفَتْ ... فَطِرتُ إليها مِنْ سَـراتِهُمُ صَـقْرَا
تَقـلُّ الثرَيّـا أنْ تكـونَ لهـا يَـدًا ... ويرجو الصباحُ أنْ يكونَ لها نَحْرَا

(1) جَذوة المُقتَبِس للحُميدي، 2008، ص278.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) نفس المصدر، ص150-151.
(4) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص26.
(5) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص26.
(6) العبشميين: نسبة إلى عبد شمس.

وإني لَطَعَّـانٌ إذا الْخَيْـلُ أَقْبَلَـتْ جَوَانِبُهَا حتى تُرَى جُونُهَا شُقْـرَا
وَمُكْرِمُ ضيفي حين ينزلُ سَاحَتِي وَجَاعِلُ وَفْرِي عند سَائِلِهِ وِقْـرَا

وهي طويلة قالها أيام خطبته لابنة عمه أمّ الحكم بنت المستعين، وقال أبو عامر: وكان يُتَّهَم في أشعاره ورسائله، حتى كتب أمان يعلى بن أبي زيد حين وفد عليه ارتجالًا، فعجب أهل التمييز منه، وأمّا أنا فقد كنتُ بَلَوتُه، وكان ورود يعلى فجأة، ولم يبرح مجلسه حتى ارتجل الأمان، وأنا والله أخاف أن يزلّ، فأجاد وزاد. (انتهى آخر كلام أبي عامر)[1].

وهو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الناصري... وكان رَفَعَ مقادير مشيخة الوزراء من بقايا مواليه بني مروان، وكانوا عِصابة يحلّ بها الفتاء، ويذهب بها العجب، منهم أبو عامر ابن شُهَيد فتى الطوائف كان بقرطبة في رقته وبراعته وظرفه... [2].

ويقول أبو مروان بن حيان: كان عبدُ الرحمن لَبِقًا ذكيًّا، وأديبًا لَوذَعِيًّا، لم يكن في بيته يومئذٍ أبرعُ منه منزلة.

وكان على حداثَةِ سنِّه ذكيًّا يقِظًا لبيبًا أديبًا حسَنَ الكلام، جيّدَ القريحةِ، مليحَ البلاغة، يتصرفُ فيما شاءَ من الخطابة بديهةً ورويّةً، ويصوغُ قِطعًا من الشعر مُستجادَةً، وقد اقتضبَ بحضرة الوزراءِ في أيّامه عدةَ رسائل توقيعاتٍ لم يُقصِّر فيها عن الغايةِ، يَزينُ ذلك بطهارةِ أثوابٍ وعفَّةٍ وبراءةٍ من شرب النبيذ سرًّا

(1) نفس المصدر والصفحة.
(2) الذخيرة لابن بسّام، مج1، ص49.

وعلانِيَة، كان في وقته نسيجَ وحدِهِ، خُتِم به فُضلاءُ أهلِ بيتِه الناصِريين، فلم يأت بعده مثلُهُ[1].

بويع له بالخلافة بقرطبة في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمئة، بعد ذهاب دولة بني حمّود وانقراضها من قرطبة، وهو ابن ثلاث أو اثنتين وعشرين سنة، ثم ثار عليه ابنُ عمه المستكفي محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر عبد الرحمن بن محمد في طائفة من أراذل العوام، فقُتل المستظهِر لثلاثٍ بقين من ذي القِعدة من السَّنة، فكانت خلافته سبعة وأربعين يومًا؛ ولم يعقّب.

قال أبو محمد بن حزم الفقيه: كان المستظهِر في غاية الأدب والبلاغة والفهم ورقّة النفس. وقال ابن حيّان: لم يكن في بيته يومئذ أبرع منه. وكان قد نقّلته المخاوف وتقاذفت به الأسفار، فتحنّك وتخرّج وتمرّن، وكاد يستولي على الأمر لو أنّ المنايا أنسأته. وقال في موضع آخر: وكان فتىً أيّ فتى لو أخطأته المتالف. وكان قد أخرج رسلَه إلى جماعة الرؤساء بالأندلس يلتمس البيعة، ويستنفر الكافّة، ويدعو إلى كرّة الدولة، فأخفق ما طلبه، وعوجِل ولمّا تقتضّ الأجوبةَ رسلُه، واضمحلّ أمره؛ والبقاء لله وحده. قال: وكانت سنّه يوم قتل ثلاثًا وعشرين سنة. وكان على حدوث سنِّه يقظًا أديبًا، حسن الكلام، جيّدَ القريحة، مليحَ البلاغة، يتصرّف فيما شاء من الخطاب بديهة ورويّة، ويصوغ قطعًا من الشعر مستجادة[2].

(1) نفس المصدر، ص53.

(2) الحلة السيراء، ج2، ص12.

قال يوم الوثوب عليه من البرابرة: [1] (من مجزوء الكامل)

يـــا أيُّهـــا القمـــرُ المُنيـــرْ كُـن نحـوَ شِـبهِك لـي سَـفيرْ
بتحِيَّـــــــةٍ أودَعـــــــتُها شـــوقًا بُنَيَّـــاتِ الصُّـــدورْ

لمح يومًا ابنة عمه حبيبة وأومأ بالسلام، فلم تردَّ عليه، فقال: [2] (من الطويل)

سلامٌ على من لم يجُدْ بكلامه ولـم يَـرَني أهـلًا لِـرَدِّ سلامِـهِ
سلامٌ على الرَّامي الذي كُلَّما رَمى أصـابَ فُـؤادي عامِـدًا بسـهامِهِ
بنفسي حبيبٌ لم يَجُد لمُحِبِّهِ بطَيـفِ خيـالٍ زائـرٍ في مَنامِـهِ
ألمْ تعلمي يا عذبةَ الاسمِ أنني فتى فيكِ مخلوعٌ عذارُ لجامِهِ
وأنّـي وَفِـيٌّ حافـظٌ لأذِمَّتـي إذا لـم يقُلْ غيري بحِفظِ ذِمامِهِ
يُبشِّـرُ ذاك الشِّـعرُ شِـعرِيَ أنـهُ سَيوصِلُ حَبْلِي بعدَ طولِ انصِرامِهِ
وما شكَّ طَرفي أنَّ طَرفَكِ مُسْعِدي وإنْ كـانَ هـذا زائِـدًا في احـترامِهِ

ومن لطيف شعره[3]: (من مجزوء الرَّمَل)

طـالَ عُمـرُ الليـلِ عنـدي مُـذْ تولَّعْـتَ بصَـدِّي
يـا غـزالًا نقـضَ الـ ـعهدَ ولـمْ يُـوفِ بوعـدي
أنسـيتَ العهـد إذْ بِتْـ ـنا علـى مَفـرشِ وَرْدِ

(1) الذخيرة، ج1، ص55.
(2) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص54.
(3) في أدب الأندلس وتأريخها، ليفي بروفنسال، ترجمة: محمد عبد الهادي عميرة، المطبعة الأميرية، 1951م.

واجتمعْنـــــا في وِشـــــاحٍ وانتظمْنـــا نظـــمَ عِقْـــدِ
ونجـــومُ الليـــلِ تحكـــي ذهبًـــا فـــي لازوردِ

والقصيدة في كتاب «المحبّ والمحبوب والمشموم والمشروب» وردت من تسعة أبيات منسوبة لابن الصولي، قال[1]:

طـــالَ عُمْـــرُ الليـــلِ عنـــدي إذ تَوَلَّعْـــتَ بِصـــدِّي
يـــا ظَلُومًـــا نقـــضَ العهـــدَ ولـــم يُـــوفِ بِوعْـــدِ
أَنَسِـــيتَ الوصـــلَ إذ بِتْـــنا علـــى مَرْفَـــدِ وَردِ
واعتَنَقْنـــا كوِشـــاحٍ وانتَظَمْنـــا نَظْـــمَ عِقْـــدِ
وتعطَّفْنـــا كغُصْنـــيْنِ فقـــدّانا كَقَـــدِّ
جـــادَ خـــدَّاكَ بـــوردٍ لِـــيَ والنشْـــر بِنَـــدِّ
وَثَنايـــاكَ بِـــرَاحٍ وبمســـكٍ وبِشَهْـــدِ
وَجنـــاحُ اللَّيْـــلِ وَحْـــفٌ مِثـــلَ شَـــعْرٍ منـــكَ جَعْـــدِ
ونُجـــومُ الليـــلِ تَحْكـــي ذَهَبًـــا في لازَوَرْدِ

والقصيدة أعلاه في ابنة عمه ننقلها كاملة:[2] (من الطويل)

وجالبـةٍ عـذرًا لتصـرِفَ رغبتـي وتأبى المعالي أن تجيزَ لها عُـذرا
يُكلِّفُهـا الأهلـونَ رَدّي جهالـةً وهل حَسَنٌ بالشمسِ أن تمنعَ البدرا؟
ومـاذا علـى أُمِّ الحبيبـةِ إذْ رأتْ جلالةَ قدري أن أكونَ لها صهرا؟

(1) المحب والمحبوب والمشموم والمشروب للسرّي بن أحمد، تح: مصباح غلاونجي، الباب الخامس والعشرون، ص308.
(2) الحلة السيراء، ج2، ص14.

جعلتُ لها شرطًا عليَّ تعبُّدي ... وسُقتُ إليها في الهوى مُهجتي مَهْرا
تعلّقتُها من عبدِ شمسٍ غريرةً ... مخدَّرةً من صِيد آبائها غرّا
حمامةُ بيت العبشميّين رفرفَتْ ... فطرتُ إليها من سَراتهمُ صقرا
تَقلُّ الثريا أن تكونَ لها يدًا ... ويرجو الصباحُ أن يكونَ لنا نحرا
لقد طالَ صومُ الحبِّ عنكِ فما الذي ... يضرُّكِ منه أن تكوني له فِطْرا؟
وإنّي لأستشفي لما بي بدارِكم ... هدوءاً، وأستسقي لساكِنِها القطرا
وأُلصِقُ أحشائي بِبَرْدِ ترابِها ... لأطفئَ من نار الأسى بكمُ جمرا
فإن تصرفيني يا بْنةَ العمِّ تَصْرفي ... وعيشِكِ كُفْواً مَدَّ رغبتَهُ سترا
وإني لأرجو أن أُطوّقَ مَفْخَري ... بمُلكي لها، وهي التي عظمَتْ فخرا
وإني لطعّانٌ إذا الخيل أقبلت ... جرائدُها، حتى تُرى جُونُها شُقْرا
ومُكرِمُ ضيفي حين ينزلُ ساحتي ... وجاعِلُ وفري عند سائله وفرا
وإني لأَوْلى الناسِ من قومِها بها ... وأنبَهُهُمْ ذكرًا، وأرفعُهم قدرا
وعنديَ ما يُصبي الحليمةَ ثيِّبًا ... ويُنسي الفتاةَ الخَوْدَ عُذْرتَها البِكرا
جمالٌ وآدابٌ وخُلْقٌ موطَّأٌ ... ولفظٌ إذا ما شئتِ أسمعَكِ السِّحرا

وله أيضًا[1]: (من الطويل)

تبسّمَ عن درٍّ تنضّدَ في الوَرسِ ... وأسفرَ عن وجهٍ ينوبُ عن الشمسِ
غزالٌ براهُ اللهُ من نورِ عرشِهِ ... لتقطيعِ أنفاسي وليس من الإنسِ
وهبْتُ له روحي ومُلكي ومُهجتي ... ونفسي ولا شيءٌ أعزُّ من النفسِ

(1) الحلة السيراء، ج2، ص16.

ورفع إليه شاعر ممن هنّأه بالخلافة يوم بيعته شعرًا في رقّ مبشور، واعتذر من ذلك بهذين البيتين:[1] (من الكامل)

الـرّقّ مبشـورٌ وفيـه بشـارةٌ ... ببقا الإمامِ الفاضلِ المستظهِرِ
مَلِكًا أعاد العيشَ غضًّا شخصُهُ ... وكذا يكونُ بهِ طوالَ الأدهُرِ

فأجزل صلته، ووقع على ظهر رقعته بهذه الأبيات: (من الوافر)

قبِلْنا العذر في بشر الكتابِ ... لِما أحكمْتَ من فصل الخطابِ
وجُدْنا بالجَزا مما لدينا ... على قدر الوجودِ، بلا حسابِ
فنحن المُنْعِمون إذا قدرنا ... ونحن الغافرون أذى الذنابِ

19. عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك ابن شُهَيد[2]

أبو أبي عامر ابن شُهَيد صاحب الحانوت، ذكر ابن شُهَيد من شعره في مجلس الجنّ، كما ذكر رسالته التي ترك فيها العمل مستأذنًا من المنصور ابن أبي عامر، وأوردنا الخبر ضمن فصل الأخبار.

ويقول عنه ابن بَشكَوال في كتاب الصِّلة: «من أهل قرطبة، ويكنى أبا مروان، روى عن قاسم بن أصبغ، وأبي الحزم وهب بن مسرّة الحجاري، وغيرهما، وله كتاب التأريخ الكبير في الأخبار على توالي السنين»[3].

قال ابن حيان: توفي الوزير أبو مروان ليلة الأحد، ودُفن لأربع خلون من

(1) الحلة السيراء، ج2، ص17.
(2) كتاب الصِّلة لابن بَشكَوال، ص 5.
(3) كتاب الصِّلة لابن بَشكَوال، ج2، ص5.

ذي القِعدة سنة ثلاث وتسعين وثلاثمئة. وقد أحبّ المنصور بن أبي عامر أن يكون قريبًا منه، فأمره أن يسكن في منية النعمان، فسكن منها بمنية المغيرة.

وكان أيام صباه رأى في منامه أنه كان يبلغ سبعين دينارًا ذهبًا، يعدّها عدًّا، ففسرها له معبر بعدد سنيه، فكان كذلك، إذ توفي وهو ابن سبعين.

ومن شعره: (من السريع)

أَقْصَرْتَ عَنْ شَأْوِيْ فَعَادَيْتَنِي ... أَقْصِرْ فليسَ البُخْلُ مِنْ شانِي

إنْ كانَ قد أغناكَ ما تَحْتوي ... بُخْلًا فإنَّ الجُودَ أغنانِي

وكان على طليطلة لهشام بن الحكم المؤيّد، ومن شعره أيضًا: (من مجزوء الرَّمَل)

طَلَعَ البدرُ علينا ... فَحَسِبناهُ لَبِيْبَا

والْتَقَيْنَا فَرَأَيْنَا ... هُ بَعِيدًا وقريبا

وفي حكاية له مع المنصور:

كتب الوزير أبو مروان عبد الملك ابن شُهَيد والد أبي عامر أحمد ابن شُهَيد إلى المنصور في يوم برد – وكان من أخصّ وزرائه به – بهذه الأبيات:[1] (من المنسرح)

أما ترى بَرْدَ يَوْمِنا هذا ... صَيَّرَنَا لِلْكمُونِ أَفْذاذَا

قد فُطِرَتْ صِحَّةُ الكُبودِ بِهِ ... حتى لَكَادَتْ تَعُودُ أَفْلاذَا

فَادْعُ بِنَا للشَّمُولِ مُصْطَلِيًا ... نَغُذُّ سيرًا إليكَ إِغْذاذَا

(1) نفح الطيب للمَقّري، ج3، ص260.

وادْعُ المُسَمَّى بِهَا وَصَاحِبَهُ تَدْعُ نَبِيلًا وتَدْعُ أُسْتَاذَا
ولا تُبَالِ أبا العلاءِ زَهَا بِخَمْرٍ قُطْرُبُّلٍ وَكِلْوَاذَا
ما دامَ مِنْ أَرْمَلاطَ مَشْرَبُنَا دَعْ دَيْر عمَّى وَطِيزَنَاباذَا

وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالحرم، فأمر بإحضار من جرى رسمه من الوزراء والندماء، وأُحضِر ابن شُهَيد في محفّة لنقرس كان يعتاده، وأخذوا في شأنهم، فمرّ لهم يوم لم يشهدوا مثله، ووقت لم يعهدوا نظيره، وطما الطرب وسما بهم، حتى تهايج القوم ورقصوا، وجعلوا يرقصون بالنوبة، حتى انتهى الدور إلى ابن شُهَيد، فأقامه الوزير أبو عبد الله ابن عباس، فجعل يرقص وهو متكئ عليه، ويرتجل ويومئ إلى المنصور، وقد غلب عليه السُّكر [1]: (من الرَّمَل)

هَاكَ شَيْخٌ قَادَهُ عُذرٌ لَكَا قَامَ في رَقْصَتِهِ مُسْتهلِكَا
لَمْ يَطِقْ يَرقُصُهَا مُسْتَثْبِتًا فانثنى يرقصُها مُستَمْسِكَا
عَاقَهُ عَنْ هَزِّهَا منفردًا نِقرسٌ أَخْنَى عليه فَاتَّكَى
مِنْ وَزيرٍ فِيهِمُ رَقَّاصَةٍ قَامَ لِلسُّكْرِ يُنَاغِي مَلِكَا
أَنَا لَوْ كُنْتُ كَمَا تَعْرِفُنِي قُمْتُ إِجْلالًا على رأسِي لَكَا
قَهْقَهَ الإِبْرِيْقُ مِنِّي ضَاحِكًا وَرَأى رَعْشَةَ رِجْلِي فَبَكَى

وكان حاضرهم ذلك اليوم رجل بغدادي يعرف بالفكيك، حسن النادرة سريعها، وكان ابن شُهَيد استحضره إلى المنصور فاستطبَعه، فلمّا رأى ابن

(1) نفح المَقَرِّي، ج3، ص261.

شُهَيد يرقص قائمًا مع ألم المرض الذي كان يمنعه من الحركة قال: لله درّك يا وزير! ترقص بالقائمة وتصلّي بالقاعدة، فضحك المنصور، وأمر لابن شُهَيد بمال جزيل، ولسائر الجماعة، وللبغدادي.

وفي حكاية أخرى مع الناصر [1]من «النَّفح» للمَقَرّي قال: إنّ أبا مروان ابن شُهَيد أحمد بن عبد الملك الوزير أُهدي إليه غلام من النصارى لم تقع العين على شبهه، فلمحه الناصر فقال لابن شُهَيد: أنّى لك هذا؟ قال هو من عند الله، فقال له الناصر: تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون بالقمر! فاستعذر واحتفل في هدية بعثها مع الغلام، وقال: يا بني كن مع جملة ما بعثت به، لولا الضرورة ما سمحَت بك نفسي، وكتب معه هذين البيتين: (من الطويل)

أَمَولايَ هذا الْبَدْرُ سَارَ لِأُفْقِكُمْ ... ولَلأُفْقُ أَوْلَى بِالبُدورِ مِنَ الأرضِ

أُرَضِّيكُمُ بالنفسِ وهيَ نَفِيْسَةٌ ... وَلَمْ أَرَ قبلي مَنْ بِمُهْجَتِهِ يُرْضِي

فحسُن ذلك عند الناصر، وأتحفه بمال جزيل، وتمكّنت عنده مكافأته.

ثُمّ إنه بعد ذلك أهديت إليه جارية من أجمل نساء الدنيا، فخاف أن ينهى ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقصّة الغلام، فاحتفل في هدية أعظم من الأولى، وبعثها معها، وكتب له[2]: (من الطويل)

أَمَولايَ هذي الشمسُ والبدرُ أَولًا ... تَقَدّمَ كَيْما يَلتَقِي القَمَرانِ

قِرَانٌ لَعَمْرِي بالسعادَةِ قد أتى ... فَدُمْ منهُمَا في كَوْثَرٍ وجِنَانِ

(1) نفح المَقَرِّي، ج1، ص361.

(2) نفح الطيب للمقَرِّي، ج1، ص361.

فما لَهُمَا واللهِ في الحُسْنِ ثالثٌ ومَا لَكَ في مُلْكِ البَرِيَّةِ مِنْ ثَانِي

ثمّ إنّ أحد الوشاة رفع للملك أنّه بقي في نفسه من الغلام حرارة، وأنّه لا يزال يذكره حين تحرّكه الشمول، ويقرع السنّ على تعذر الوصول، فقال للواشي: لا تحرّك به لسانَك، وإلّا طار رأسُك، وأعمل الناصر حيلة في أن كتب على لسان الغلام رقعة منها:

يا مولاي، تعلم أنك كنت لي على انفراد، ولم أزل معك في نعيم، وإني وإن كنتُ مع الخليفة مشارك في المنزلة، محاذر من سطوة الملك، فتحيّل في استدعائي منه[1]. وبعثها مع غلام صغير السنّ، وأوصاه أن يقول من عند فلان، وأنّ الملك لم يكلمه قطّ إن سأله عن ذلك، فلما وقف أبو مروان على تلك الرسالة استخبر الخادم، وعلم من سؤاله ما كان في نفسه من الغلام، وما تكلّم به في مجالس المُدام، فكتب على ظهر الرّقعة ولم يزد حرفًا: (من الطويل)

أَمِنْ بعدِ إِحْكامِ التَّجاربِ يُبْتَغَى لَدَيَّ سُقُوطُ الطَّيْرِ في غابة الأَسَدْ؟
وما أنا مِمّنْ يَغْلبُ الحُبُّ قَلْبَهُ ولا جاهِلٌ مَا يَدَّعِيْهِ أُولُو الحَسَدْ
فإنْ كُنتُ رُوحي قد وَهَبْتُكَ طائِعًا وكيف يُرَدُّ الروحُ إن فارقَ الجسدْ؟

فلمّا وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته، ولم يعد إلى استماع واشٍ به.

ودخل عليه بعد ذلك، فقال له: كيف خلصت من الشَّرَك؟ فقال: لأنّ عقلي بالهوى غير مشترك، فأنعم عليه وزادت محبّته عنده.

(1) نفح الطيب للمقَرِّي، ج1، ص362.

20. عبد الملك بن عمر من أجداد أبي عامر[1]

عبد الملك بن عمر بن محمد بن اشُهَيد بن عيسى أديب شاعر، ومن بيت أدب ووزارة وجلالة. ذكره أحمد بن هشام القرشي، وأبو عامر أحمد بن عبد الملك الشُهَيدي، وهو أبو جدّ أبي عامر (ذي الوزارتين). وأنشد له أبو عامر[2]: (من السريع)

أَقْبَلَ في غِيدٍ حَكَيْنَ الظِّبا ... بِيضُ تَراقٍ حُمْرُ أَفْوَاهِ
يأمُرُ فيهِنّ وينْهَى ولا ... يَعْصِيْنَهُ مِنْ آمِرٍ نَاهِ
حتى إذا أمكنَني أمرَهُ ... تركتُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ

وقد كان من جُلَساء الأمير محمد، ثم أصبح وزيرًا له[3].

وكان ابنه أحمد ولي الوزارة للناصر وأولَ مَن تلقّبَ بذي الوزارتين، يستطيلُ عُمرَ أبيه، ويقول: لا يخلص لي جاهٌ ما دام أبي في الحياة، فكتب عبد الملك هذه الأبيات يخاطبُ ابنَه: [4] (من مجزوء الرَّمَل)

سَرَّنِي فَرْعِي وقد أثْـ ... ـمَرَ واسْتعلَتْ غُصونُهْ
غيرَ أني بِجُلُوسِي ... مَعَهُ صِرتُ أُشينُهْ
يا بُنَيَّ اصْبِرْ فإنّ الشـ ... ـيخَ قد حانَتْ مَنُونُهْ
وسَيَبْدُو لكَ فَرْعٌ ... وتَرَى كيفَ فُنونُه

(1) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص386.
(2) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص386.
(3) المُغرِب في حلى المَغرِب، ج1، ص77.
(4) نفس المصدر والصفحة.

21. عمُّ أبي عامر ابن شُهَيد[1]:

هو: – حسب متابعاتنا – مروان بن أحمد بن عبد الملك ذي الوزارتين (ابن شُهَيد)

أنشد له في «حانوت عطّار[2]: (من الطويل)

صُدُودًا وإنْ كان الحبيبُ مُسَاعِفَا ... وَبُعْدًا وإنْ كان المَزَارُ قَرِيبَا

وما فَتِئَتْ تلكَ الدِّيَارُ حَبِيْبَةً ... لنا قبلَ أنْ نَلْقَى بهنَّ حبيبَا

وَلَوْ أَسْعفَتنَا بالمَوَدَّةِ في الهوى ... لَأَدْنَيْنَ إلْفًا أوْ شَغَلْنَ رَقِيبَا

وما كان يَجْفُو مُمْرِضي غيرَ أَنَّهُ ... عَدَتْهُ العوادي أنْ يكونَ طَبِيْبَا

ونلاحظ أنّ لأبي عامر عمًّا هو أخو عبد الملك ابن ذي الوزارتين أحمد بن عبد الملك ابن شُهَيد، واسمه: مروان، وكان خازنًا على أَوقار الأموال التي تُصرَف للجند، إذ يقول أبو مروان حيّان بن خلف في كتابه «المُقتبَس في أخبار بلد الأندلس» في أحداث سنة ثلاث وستين وثلاثمئة[3]: وفي صدر شَوّال المؤرّخ نفذ مروان بن أحمد ابن شُهَيد من قصرِ الزّهراءِ إلى العسكَر المُقيمِ بالعُدوَةِ خازِنًا على أوقارِ الأموالِ التي وَجَبتْ للجُندِ وغَيرِهِم من طَبقات الحشَمِ المُتلوِّمين بعْدُ بالعُدوَةِ لشَظَفِ الأموالِ المَحُوزَةِ للسلطان.

(1) المُغرِب في حلى المَغرِب، ص 85.

(2) المُغرِب في حلى المَغرِب، ج1، ص85.

(3) المُقتبَس في أخبار الأندلس لأبي مروان حيّان بن خلف، ص131، شرحه: د.صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، ط1، 2006م.

وفي السنة ذاتَها يقول[1]: «وفي عَشْرِ ذي الحِجّة يومَ جلوس الخليفة، وصلَ إلى الزهراء مروان بن أحمد بن عبد الملك ابن شُهَيد خازِنُ السّفرِ مُنصَرَفَهُ من العسكر بالمغرب قد بَلَّغَ الأموالَ وأعطاها للجُندِ المُتخَلِّفين بها».

وفي نفس السنة [2]:«حضرَ أبناء الوزير أحمد بن عبد الملك مَجْلِس الأمير هشام».

22. محمد بن سعيد التاكرني[3]

محمد بن سعيد أبو عامر التاكرني الكاتب، كان من أهل الأدب والبلاغة والشعر، ذكره أبو عامر ابن شُهَيد، سكن بلنسية، وخدم صاحبها عبد العزيز ابن الناصر بعد الأربعمئة [4].

وأبو عامر الوزير كاتب مجيد، ومحسن معدود، وبينه وبين أحمد بن عبّاس -كاتب زهير الفتى- مكاتبات تنازعا فيها فضل البلاغة والبراعة، وتسابقا منها إلى غايات هذه الصناعة [5].

فصلٌ من رُقعة كتبها بأمر المنصور مخاطبًا مجاهِد الموفّق:

إنّ أولى الناس بالاصطلاح نفوس جلبت على صفو ودادها، وأحقّ الذنوب بالاطّراح ذنوب جنيت على غير اعتقادها، وإنّ رسولك الكريم وردني

(1) نفس المصدر، ص142.
(2) نفس المصدر، ص143.
(3) جَذوة الحميدي، ص 60.
(4) جَذوة الحميدي، ص60.
(5) ذخيرة ابن بسّام، ج3، ص170.

فلم يتردّد عندي إلّا ريثما يقدح زند الوداد في نفسك النفيسة، فيوري سراجًا من الصِّلة أسري به في ظلماء القطيعة[1].

وله من رقعة[2]:

وإني قعدتُ عن مناسك فرضها، وتأخرتُ في مضمار قرضها، فإني مُغيرها ضميرًا كما انبلج النهار، وشكرًا كما أرِج النوّار، وهل أنا إلّا أحد أبنائها، وشهب سمائها، وشيعة علائها، وإن جذمَ نأيُ الدار كَفَّ الخيار، ففي البعد اعتذار، وفي الجهد إعذار، وإنّ مع التجاوز ليعلم العيان، ومع التحاور ليطمئن البرهان، ومع التزاور لتزول الأحوال، ومع التقارب لَيقعُ الإخلال، والقوى المخلوقات قريبة الانحلال، سريعة الانفعال، والنيّرات على وفور ضيائها، وظهور سنائها، فيما لا تقابل كليلة، وعندما لا تُسامتُ عليلة، وفيما لا تُناول ضئيلة، وما قُنية ورثتها، ونعمة طُوِّقتها، ورفعة أُلبِستُها بمكفورةٍ آثارها، ولا مسودّةٍ أنوارها، ولا مَواتّي إلى الدولة العليّة بطارقة، ولا شوافعي لديها بمستأنفة.

23. محمد بن سليمان الرُّعَيني[3]

محمد بن سليمان الرّعيني القرطبي أبو عبد الله، المشهور بابن الحنّاط، كان ضريرًا، ومن أوسع الناس بعلوم الجاهلية والإسلام، ومن رسائله المهرجانية

(1) نفس المصدر، ص171.

(2) ذخيرة ابن بسّام، ج3، ص184.

(3) الذيل والتّكملة لكتابَي الموصول والصِّلة للمراكشي، ص 242.

سمّاها (وَشيُ القلم وحَلْي الكرم)[1]، ومنها (النيروزية)، كتبها إلى العالي الحمودي، ووسمها بـ: «نظم المعالي في الملك العالي»، وافتتحها بقوله:

«هنأ الله أمير المؤمنين، وابن خاتم النبيين مُلكًا كان الإله رائِدَه، وحُسن اليقين به قائده».

ومن شعره: (من الكامل)

لمْ يَخْلُ من نُوَبِ الزمانِ أَدِيْبُ ... كَلّا فَشَأنُ النائِبَاتِ يَنُوْبُ

أُمْسِي مُرادًا للخُطوبِ وَأَغْتدِي ... غَرَضًا تُفوَّقُ نَحوَهُ فَتُصِيبُ

وإذا انْتَمَيْتُ إلى العلومِ وَجَدتُهَا ... شيئًا تُعَدُّ بهِ عَلَيَّ ذُنُوبُ

وغَضَارَةُ الأَيَّامِ تأبى أنْ يُرى ... فيها لأَبْنَاءِ الذَّكَاءِ نَصِيبُ

ولذاكَ مَنْ صَحِبَ الليالي طَالِبًا ... جدًّا وفَهْمًا فاتَهُ المَطْلُوبُ

وبينَ أبي عامر ابن شُهَيد وابن الحنّاط مناقضات، وقد كتب ابن الحنّاط إلى الوزير أبي العباس رسالة سأله فيها أن يعرضها على ابن شُهَيد، وفي آخرها قصيدة، طلب من أبي عامر ابن شُهَيد أن يعارضها.

رسالة ابن الحَنَّاط يذكر فيها ابن شُهَيد:

وصاحب كتاب «الذيل والتكملة» ابن عبد الملك المراكشي ذكر الرسالة كاملة، وهي الرسالة التي خاطب ابنُ الحَنّاط فيها أبا العباس بنَ أبي حاتم نصّها: [2]

(1) الذيل والتّكملة لكتابَي الموصول والصِّلة للمراكشي، ج4، ص242.

(2) الذيل والتكملة للمراكشي، ط1، ج4، ص244.

بسم الله الرحمن الرحيم: يا عدّتي، والسيّد الذي قلّدتْه الفتوةُ أعنّتَها، وملّكته المروءة أزِمَّتَها، الإسهاب كلفة، والإيجاز حكمة، وخواطر الألباب سهام، يصاب بها أغراض الكلام، فمن أصمى الرّمية أول سهامه مقصدًا، لم يكن بطول الرماية مجيدًا، وأخونا أبو عامر – سلّمه الله – يسهب نثرًا، ويطول نظمًا، شامخًا بأنفه، ثانيًا من عطفِه، متخيّلًا أنّه قد أحرز قصب السّبق في الآداب، وأوتي الحكمة وفصل الخطاب، يستقصر أسانيد الأدباء، ويستجهلُ شيوخ العلماء: (من البسيط) لجرير

وابنُ اللَّبونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يستطعْ صولةَ البُزْلِ القناعيسِ

وكتبتُ إليك بهذه الأبيات خالية من اللفظ الوحشي، والطبع البدوي، تروقك منظرًا، وتشوقك مخبرًا:

دُرٌّ على أَنَّهُ كَلامٌ سِحْرٌ ولكنّهُ حَلالُ

أولجتُها لُجّة الكرم خائضًا وسابحًا، وأرعيتُها روضةَ الأدب مريحًا وسارحًا، في ليلة بتُّها والكفّ الخضيب سواره البدر، والشِّعرى العبور وشاحها النسر، وكأنّما سماؤها روضة تفتحت النجوم وسطها زهرًا، وتفجّرت المجرّة خلالها نَهرًا، تتبسّم جوانبه أُقحُوانًا، وتتضوّع مسالكه ظيّانًا، وادٍ يسيل بعسجد، على رَضراضِ زَبرجد، وجوٌّ نادمتْ مُزُنُه النَّوْرَ فانتشى، وعانقت ريحه الغصن فانثنى، فما شئتَ من خجِلٍ خدُّه، وثملٍ قدُّه، فلله مبيتي ذلك مبيتًا، أحييتُه للهمّ مُميتًا، بهمّةٍ لا ينقضي سهرُها، أو يتقضَّى وطَرُها، فلما أصبتُ الغُرّةَ، وأقصدتُ الثَّغرة، توسدتُ عرارًا، وتناومتُ غِرارًا، حتى إذا ما نبّهني الفجر ببَرده،

وسربلني الصبحُ ببُرْده، هببْتُ من النّومة، وصحوتُ عن النشوة، فزففتها إليك بنت ليلتها عذراء، وجلوتُها عليك كريمةً فكرتها حسناء، تتلفحُ بحَبرة حِبر، وتتبختر في شِعارة شِعر، مؤتلِف بين رَقّها ومِدادها، ومجتمِعٌ في بياضها وسوادها: الليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس، ختامها ياقوت نُظِم بسلك، ورُقعتها كافور نُمنِم بمسك، خواطبها العيون، وأزواجها النفوس، ولا عطر بعد عروس، تحسب خَطَّها تيَّمَهُ لفظُها فشَكا، وتخالُ القلمَ رقّ لما به فبكى، فأنشدْها أخاك الشُهَيدي مُكلِّفَهُ على العروض والقافية مُعارضتَها، ومُحَمِّلَه على اللينِ والشدّةِ مقارضتَها، فستوقِدُ بقلبه قبساً، وتضرب في أذنه جرساً، يتبيَّن بهما حظُّه، ويتعرف لغيره فضلُه، إن شاء الله، والسلام عليك يا عُدّتي ورحمة الله.

وختم الرُّقعة بهذه الأبيات: [1] (من الأوزان المخترعة)

أَقْصَرَ عنْ لَوْميَ اللائِمُ ... لمّا دَرَى أَنَّنِي هَائِمُ

ما زِلْتُ في حُبِّهِ مُنْصِفًا ... مَنْ لَمْ يَزَلْ وهو لِي ظَالِمُ

مُهَفْهَفٌ ماسَ في بُرْدِهِ ... غُصْنٌ ثَنَتْهُ الصَّبَا ناعِمُ

شَمْسٌ ولكنَّمَا فَرْعُهُ ... لَيلٌ على صُبْحِهَا فَاحِمُ

أَسْهَرُ لَيْلِي غَرَامًا بِهِ ... وهو أَخُو سَلْوَةٍ نَائِمُ

إنّ ابنَ ذكْوانَ ذُو راحَةٍ ... دِيْمَتُهَا صَوْبُهَا دَائِمُ

لَمْ يأتَلِقْ بَرْقُهَا خُلَّبًا ... ولا اتَّقَى خُلفَهَا الشَّائِمُ

(1) الذيل والتكملة للمراكشي، ج1، ص246.

وَمَـــنْ أبـــوهُ أبـــو حاتِـــمٍ ... قَصَّـــرَ عَـــنْ جُـــودِهِ حَاتِـــمُ
يَبْنِـي الْعُـلَا بالنَّـدَى جَاهِـدًا ... وغَـــيْرُهُ لِلْعُـــلَا هَـــادِمُ
مُحَكَّـــكٌ حُـــوَّلٌ قُلَّـــبٌ ... مُحَنَّـــكٌ عَـــازِمٌ حَـــازِمُ
تُبصـــرُهُ دَهـــرَه قاعِـــدًا ... وهـــوَ بِأَعْبَـــائِهِ قَائِـــمُ
إِنْ لَقِـيَ الخَطْـبَ في جَيْشِـهِ ... لاقـــاهُ مِـــنْ بَطْشِـــهِ هَـــازِمُ
إذا انْـــتَضَى سَـــيْفَهُ مُعْلِنًـــا ... لَـــمْ تَـــدْرِ مَـــنْ مِنْهـــمَا الصَّـــارِمُ
شَمَائِـــلٌ مـــا لهـــا عَائِـــبُ ... وَسُـــؤْدَدٌ مـــا لَـــهُ لائِـــمُ
يـــا أَحْمَـــدًا حَمْـــدُهُ رِفْعَـــةٌ ... أَنْـــفُ حَسُـــودِي بهـــا رَاغِـــمُ
مَـــنْ لَـــمْ يكـــن شـــاعرًا عَالِمًـــا ... فَـــإِنَّنِي الشـــاعِرُ العَالِـــمُ
البَـــدْرُ في أَخْمصـــي شِسْعَـــةٌ ... والشـــمسُ في خِنصَـــري خاتـــمُ
والشـــمسُ لَـــوْ حُكِّمَـــتْ حُـــرَّةٌ ... أَبْصَـــرتَها وهـــي لـــي خَـــادِمُ
والـــدُّرُّ لَـــوْ بَلَّغُـــوهُ المُنَـــى ... نَظَّمَـــهُ فـــي فَمِـــي ناظِـــمُ
أَفْـــدِيكَ مِـــنْ سَيِّـــدٍ شُكْـــرُهُ ... فَـــرضٌ علـــى عَبْـــدِهِ الـــلازِمُ
لا زالَ في دَهْـــــرِهِ سَـــــالِمًا ... فالكـــلُّ مِنْـــهُ بـــه سَـالِـــمُ

ولما وصل نعي أبن شُهَيد إلى ابن الحنّاط رثاه بأبيات، ذكرناها في الرثاء، كذلك فابن الحنّاط مدح ابن شُهَيد بقصيدتين، ذكرناهما في المديح. وليس بين وفاة ابن شُهَيد وابن الحنّاط فارق، فقد توفي ابن الحنّاط قريبًا من أربعمئة وثلاثين للهجرة.

ومن شعر ابن الحنّاط الذي خرج فيه عن أوزان الشعر العربي المعروفة قوله: (من الأوزان المخترعة)

لَـوْ كـانَ يَـدْرِيْ الَّـذِي فَعَـلْ أَحْيَـا المحـبَّ الـذي قَتَـلْ
ظَبْـيٌ بِعَيْنَيْـهِ أَسْـهُمٌ في كُـلِّ قَلْـبٍ لَهَـا عَمَـلْ
يَحْمَـرُّ فِيْ خَـدِّهِ دَمِـي وَيَـدَّعِيْ أَنَّـهُ خَـجَلْ

وللرّعيني نثرٌ لطيفٌ في أوصاف شتّى، وقد اعتاد الشعراء أن يقولوا في الطرد قصائد شعرية، أما ابن الحَنّاط فقال في ذلك نثرًا، قال:

«فلما توسطنا وَهَدات الرُّبا، عنّت لنا أسراب الظِّبا، كأنما أُلبِسن الدّمَقس سربالًا، واتخذن السندُس سروالًا. (من الكامل)

مِنْ كُلِّ مُخْطَفَةِ الحَشَا وَحشيّةٍ تحمي مَدارِيْهَا[1] ذِمَارَ جُلُودِهَا
فكأنّمـا أقـلامُ مِسْـكٍ كَـتَّبَتْ بمـدادِ عَيْنَيهَـا رُسُـومَ خُدودِهَـا

وهوت هُوِيَّ السِّلام، وهي تجول في أجوالها[2] يمينًا وشمالًا، فكأنّما أُتيحت لآجالها آجالًا، فغادرناها بين جريح مضرّج بدمائه، وقتيلٍ يجود بذمائه[3].

فصل في وصفِ ركوبِهم البحر وتصيدِهم لأصناف الأسماك فيه[4]:

ثم رُحنا إلى شاطئ البحر، وقد سكن هائجُه، وركد مائجه، وأقبلتِ الزوارقُ تهفو بقوادمِ غِربانٍ، وتعطو بسوالفِ غزلان، تخالها في سمائه أهِلّةً مكسوفةً، وتحسبُها فوق مائه رعيل دُهمٍ مصفوفةً، فلمّا ضُمّت إلينا ودخلناها

(1) مداريها: قرونها.
(2) أجوالها: القطيع، وكذلك الآجال.
(3) خريدة القصر وجريدة العصر للأصبهاني، ج20، ص223.
(4) خريدة القصر وجريدة العصر للأصبهاني، ج20، ص225.

قلنا اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها، فركبنا ولا فُرشَ غير الريحان المنضّد، ولا سقف غير كتّانٍ ممدود، فصفعنا بأجنحتها قفاه، وذلّلنا بمجادفِها مَطاه، وابتدر الملّاحون، فبعضٌ إلى شِباك الحرير، وبعضٌ إلى صنانير، كأظفار السنانير، قد عطفها القَيْن كالراء، وصيّرها الصقل كالألاء، فجاءت أحدَّ من الإبر، وأرقَّ من الشَّعَر، كأنها مخلبُ صُرَد، أو نصفُ حلْقة زَرد، فتقلّدوا سموطَها، وأرسلوا خيوطَها، مضَمّنةً أكلًا وَبيًّا، وسُمًّا لآكله وَحيًّا، فأهوَوْا بها إلى مقرِّ السمك، وقذفوها في سماءٍ لازورديّةِ الحبَك، فما هو إلّا ريث قذفِ تلك الرجوم من فوره، وطلوع النينان أشباه النجوم من غورِه، تبرق بريق الصوارم المسلولة، وتلمعُ لمعان الذوابل المصقولة، مدنَّرة الأصلاب، مفضَّضة البطون، مذهّبة الأفواه، مجزّعة العيون، تصلُّ صليل السيوف في اضطرابها، وتخطرُ خطرانَ الفحول بأذنابها، فاستخرجنا لحمًا طريًّا، واشتوينا، فأكلنا هنيًّا مريًّا، ورحلنا عنه وقد تزودنا منه.

24. محمد بن السراج المالقي[1]

منسوب إلى «مالقة» من بلاد الأندلس على ساحل المجاز الذي يقال له الزقاق، لم يقع لي اسم أبيه، يقول الحُميديّ: شاعر أديب مشهور[2]. ذكَره أبو عامر ابن شُهَيد مفضّلًا له، وأنشد مما استَحسَن من شعره: [3] (من الطويل)

(1) جَذوة المُقتبِس للحُمَيدي، ص61.
(2) جَذوة المُقتبِس للحُمَيدي، ص61.
(3) نفس المصدر والصفحة.

وكـمْ عَـنَّ يَوْمَ النَّحْرِ من نَحْرِ شَـادِنٍ لِعَينِـي بـأَطْوَاقِ الجَمـالِ مُطَـوَّقُ

وفي الذخيرة لابن بسّام: هو أبو عبد الله بن السّراج، وذَكَر أنّه نَقل جُلَّ ما رواه من شعره نقلًا من خط الأديب أبي علي الحسن بن الغليظ، وهو أيضًا من أفق مالقة، صاحِبه وكثير الاتصال به، قال أبو علي: أردت يومًا الأنس به، فعلمت اتصال شربِه فكتبت إليه: [1] (من الخفيف)

يـا خَلِيْـلًا صَـفَا وَكَـدَّرَ يَـومي هَلْ إلى الطِّيبِ في غَدٍ من سَبِيْلِ؟

فأجابه ابن السراج: (من الخفيف)

يا صَدِيقِي شُغِلْتُ عنكَ بِخَطْبٍ لَـمْ يَكُـنْ لـي بِتَرْكِـهِ مِـن سَبِيْـلِ
وَغَـدًا نلتـقي عليهـا سُـلافًا مُـزةً فـي حَـرارَةِ الزَّنْجَبِيـلِ

ومن شعره في ديكٍ صدح [2]: (من الطويل)

رَعَى اللهُ ذا صَـوْتٍ أَنِسْنا بِصَـوتِهِ وقدْ بانَ في وَجْهِ الظلامِ شُحُوبُ
دعـا مـن بعيـدٍ صـاحبًا فأجابـهُ يُخَبِّرُنـا أَنَّ الصَّبَـاحَ قَرِيْـبُ
عَلَـيَّ لـهُ لـو كُنْـتُ أَمْلِـكُ عُـمرَهُ حياةٌ على طِيْبِ الزمـانِ تَطِيْـبُ

وقوله [3]: (من الطويل)

تَأَمَّلْ سُقُوطَ الْغَيْثِ ماذا أَثَارَ مِنْ هَوىً هو في قَلْبِ المُحِبِّ كَمِيْنُ
رأى لي جُفُونًا دَمْعُهَا غَيْرُ ذائِبٍ فذابتْ على الإِسْعَادِ مِنْهُ جُفُونُ

(1) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص659.
(2) المُغرِب في حلى المَغرِب، ج1، ص435.
(3) نفس المصدر والصفحة.

وقال[1]: (من الطويل)

أَلَا يا نَسِيْمَ الرِّيحِ هَلْ أَنْتَ مُخْبِرِي ... بِحَالِ حَبِيْبٍ ليسَ لِيْ عِنْدَهُ عِلْمُ؟
حَبِيبٌ رآني أَشْتَفِي منهُ فاتَّقَى ... جُفُونِي بِسِتْرٍ تحتَهُ القَمَرُ التَّمُّ

25. محمد بن الطايف[2]

محمد بن الطايف من أهل الأدب والبلاغة، ذكره أبو عامر ابن شُهَيد، وكان في أيام بني أبي عامر[3].

26. محمد بن مسلمة أبو عامر[4]

أبو عامر محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة ذكره أبو عامر ابن شُهَيد[5]، كان من أهل العلم والأدب، ناقد من نقاد الشعر، كان رئيسًا جليلًا في أيام المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر ملك الأندلس، كاتبًا في ديوانه، وكان زمامَ الشعراء في تلك الدولة، وعلى يديه كانت تخرج صلاتهم، وعلى ترتيبه كانت تجري أمورهم.

وفي «مطمح» ابن خاقان[6] أنّه عمل للمعتضد بن عباد بإشبيلية، واتُّهم

(1) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص661.
(2) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص62.
(3) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص62.
(4) بُغيَة المُلتَمِس للضبّي، ص337.
(5) بُغيَة المُلتَمِس للضبّي، ص337.
(6) مطمح الأنفس ومسرح التأنس للفتح بن خاقان، ص91 -93.

المُعتضِد بقتله، إذ اطمأنّ أبو عامر إلى المُعتضِد، حتى وافت المُعتضِد فرصة، يقول: (حتى أمكنته في اغتياله فرصة، لم يعلق فيها حصة، ولم يطلق عليه، إلّا أنه زلّت به قدمه، فسقط في البحيرة وانكفا، ولم يُعلم به حتى طفا، فأخرِج وقد قضى، وأُدرِج منه في الكفن حسامُ المجد منتضى)

ومن شعره: [1] (من البسيط)

وَسَوْسَنٌ رَاقَ مَرْآهُ وَمَخْبَرُهُ ... وَجَلَّ في أَعْيُنِ النُّظّارِ مَنظَرُهُ

كأنهُ أكؤُسُ البلَّورِ قد صُنِعَتْ ... مُسَدَّسَاتٌ تعالى اللهُ مَظهَرُهُ

وقد ذهب إلى المُعتضِد: (تحيّز إلى المُعتضِد، لأملاك قديمة كانت له في البلد، فعاش بفضل وفره، وتصوّن عن الدخول في شيء من أمره إلّا عن زيارة لمام، ومنادمة في بعض الأيام) [2].

ومن شعره في وصف مشروب زبيب: [3] (من مجزوء الرَّمَل)

مُزةٌ ماتَتْ زمانًا ... بِحِجَابٍ يَحْتَوِيها

لبثت في بطنِ أُمٍ ... غَيَّبَتْهَا عن بَنِيها

أَلْحَدَتْهَا الشمسُ دَهْرًا ... ثُمَّ عاد الروحُ فيها

كانَ ماءُ المُزنِ فيها ... إذ وَضَعْناهُ بِفِيْها

فَانْبَرَى منها سِرَاجٌ ... رَائِقٌ مَنْ يَجْتَلِيهَا

وبدتْ منها شُمُوسٌ ... غَرَبَتْ في مُطلِعِيْهَا

(1) نفس المصدر والصفحة.

(2) الذخيرة لابن بسّام، ج 2، ص84.

(3) نفس المصدر، 86.

عَزَبَـــــــتْ أَلْبَابُنَـــــــا إذْ غَرَّبَـــــــتْ في شَـــــــارِبِيهَا

هو طائِلُ الدهرِ، وعلَم بُردة ذلك العصر، وأحدُ جهابذة الكلام، وجماهير النثار والنظام، من قوم طالما ملكوا أزمّة الأيام، وخَصَمُوا بألسنة السيوف والأقلام، لم يزالوا أقمارًا في آفاق الكتائب، وصدرًا في صدور المراتب، وكان أبو عامر هذا من شرفهم بمنزلة الفَصّ من الخاتم، وبمكان الصدر من صدر الحازم، وله منظوم مطبوع، ونثر بديع، وقد وقع إليَّ من إملاءاته، وغرائب أدواته، تأليف جمعَه للمعتَضِد، سمَّاه على ما اقتضاه مطابقة الزمان، ومذهب الأوان: «حديقة الارتياح في صفة حقيقة الراح»[1].

ومن شعره أيضًا، قال ابن بسّام: نقلت من خطِّه، قال: كتبت إلى الأديبين أبي علي إدريس، وأبي جعفر بن الأبّار، مستدعيًا لهما[2]: (من المجتثّ)

أَيَـــا شَـــقِيقَيْ إِخَـــاءِ ويـــا قَسِـــيمَيْ صَـــفَاءِ
ومَـــنْ همـــا في ذَوِي الفَهْـــمِ جَـــوهَرُ الأُدَبَـــاءِ
تَفَضَّـــلا وِأَجِيبَـــا إلـــى نَـــدِيِّ نِـــدَاءِ
لِتَأْنَســـا بِحَـــدِيثٍ وَقَهْـــوةٍ وغِنَـــاءِ

قال: فأجابني إدريس: (من المجتثّ)

يـــا صِـــنْوَ مـــاءِ السمـــاءِ في رِقَّـــةٍ وَصَفَـــاءِ
بَهَـــرْتَ ســـيما ذُكَـــاءِ في بهجـــةٍ وذَكَـــاءِ

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج2، ص 84-85.
(2) نفسه، ص 85.

وحـــــزتَ في العَلْيـــــاءِ قـــــوادِمَ الجـــــوزاءِ
يـــا حـــاتمَ الكُرَمـــاءِ وأَحمَـــدَ الشُّعَـــراءِ
بادَهْتَنَـــــا بـــــلآلٍ سَـــــواطِعِ الـــــلألاءِ
قـــريضُ حُســـنٍ كـــدُرٍّ علـــى طلـــى الحَسْـــنَاءِ
يقـــودُ في كـــلِّ مـــعنى معنـــى الغِنـــى والغِنـــاء
وقـــد أجَبْنـــا إلـــى مـــا دعـــوتَ مـــن آلاءِ
لا زالَ نجمُـــكَ أســـمى مـــن نجـــم كـــلِّ سمـــاءِ

وابن الأبّار صدَّ عنه يومًا من يَهواهُ، وواصل سواه[1] (من مُخَلَّع البسيط)

قـــد هَجَـــرَ الأُنـــسُ والســـرورُ إذ هجـــرَ الشـــادِنُ النَّفُـــورُ
وَغُيِّضَـــتْ غَيْضَـــةُ التمنّـــي فَطَـــرْفُ نُوَّارهـــا حَســـيرُ

27. محمد بن وهيب[2]

محمد بن وهيب الكاتب: من أهل الأدب والبلاغة والشعر، ذكره أبو عامر ابن شُهَيد، ومن شعره[3]: (من الطويل)

بأربعـــةٍ هـــذا الغَـــزالُ يَسُـــومُنَا لَـــواعِجَ مـــا منهـــا سَـــلِيمٌ بِسَـــالِمِ
بِشَـــعْرٍ وَوَجْـــهٍ وابتســـامٍ وناظِـــرٍ كَلَيْـــلٍ وَبَـــدْرٍ وانْفِجَـــارٍ وَصَـــارِمِ

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج2، ص87.
(2) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص95.
(3) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص95.

28. محمد بن يحيى الطُّبْنيّ[1]

محمد بن يحيى بن أبي مضر الطُّبني، وصفه الحجاري بالأدب والشعر ومجالسة الملوك، وكان ممّن يجالس أبا الحزم بنَ جهور، وابنَه أبا الوليد[2].

وصحب ابن شُهَيد، وأنشد له[3]: (من البسيط)

لا يُبْعِد اللهُ مَنْ قد غاب عن نَظِري ... ولَمْ يَغِبْ مِنْ صَمِيْمِ القلبِ والْفِكَرِ

أشتاقُهُ كَاشْتِياقِ الْعَيْنِ نَوْمَتَهَا ... بعد الْهُجُودِ وَجَدْبِ الأرضِ لِلمَطَرِ

وَعَاتَبُونِي على بَذْلِ الفؤادِ لَهُ ... وما دَرَوْا أنّني أَعْطَيْتُهُ عُمُرِي

29. مسلمة بن عبد الملك[4]

مَسلَمة بن عبد الملك: رئيس شاعر أديب، كان حيًّا في أيام الفتنة، ومات فيها، ذكره أبو عامر ابن شُهَيد[5].

30. منذر بن سعيد القاضي

منذر بن سعيد القاضي أبو الحكم، يعرف بالبلّوطي، منسوب إلى موضع هناك قريب من قرطبة، يقال له فحص البلّوط، وَلِيَ قضاء الجماعة في حياة الحكم المستنصِر بالله.

---

(1) المُغرِب في حُلى المَغرِب، ج1، ص92.

(2) المُغرِب في حُلى المَغرِب، ج1، ص92.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) بُغيَة المُلتمِس للضبّي، ص463.

(5) بُغيَة المُلتمِس للضبّي، ص463.

وقد ذكر أبو عامر ابن شُهَيد في كتابه المعروف بـ «حانوت عطّار» هذا المعنى فقال: كان عالمًا فقيهًا، وأديبًا بليغًا وخطيبًا على المنابر، وفي المحافل مصقعًا، وله اليوم المشهور الذي ملأ فيه الأسماع، وبهر القلوب، وذلك أنّ الحكم المستنصِر كان مشغوفًا بأبي علي القاليّ يؤهّله لكلّ مهمّ في بابِه، فلمّا ورد رسول ملك الروم أمره عند دخول الرسول إلى الحضرة أن يقوم خطيبًا بما كانت العادة جارية به، فلمّا كان في ذلك الوقت، وشاهد أبو علي الجمع، وعاين الحفل، جبن، ولم تحمله رجلاه، ولا ساعده لسانه.

وفَطن له أبو الحكم منذر بن سعيد، فوثب وقام مقامه، وارتجل خطبة بليغة على غير أُهْبة. وأنشد لنفسه في آخرها: (من البسيط)

هذا المَقَالُ الذي ما عَابَهُ فَنَدٌ ... لكنَّ صَاحِبَهُ أَزْرَى به البَلَدُ

لَوْ كُنْتُ فِيهِمْ غريبًا كُنْتُ مُطَّرِفًا ... لكنّني مِنْهُمُ فاغتالَني النَّكَدُ

لولا الخلافَةُ أبقى اللهُ بَهْجَتَهَا ... ما كُنْتُ أَبْقَى بأرضٍ ما بها أَحَدُ

31. يحيى بن حزم[1]

يحيى بن حزم أبو بكر: شيخ من شيوخ الأدب، وله في ذلك ذِكر، وهو الذي خاطبه أبو عامر ابن شُهَيد برسالة «التوابع والزوابع» التي سماها: «شجرة الفاكهة»، وهو من بيت آخر غير بيت الفقيه أبي محمّد عليّ بن أحمد ابن سعيد بن حزم[2].

(1) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص374.

(2) جَذوة المُقتَبِس للحُمَيدي، ص374.

يقولُ ابن شُهَيد مخاطبًا ابن حزم: لله أبا بكر، ظنٌّ رميتَه فأصمَيت، وحَدْس أمّلتَه فما أَشْوَيْتَ، أبديتَ بهما وجهَ الجَليّة، وكشفتَ عن غُرّة الحقيقة، حين لمحتَ صاحبَك الذي تكسبتَه، ورأيتَه قد أخذَ بأطراف السماء، فألّفَ بين قمريها، ونَظمَ فرقديها، فكلّما رأى ثغرًا سدّهُ بسُهاها، أو لمحَ خرقًا رمّهُ بزُبانِها، إلى غير ذلك، فقلتَ: كيف أوتيَ الحُكم صبيًّا، وهَزّ بجذعِ نخلةِ الكلام فاسّاقطَ جنيًّا؟ أما إنّ به شيطانًا يهديه، وشيصبانًا يأتيه، وأُقسِمُ أنّ له تابعةً تُنجدُه، وزابعةً تُؤيدُه، وليس هذا في قُدرة الإنس، ولا هذا النَّفَسُ لهذه النّفْس، فأمّا وقد قُلتَها أبا بكرٍ فأصغِ أُسمِعْكَ العجب العُجاب[1].

32. يحيى بن هشام المرواني[2]

يحيى بن هشام المرواني أبو بكر، من أهل العلم بالبلاغة والشعر، ذكره أبو عامر ابن شُهَيد[3].

(1) رسالة التوابع والزوابع بشرح بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، ط3، ص87، 2010.
(2) بُغيَة المُلتمِس للضبّي، ص508.
(3) بُغيَة المُلتمِس للضبّي، ص508.

الكتاب الثالث

النقد

تقديم

يرى كثير من الكُتَّاب والمهتمين بالنقد أنّ كتاب «حانوت عطّار» كتاب تراجم ونقد، فالدكتور محمد رضوان الدّاية فِي كتابه تأريخ النقد الأدبي في الأندلس يقول: «لو كانت رسالة التوابع والزّوابع وصلت إلينا كاملةً لكان الحديث عنه أغزر وأوفر، ولاتّضحت مكانته في تأريخ النقد الأندلسي... ، وكتاب حانوت عطّار ترجم فيه لعدد من معاصريه، ونفذ في تلك التراجم إلى تطبيق آرائه ونظرياته النقدية، وماز أساليبهم وخصائصهم... وصاحب الذخيرة ابن بسّام نقل من رسائله مقتطفات تفيد فيما نحن بسبيله، وفي ترجماته المتقدمة وأخبارِه المبثوثة ملاحظات قيمة يمكن أن نفيد منها كالذي في الجَذوة»[1].

ويرى الدكتور الداية أنّ آراء ابن شُهَيد النقدية – معظمَها إن لم نقل كلَّها – صادرة عن وعي ورأي تجريبي لا رأي نظري، ودارت ملاحظاته حول مشكلات كان له فيها ضلع، وناقش أمورًا أخذها على غيره، أو عدّها خصومُه من معايب كلامه ونظمه.

(1) تأريخ النقد الأدبي في الأندلس، د.محمد الداية، ص296، ط2، 1981م، مؤسسة الرسالة.

أما الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر في القرن الرابع عندما يتحدث عن النقد لدى ابن شُهَيد، فيقول: إنّ ابنَ شُهَيد يرى أنّ البيان نفحة سماوية، ولا صلة لها بالنحو والتصريف ومعرفة الغريب، وإنّ هذا الرأي من المسائل التي شغل ابن شُهَيد بها نفسَه، وأخذ يبدئ فيها ويعيد، ويرى أنّ ابن شُهَيد في درس هذه المسألة لم يكن مخلصًا كلّ الإخلاص، وأنّه حريص على تحقير جماعة من اللغويين والنحويين الذين عاصروه في الأندلس وناصبوه الخصومة، وأنّ آراءَه مُشرَّبة بالضّغن والحقد[1]، وأنّ رأي ابن شُهَيد في إنحائه على النحو والغريب معناه أنه ينكر ذلك في البيان. كلّا، وإنما يختار الكاتب أملح النحو وأفصح الغريب، ويقول: ملاحة النحو هذه لم أرَها عند أحد غير ابن شُهَيد[2].

أمّا فكرة أنّ للحروف أنسابًا وقرابات تبدو في الكلام، فإذا جاور النسيب النسيب، وجاور القريب القريب، طابت الألفة، وحسنت الصحبة، فهذه الفكرة ليست من ابتكارات ابن شُهَيد، فقد رأيناها قبلَه منسوبة إلى ابن العميد، حدّث بها الصاحب في مقدمة كتابه عن مساوئ المتنبي[3].

ونعرض ما نحن في صدده غير ملتزمين بما ورد في رسالة «التوابع والزوابع»، أو ما ورد في نصوص أخرى قد تكون من «حانوت عطّار» من صور شتّى نأخذها نماذج للقراءة، ومنها ننطلق إلى النصوص النقدية.

(1) النثر الفني في القرن الرابع، د.زكي مبارك، 1924م، النقد الأدبي عند ابن شُهَيد، ص58- 59.

(2) النثر الفني، د.زكي مبارك، ص59.

(3) رسالة التوابع والزوابع، بطرس البستاني، ص92.

الصور النقدية

الخطيب أهمُّ من الشاعر «قلت: الخطباء أولى بالتقديم، لكنّي إلى الشعر أشوَق» [1].

مع الجاهليين: الشعر

مع امرئ القيس باحثًا عن أسلوبه في نقد الشعر وإن لم يفصح: «يا عتبة بن نوفل، بسقط اللوى فحومل، ويوم دارة جُلجل، إلّا ما عرضتَ علينا وجهك، وأنشدتَنا من شعركَ، وسمعت من الإنسي، وعرَّفتنا كيف إجازتك له...»[2].

ففي أبياته التي قدّمها مقارنة بقصيدة امرئ القيس قدّمها بوصف نثري، ليكرِّرها نظمًا: «واهتزّ عطفُه، وقبض عنان الشقراء وضربها بالسوط، فسمت تحضر طولًا عنا، وكرّ فاستقبلنا بالصّعدة هازًّا لها، ثم ركزها وجعل ينشد...[3].

ولا ننسَ إشارته: «وكرّ» من بيت امرئ القيس: مِكَرٍّ مِفَرٍّ... وابن شُهَيد أجازه امرؤ القيس.

وعند مقارنته، فإنّ امرأ القيس... (شاعر حرب) [4]، وطرفة: (شاعر ذو

(1) النثر الفني في القرن الرابع، د.زكي مبارك، ص63.

(2) النثر الفني في القرن الرابع، د.زكي مبارك، ص326.

(3) رسالة التوابع والزوابع، بطرس البستاني، ص92.

(4) «فظهر لنا فارس على فرس شقراء تلتهب» رسالة التوابع، بطرس، ص92.

نكهة بهار هنديّ)[1]، على الرغم من أنّه أشار إلى سكن الشاعرين، فإنّ لذلك أيضًا إشارة إلى رأيه في كلامهما، اختار لامرئ القيس القصيدة: [2]

«سَمَا لَكَ شَوْقٌ بعد ما كانَ أَقْصَرَا» (من الطويل)

واختار من شعر طَرَفة قوله: [3]

«لِسُعْدَى بِحِزّانِ الشُّرَيْفِ طُلُولُ» (من الطويل)

ورغم عدم خوضه في أشعار الجاهليين كثيرًا، إلّا أنّه يرى أنّ قيس ابن الخطيم لا يمكن تجاهله: أمّا قيس بن الخطيم فمن الشعراء الذين لا يُتجاوز عن شعرهم: أهكذا يحاد عن أبي الخطّار! فابن الخطيم مهتمّ بوصف القنص: (عَلِمْناك صاحب قنص، وخفنا أن نشغلك) [4]. وهو يذكر أسلوبه الجيد في التخلّص من المواضيع في الشعر، أي أسلوب ابن شُهَيد (من الطويل)

هَزَزْتُكَ في نَصْرِي ضُحىً فَكَأَنَّنِي ... هَزَزْتُ وقد جِئْتُ الجبالَ حِرادَهَا[5]

نَقَضْتُ عُرَا عَزْمِ الزَّمَانِ، وإنْ عَتَا ... بِعَزمَةِ نفسٍ لا أُرِيدُ بَقَاءَهَا

(1) «انتهينا إلى غيضة شجرها شجران: سام يفوحُ بهارًا، وشِحر يعبق بهارا هنديًّا»، نفس المصدر، ص93.

(2) نفس المصدر، ص92. ويُنظَر ديوان امرؤ القيس، شرحه هيثم جمعة، مكتبة المعارف، ط1، ص58، 2012م.

(3) نفس المصدر، ص94. وفي ديوان طرفة: «لهندٍ»، ص79، دار صادر بيروت.

(4) رسالة التوابع والزوابع لبطرس البستاني، ص96.

(5) ديوان ابن شُهَيد، ص83: «تبسّمَ وقال: لَنِعمَ ما تخلصتَ، اذهب فقد أجزتُك»، نفس المصدر، ص67.

مع الإسلاميين:

لم يتعرّض للمخضرمين أو عصر بني أميّة كثيرًا رغم وجود عدد من الشعراء لم يلحقوا بالنّبوّة، ولكنّه ذكر الحُطَيئَة، فشعره: ليس من شعر يفسّر، ولا أرض تكسر، وهو يتناول الوضيع فيرفعه، والرفيع فيضعه، والقبيح فيحسنه، وهنا إشارة إلى قول الحطيئة في الزبرقان: (من البسيط)

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ... وَاقْعُدْ فإنكَ أَنْتَ الطاعِمُ الكَاسِي

وقوله في بني الناقة:

قومٌ هُمُ الأنفُ والأذنابُ غَيرُهُمُ ... فَمَنْ يُسَوّي بأنْفِ النّاقَةِ الذّنَبَا

وأنّه يخلط في كلامه، وهو: (على علاّته زير عِلْم، وزنبيل فهم، وكنف رواية).

- أبو تمّام: (هو شجرة غيناء)، وكلام أبي تمام: (كلام محدث وربّ الكعبة)[1]، وهنا إشارة إلى العصر العباسي.
- البحتري: على الرغم من أنّ ابنَ شُهَيد يعدّه أستاذه[2]، فإنّه يرى نفسه أفضل من البحتري، إذ أنشدَ البحتريَّ: (من الخفيف)

مِنْ شُهَيد في سِرِّهَا، ثُمّ مِنْ ... أَشْجَعَ في السِّرِّ مِنْ لُبَابِ اللُّبَابِ

خُطَبَاءُ الأنامِ إنْ عَنَّ خَطْبٌ ... وَأَعَارِيْبُ في مُتُونِ عِرابِ

- أمّا انغماس أبي نواس في اللذة فيراها ابن شُهَيد في نفسه: (فشقّ سمعي

(1) رسالة التوابع والزوابع لبطرس البستاني، ص98.

(2) «قلت ألف أجل، إنه لَمِن أساتيذي»، نفس المصدر، ص102. ويُنظَر البيتان في ديوان ابن شُهَيد، تح: يعقوب زكي، ص87.

قرع النواقيس..)، ويرى أبو نواس شعر ابن شُهَيد مخترعًا من طباعه[1].

- أمّا المتنبي فيقول عن ابن شُهَيد: (فبلغني أنه يتناول، قلت: للضرورة الدافعة، وإلّا فالقريحة غير صادعة)[2]، وهنا يرى أن ما يُسمّى بالسرقات الأدبية جائز، ولا مناصَ منه.

النقد النثري

يرى أنّ الخطابة كثرة المماثلة والمقابلة، والمماثلة هي: أن تكون ألفاظ الفواصل والقرائن متفقة، والمقابلة هي أن يُؤتَى بمتعدد من المتوافقات ثم يُؤتَى بما يقابله من الأضداد.

كذلك فهو يعقد مقارنة بين الجاحظ وعبد الحميد، «فالجاحظ عراقي متحضر، وعبد الحميد شامي[3]»، وهنا إشارة إلى أسلوبيهما في الكتابة، ولكنه مع ذلك تحامل على عبد الحميد فهو: كاليربوع في الأدب [4]، أي: الفأر.

وقد أورد كثيرًا من المناقشات في البيان والوصف، وتطور أسلوب الكتابة بحسب الزمن والمنطقة، ستكون نصوصًا من بيانه.

كذلك كتب عن حال المعلمين ومدى إمكانيتهم للوصول إلى البيان، كما هاجم الكثير من أدباء عصره بأسلوبه النقدي الساخر.

---

(1) نفس المصدر، ص 104- 109.

(2) رسالة التوابع والزوابع للبستاني، ص112.

(3) «الكلام عراقي لا شامّي»، تعريض بعبد الحميد لأنّه شامي، والجاحظ عراقي، نفس المصدر، ص118.

(4) نفس المصدر، ص 118.

نصوص نقدية

فصل: الفهم والبيان[1]

قوم عندنا حظّهم من الفهم الحفظ، ومن العلم الذِّكر، وهذا حظ القُصّاص، وأعلى منازل النُوّاح، فترى المُمَخْرِقَ منهم إذا قرئ عليه الشعر يزوي أنفَه، ويكسر طرفَه، وإذا عرضت عليه الخطبة يُميل شقّه، ويلوي شدقَه، فإن تناولهما لم يُتِقِ مُلحَةً إلّا حشدها، ولا أبقى عفصةً فجّةً إلّا جلبها؛ وأصل قلّة هذا الشأن، وعدم البيان، فساد الأزمنة، ونبوُّ الأمكنة، وإنّ الفتنة نسخ للأشياء من العلوم والأهواء، ترى الفهم فيها بأثر السلعة، خاسر الصفقة، يُلمَح بأعين الشنآن، ويُستثقَل بكلّ مكان. هذا رأينا، وحربنا أنّا طلبنا البيان، فأدركناه بكلّ لسان، والتمَسنا الإبداع فأثبتنا كل مُعجِب، وأتينا على كل مُطرب، فما سقطنا على سوقة يهشّ إلينا، ولا دفعنا إلى ملك يصبو إلينا، وليت إن لم يكن غنم، ألّا يكون غرم، وودّنا أنّا برازخُ لا حرب ولا سلم، ولا يقظة ولا حُلُم، «كفى بذلك إنحاء على الزمن!».

فصل: البيان[2]

وإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب، واستيفاء مسائل النحو، وإنما يقوم بها الطبع مع وزنه من هذين: النحو والغريب، ومقدار ما طبع الإنسان إنّما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه، فمن كانت نفسه في أصل تركيبه

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص170.

(2) ذخيرة ابن بسّام، نفس المصدر، ص183.

مستولية على جسمه، كان مطبوعًا روحانيًّا يطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها، وأروق لبساتها، ومن كان جسمه مستوليًا على نفسه -من أصل تركيبه والغالب على حسّه كان ما يطلع من تلك الصور ناقصًا عن الدرجة الأولى في الكمال والتمام، وحسن الرونق والنظام. فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتي منه في حسن النظام صورٌ رائقةٌ من الكلام، تملأ القلوب، وتشعف النفوس، فإذا فتشت لحسنها أصلًا لم تجده، ولجمال تركيبها أسًّا لم تعرفه، وهذا هو الغريب، أن يتركب الحسن من غير حسن، كقول امرئ القيس[1] (من الطويل)

تَنَوَّرْتُهَا مِنْ أَذْرُعَاتٍ وَأَهْلُهَا ... بيثربَ أدنى دَارِهَا نَظَرٌ عَالِ

فإن هذه الديباجة إذا تطلّبْتَ لها أصلًا من غريب لم تجده، وكقول أبي نواس[2]: (من الطويل)

طَرَحْتُمْ مِنَ الترحالِ ذِكْرًا فَغَمَّنَا ... فلو قد شَخَصْتُمْ صَبَّحَ الموتُ بَعْضَنَا

ثم قال فيها: (من الطويل)

سَأَشكُو إلى الفَضْلِ بن يحيى بن خا ... لدٍ هَوَاكِ، لَعَلَّ الفضلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

فهذا من الكلام الغثّ، واللفظ الرثّ، الذي لو رامه حمار الكُساح لأدركه، ولكنّ له من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى.

(1) ديوان امرئ القيس، ص 126.

(2) ديوان أبي نواس، ص474، تحقيق أحمد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1984م.

فصل[1]

وقول الجاحظ: إنا إذا اكترينا من يعلِّم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهمًا في رأس كلّ شهر، ولو اكترينا من يعلّمهم البيان لما قنع منّا بألف درهم. ولم يقل هذا إلّا وقد ألف «كتاب البيان»، ولو كشف فيه عن وجه التعليم، وصوّر كيفية التدريج، لَأَرى كيف وَضْعُ الكلام، وتزيين البيان، وكيف التَّوصل إلى حسن الابتداء، وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء، وأبدى لهم عن تحبير المقاطع والمطالع، فإنها معادن الصَّنعة، ومواضع مفاتيح الطريقة، ولكنه استمسك بفائدته، وضنَّ بما عنده، غَيرة على العلم، وشحًّا بثمرة الفهم، وعرف أنّ النفع كثير، والشاكر قليل، فلم يُفِد بما أوضح من أمر البيان فائدة غير أهله، ومن كرع في حوضه، واستاف من نَدّه، وأمّا أن يُخرِّج مبتدئًا، أو أن يعلِّم جاهلًا فلا البتّة.

فصل[2]

وقد كنا أطعمنا من هذا الطعام بعض التلاميذ فاستطابه وعلم مقداره، ولكنّ البطالة على الفتيان غالبة، والسآمة عليهم مستولية، فمن بنى على تعليم هذا الشأن فلا يعلِّم إلّا أهلَ النجابة والمثابرة على التعليم، لأنّه مَن لم يَنجُب له تلميذ حمل عليه ذلك النقص، وظنّ به العجز.

(1) ذخيرة ابن بسّام، نفس المصدر، ص184.
(2) نفس المصدر، ص184.

فصل في طريقة تعليم البيان[1]

جلس إليّ يومًا يوسف بن إسحاق الإسرائيلي – وكان أفهمَ تلميذ مرّ بي – وأنا أوصي رجلًا عزيزًا عليّ من أهل قرطبة، وأقول له: إنّ للحروف أنسابًا وقرابات تبدو في الكلمات، فإذا جاوز النسيب النسيب، ومازج القريب القريب، طابت الألفة، وحسُنت الصحبة، وإذا ركّبت صُور الكلام من تلك، حسنت المناظر، وطابت المخابر، أفهمت؟ قال لي: إي والله، قلت له: وللعذوبة إذا طُلِبَت، والفصاحة إذا التُمِسَت قوانينُ من الكلام، من طلب بها أدرك، ومن نكب عنها قصر، أفهمت؟ قال: نعم، قلت: وكما تختار مليح اللفظ، ورشيق الكلام، فكذلك تختار مليح النحو، وفصيح الغريب، وتهرب عن قبيحه، قال: أجل، قلت: أتفهم من عيون كلام القائل[2]: (من الطويل)

لَعَمْرُكِ إني يومَ بانُوا فلمْ أَمُتْ ... خِفاتًا على آثارِهِم لَصَبُورُ

غَداةَ الْتَقَيْنَا إذ رَمَيْتِ بِنَظْرَةٍ ... ونحن على مَتْنِ الطريقِ نَسِيْرُ

ففاضتْ دُمُوعُ العينِ حتى كَأَنَّها ... لِنَاظِرِهَا غُصْنٌ يُراحُ مَطِيْرُ

فقال: إي والله، وقعت «خفاتًا» موقعًا لذيذًا، ووُضِعَت «رميت» و«متن الطريق» وضعًا مليحًا، وسرى «غصن يراح مطير» مسرى لطيفًا، فقلت له: أرجو أنك تنسّمت شيئًا من نسيم الفهم، فاغدُ عليّ بشيء تصنعه. قال أبو

(1) نفس المصدر، ص185 – 186.

(2) الأبيات في التذكرة السعدية غير منسوبة، وكذلك في الحماسة البصرية.

عامر: كان ذلك اليهوديّ ساكتًا يعي ما أقول، فغدا ذلك القرطبيّ فأَنشَدَني: (من الوافر)

حَلَفْتُ بربِّ مَكَّةَ والجَمَالِ لقد وُزِنَتْ كُرُوبِي بِالجِبَالِ

في أبيات تشبهه، وجاء اليهودي فأنشدني: (من المتقارب)

أَيَمّمَ رُكْبَانُهُم مَنعِجَا وقد ضَمّنُوا قَلْبَكَ الْهَوْدَجَا

واستمرّ إلى آخر قصيدته، فأتى بكلّ حسن، فقال لي ذلك القرطبي: شعر اليهودي أحسن من شعري، فقلت: ولا بأس بفهمك إذ عرفت هذا، ولم يزل يتدرّب باختلافه إليّ حتى نَدِيَ تُربه، وطلع عشبه، ثُمّ تفتّح زهرُه، وضاعَ عبقُه، ورآني أستعمل وحشيّ الكلام في مواضعه، ولم يشعر بحسن الوضع، فاستعمل شيئًا منه وعرضه عليّ، فقلت: استره، فقال: تبخل عليّ به، وعرضه على ابن الإفليليّ، فقال له: تنكّبْ هذا الكلام، فقال له: إنّ أبا عامر يستعمله، فقال: يضعه في موضعه، وهو أدرب منك في استعماله.

فصل[1]

وربّما لاذ بنا المستطعِم باسم الشعر ممن يخبط العامّة والخاصّة بسؤاله، فيصادف منّا حالة غير ذات فضلة، لا تتسع له في كبير مبرّة، فنشاركه ونعتذر له، وربما أفدناه بأبيات يعتمد بها البقّالين ومشيخة القصّابين، فإذا قرعت أسماعهم، ومازجت أفهامهم، دَرَّ حَلبُهم، وانحلت عقدُهم، وجلّ شخص ذلك البائس فيعينونه، فما شئت إذ ذلك من خبزة

(1) نفس المصدر، ص186.

وثيرة يُحشَى بها كُمُّه، ورقبة سمينة تدفن في مخلاته، ومن كُوزٍ فُقّاع يصب في فمه، وتينة رطبة يُسَدُّ بها حلقومُه، وسنبوسقة ودكة تدسُّ تحت لسانه، وفالوذجة رطبة يُحتكّ بها حنكُه، فلا يكاد ذلك البائس يستتمّ ذلك حتى يأتيَنا فيُكبّ على أيدينا يقبّلها، وأطرافنا يلطعها، راغبًا في أن نكشف له السرّ الذي حرك العامّة، فبذلت ما عندها له، وبادرت بِدَرّها إليه، وتعليمه ذلك النحو من أنحاء السحر لا نستطيعه، لأنّ هذا الذي يريده منّا هو تعليمه البيان، وبين فكره وبينه حجاب، ولكلّ ضرب من الناس ضرب من الكلام، ووجه من البيان، والمرء لا يفجر صفاة غيره، إلّا أن يوفيَ على معرفة ذلك بفهمه التبيين والتبيّن، ويكونَ من المستنبِطين بوجوه الحيل على قوانينَ قائمة، وأصول ثابتة، فتكون النتيجة ما سمعت.

فصل: البيان والمكان والزمان[1]

وكما أنّ لكلّ مقام مقالًا، فكذلك لكلّ عصر بيان، ولكل دهر كلام، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة، وضرب من البلاغة لا يوافقها غيره، ولا تهشُّ لسواه، وكما أنّ للدنيا دولًا فكذلك للكلام نُقَلٌ وتغاير في العادة، ألا ترى أنّ الزمان لمّا دار كيف أحال بعض الرسم الأول في هذا الفن إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم من أهل البيان؟ فالصنعة معهم أفسح باعًا، وأشد ذراعًا، وأنور شعاعًا، لرجحان تلك العقول، واتساع تلك القرائح في العلوم، ثم دار

(1) نفس المصدر، ص187.

الزمان دورانًا، فكانت إحالة أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات وابني وهب ونظرائهم، فرقّت الطباع، وخفّ ثقل النفوس، ثم دار الزمان، فاعترى بأهله باللطائف صَلف، وبرقّة الكلام كلف، فكانت إحالةٌ أخرى إلى طريقة البديع وشمس المعالي وأصحابهما.

وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة في الصنعة بانتقال الزمان، وطلب كل ذي عصر ما يجوز فيه، وتهشّ له قلوب أهله، فكان من صريع الغواني وبشّارٍ وأبي نواس وأصحابهم في البديع ما كان من استعمال أفانينه والزيادة في تفريع فنونه، ثم جاء أبو تمّام فأسرف في التجنيس، وخرج عن العادة، وطاب ذلك منه، وامتثله الناس، فكلّ شعر لا يكون اليوم تجنيسًا أو ما يشبهه تمجّه الآذان، والتوسط في الأمر أعدل، ولذلك فضَّل أهل البصرة صريع الغواني على أبي تمام، لأنه لَبِس ديباجة المحدثين على لأمة العرب، فتركّبَ له من الحسن بينهما ما تركّب.

فصل: تصنيف أصحاب الكلام[1]

وأهل صناعة الكلام متباينون في المنزلة، متفاضلون في شرف المرتبة، على مقدار إحسانهم وتصرفهم. فمنهم الذي ينظم الأوصاف، ويخترع المعاني، ويُحرِز جيّد اللفظ، إلّا أنه يصعب عليه الكلام، ويكدّ عليه قريحته التأليف، حتى إنّه ربما قصّر في الوصف، وأساء الوضع. فهذا في الأبيات القليلة نافر، وفي القريبة المآخذ سائر، وفي طريقة الجمهور

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام، ج1، ص188.

الأعظم ذاهب، حتى إذا ازدحمت عليه، وانحشدت إليه، وطالبته ببهاء البهجة، وشرف المنزلة، وقف وانفلّ، وتلاشى واضمحلّ.

ومنهم الكارع في بحر الغزارة، القادح في شعاع البراعة، الذي يمرّ مرّ السّيل في اندفاعه، والشؤبوب في انصبابه، لا يشكو الفشل، ولا يطلّ على طول العمل إذا ازدحمت في الكلام عليه المطالب، وعلِقَت بحواشي فكره المآرب، وحُشِرت عليه الصعائب والغرائب، استقلّ بكاهله، واضطلع بثقلها غاربه، وأعارها من نظره لمحة، ومن فكره قدحة، ثمّ رمى بها عن جانبيه، قد رَوِيت بمائها، ولبست شعاع بهائها، وبقي كاللقْوة في المرقب، سام نظره، قد ضمّ جناحيه، ووقف على مخلبه، لا تتاح له جارحة إلّا اقتصّها، ولا تنازله طائرة إلّا اختطفها، جرأته كشفرته، وبديهته كفكرته، ذلك الألسَن يوم حرب الكلام، لا تخطئ ضربتُه، ولا تصاب غرّتُه.

ومنهم من يتجافى الكلام، ويروغ عن المقال، فإذا مُنِي به أخذ بأطراف المحاسن، وشارك في أنحاءٍ من الصنعة، وجُلّ ما عنده تلفيقٌ وحيلة، وبذلك يصاحب الأيام، ويجاري أبناء الزمان، ما كان له عقل يغطي على نقصانه، وسياسة يسوس بها فحول زمانه، ومن خرج عن هذه الطبقات الثلاث لم يستحقّ اسم البيان، ولا يدخل في صناعة أهل الكلام.

في تحريك البخلاء من الكبراء[1]

وأصعب من هذا تحريك البخلاء من الكُبَراء إلى البذل، لأنهم بعادتهم لا تمكن نقلتهم لعزتهم، ولما اشتملت عليه ثياب مجدهم، فلا ينجع تقويضهم، فها هنا يُحتاج إلى أثقب ما يكون من الذهن، وأوسع ما يكون من الحيلة، إلّا أنّ هذه العصابة لا يتمكّن لذي التفاهة تحريكها، ولا بدّ لها من طبقة يكون لها في العين بعض التصويب والتصعيد، ولهذا صار سبّ الأشراف عسيرًا عويصًا، فإنّك تجدُهم يتدحرج عنهم قبيح المقال، ولا يضعضعُهم خبيث الكلام، لقوّة بنيانهم، وثبات أركانهم، فهدم بنيان هؤلاء صعب، ولذلك فخرت العرب بمن لا يمكن له ذلك من أهل الكلام، ولذلك نوّهوا بمن يحسن سبّ الأشراف، واستحسَنوا من ذلك قول ابن صفوان في شبيب: (ليس له صديق في السرّ، ولا عدوّ في العلانية).

فصل[2]

وقوم من المعلّمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو، وحفظ كلمات من اللغة يحنّون على أكباد غليظة، وقلوب كقلوب البعران، ويرجعون إلى فطن حَمِئَة، وأذهان صَدِئَة، لا منفذ لها في شعاع الرقّة، ولا مدبّ لها في أنوار البيان، سقطت إليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من

(1) نفس المصدر، ص186-187.

(2) ذخيرة ابن بسام، ص188- 189.

الرقص على الإيقاع، والزمر على الألحان، فهم يصرفون غرائبها فيما يجري عندهم تصريفَ من لم يُرزق آلة الفهم، ومن لم تكن له آلة الصناعة، ممّا هي مخصوصة بها، لا تقوم تلك الصناعة إلّا بتلك الآلة، فهو كالحمار لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور، لتوتّدِ رسَغِه، واستدارةِ حافره، ولا له بنان يجس به على دستبان، ولو جاز أن يكون حمارٌ يغني:

ما بالُ أَنْجُمِ هذا الليلِ حائِرةً أَضَلَّتِ القصدَ أَمْ لَيَّتْ على فَلَكِ

وشبهه، من أجل أنّ له حنكًا ولسانًا وقصبةَ رئة، لما جاز أن يوقع بالمضراب على الأوتار، ويتمّم بجسّ الأنامل، ويرخي الوتر في مجرى السبابة والبنصر، فيبلبل بنشيده، ويولول في ضربه على بسيطه. فهذه حال العصابة من المعلّمين: يدركون بالطبيعة، ويقصرون بالآلة؛ وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العِلَل الداخلة من فساد الآلة القابلة للروحانية، والخادمة لآلات الفهم، الباعثة لرقيق الدم في الشّريانات إلى القلب، وزيادة غِلَظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعي، يعين على ذلك بالحدس وطريق الفراسة فساد الآلة الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه، ونتوء القَمَحْدُوَةِ، والتواء الشِّدق، وخزر العين، وغلظ الأنف، وانزواءِ الأرنبة. فنستعيذ بالله ألّا يشوه خلقة قلوبنا، ولا يُجسي أجرام أكبادنا، ويضمّ أوتارنا وأعصابَنا، ولا يعظّم أنوفنا، ولا يجعلنا مُثلة للعالمين.

فصل[1]

ومن دليل تقصير عُصابة المعلّمين أنّهم لا يُقدّمون أن يجعلوا ما يحملون من المعرفة تصنيفًا، ولا تغزر مادتهم أن ينشئوها تأليفًا، وإنّما تفسو به أنفاسهم فسواً بين تلاميذهم، ولا يقدر أن يزيد في النفخ فيضرط به ضراطًا يُسمَع، فهم في ذلك أمثال الجنادب، وقرناء الخنافس، لا توازن الظربان في قوة فسائه، وإن زادت عليه في نتنه، ولا يبلغون درجة الحمار الوحشي في شدة ضراطه، وإن شاركوه في اسمه، ولا تروى لهم نادرة، ولا تُؤثَر عنهم في البلاد شاردة.

وممّا عُلِم من هذه العِصابة إذا لمحتنا أبصارهم قابلونا بالمَلق، وهم منظورون على حسد وحنق، فإذا جمعتنا المحافل، وضمّتنا المجالس، تراهم إلينا مبصبِصين، وعن الأخذ في شيء من تلك المعاني زائغين، وإنما يتبيّن تقصير المقصّر، وفضل السابق المبرِّز، إذا اصطكّت الرُّكَب، وازدحمت الحلق، واستعجل المقال، ولم توجد فسحة لفكرة، ولا أمكنت نظرة لرويَّة، أو في مجالس الملوك عند أنسها وراحتها، فإنّه يقع فيها، ويجري لديها، ما لا ينفع معه الاستعداد، ولا ينفذ فيه غير الطبع والغريزة المتدفّقة، فترى الجواد السابق إذ ذاك متشوّفًا بأذنه، باحثًا لكديد الإحسان بيده، طامحَ النظر، صَهْصَلِق الصهيل، وأهل الصنعة خرس، لا يسمع لهم جرْس، ولا شيء عندهم غيرُ حَسْوِ الكاس، وشمّ الآس،

(1) ذخيرة ابن بسّام، نفس المصدر، ص192.

وتَنفُّسِ الصعداء، قد اصفرّت ألوانهم، وقلصت شفاههم، كأنهم من رجال عذرة. وما أذكر أنّي فزت من هذا المجلس بخطير غيرَ مرّة، بين يدي هشام بن محمد، والمجلس قد غصّ بالعمائم والطماطم، من أهل المصر لجواب بعض الرؤساء عن فصول خبيثة حادّة لا جواب ولا عذر عنها، فجرى ما أكره ذكرَه من أجل أنّه متصل بتعجيز أهل البيضة، والغضّ من الأصحاب، على أنهم جدراء بذلك، لقلة إنصافهم لنا، وتسلّطهم علينا، وإسرافهم في ثلبنا.

فصل في صفة كاتب الملوك[1]

ذكر يومًا عند أبي القاسم سهل بن هارون والجاحظ، فضرب فيهما مثل العامة: بينهما ما بين الملائكة وصبيان الحرس. قال: هذا من الإنحاء العظيم على سهل. والأولى أن يسمّيا مُحسنَين، إلّا أنّ سهلًا كاتب سلاطين، والجاحظ مؤلّف دواوين، وقد يؤدي النظر إلى أنّهما في طريقتين مختلفتين، وكلاهما محسن في بابه، إلّا أنّه لم يُرَ أغبنَ من الجاحظ لنفسه، إن كان واحد البلاغة في عصره، فما باله لم يلتمس بها شرف المنزلة بشرف الصنعة، وقد رأى ابن الزيات وإبراهيم بن العباس بلغا بها ما بلغا، وهو يلتمس فوائدهما والجاه بهما؟ فلا يخلو في هذا إمّا أن يكون مقصرًا عن الكتابة وجمع أدواتها، أو يكون ساقط الهمة، أو يكون إفراط جحوظ عينيه قعد به عنها، كما قصّر بي أنا

(1) نفس المصدر، ذخيرة ابن بسّام، ص192.

ثقل سمعي، وبأبي القاسم ورم أنفه. إذ لا بُدّ للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليها عينه، وأذن ذكية تسمع منه حسّه، وأنف نقيّ لا تذمّ أنفاسه عند مقاربته له، ولذلك استحسنوا من الكاتب أن يكون طيب الرائحة، سليمَ آلات الحواس، نقيّ الثوب، ولا يكون وسخ الضرس، منقلب الشفة، مكحل الأظفور، وَضِر الطوق، وربّما أنكر قولنا في شرط جمع أدوات الكتابة فقال: وأيّ أداة نقصت الجاحظ؟ فنقول: أول أدوات الكاتب العقل، ولا يكون كاتب غير عاقل، وقد نجد عالمًا غير عاقل، وجدليًّا غير حصيف، وفقيهًا غير حليم، وقد وجدنا من ينسب العقل إلى سهل أكثر من نسبته إلى الجاحظ. ولو شهد الجاحظ سهلًا يخادع للرشيد مُلكًا، ويدبر له حربًا، ويعاني له إطفاء جمرة فتنة، مستضلعًا في ذلك كلّه بعقله، وجودة علمه، لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال، في صفة غراميل البغال، وغير الكلام في الجرذان، وبنات وردان، ولَعَلِمَ أن بين العالم والكاتب فرقًا.

فصل[1]

ومن الواجب على الناقد أن يبحث عن الكلام، ويفتّش عن شرف المعاني، وينظر مواقع البيان، ويحترس من حلاوة خدع اللفظ، ويدعَ ترويق التركيب، ويُراطِل بين أنحاء البديع، ويُمثِّل أشخاص الصناعة، فقد ترى الشعر فِضّيّ

(1) نفس المصدر، الذخيرة، ص19.

البشَرة، وهو رصاصيّ المَكسر[1]، ذا ثوب مُعضَّد أو مُهلهَل، وهو مشتمل على بَهَق أو برص، مبنيًّا بلَبَن التماثيل، وصفوان التهاويل، وهو لا يُجِنُّ صاحبَه عن النسيم فضلًا عن الحرجف، ولا يقيه رقيق ريِّق الندى فضلًا عن شؤبوب الكَنَهْوَر، وقد ملّحَته ملاحةُ السماء، واتّقد فيه الهواء، واضطرمت في جانبه نيرانُ الجوى، ولمع فيه البرق، واستَنَّ فيه الودْقُ، وسفحَت عليه الدموع، وبان فيه الخشوع، وهو: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [النور: 39] -لا يستحقّ صاحبه غيرَ أنْ يكون تِلْعابةً، أو صاحب براعة، وإنّما يستحقّ اسم الصناعة بتقَحّم بحور البيان، وتَعمّد كرائم المعاني والكلام، وأن ينطِق بالفصل، ويركب أثباج الجِد، ويطلب النادرة والسائرة، وينظِم من الحكمة ما يبقى بعد موته، ويُذكرُ بعد فوته، ويتصرّف تصرُّف الملْح، ويتلوّى تلوُّن أبي براقش.

فصل[2]

وممّا يلزم المدّعي لصناعة الكلام إذا اعتمد وصف حالة أن يستَوفيَ جميعها، ويكون ما يطلبه من الإبداع والاختراع فيها غير خارج عنها وما هو بسبيلها، فذلك أبهى لكلامه، وأفخم للمتكلّم به، وأدلَّ على أنّ الكلام له ومن تأليفه، لا كما شهدته يومًا عند ابن حمّود وقد صدر عن ابن الشرب، ومدحه

(1) وردت الجملة في مختار ابن الصير في ص62 منسوبة لابن شُهَيد.
(2) نفس المصدر، ذخيرة ابن بسّام، ص240-241.

عـدة شـعراء صـدور أشـعارهم لزينـب والرّبـاب ولمـيس وفرتنـى، وأعجازهـا للجود والكرم وبذل اللُّهى، ولم يلمِم أحد منهم بذلك الغرض والمغزى إلّا في بيتين أو ثلاثة.

فصل[1]

في وصف شعر أبيه:

هكـذا الشـعر، وهكـذا الطبـع، وهـذا المـاء رقّـة وعذوبـة، والهـواء لطافـة وسهولة، لا ما كنّا فيه من الشنائع والقعاقع، وهو يشير إلى بيت أبيه، إذ يقول: (من الرَّمَل)

قَهْقَـهَ الْإِبْرِيْـقُ مِنِّـي ضَـاحِكًا وَرَأَى رِعْشَـةَ رِجْلِـي فَبَكَـى

وكذلك يُشيرُ إلى قوله: (من الرَّمَل)

أَذّنَ الـدِّيكُ فَثِـبْ أو ثـوِّبِ وَانْضَـحِ القَلْـبَ بمـاءِ الْعِنَـبِ

فصل في كتابته[2]

كنـتُ أيـام كُتّـاب الهجـاء، أحـنُّ إلـى الأدبـاء، وأصـبو إلـى تـأليف الكـلام، فاتّبعـتُ الـدواوين، وجلسـتُ إلـى الأسـاتيذ، فنبض لـي عـرق الفهـم، ودَرّ لـي شريان العلم، بموادّ روحانيّة، وقليل الالتماح من النظر يزيدني، ويسير المطالعة

(1) ذخيرة ابن بسّام، ص246.

(2) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص193.

من الكتب يفيدني، إذ صادف شَنُّ العلم طبقَه، ولم أكن كالثلج تقتبس منه نارًا، ولا كالحمار يحمل أسفارًا، فطعنتُ ثغرة البيان إدراكًا، وأعلقت رجل طيره أشراكًا، فانثالت لي العجائب، وانهالت عليّ رغائب.

ويقول واصفًا نفسه بالبلاغة:

لله أبا بكر -ظنٌّ رمَيتَه فأصمَيْت، وحدسٌ أمّلتَه فما أشْوَيْت! أبديت بهما وجه الجليّة، وكشفت عن غُرة الحقيقة، حين لمحت صاحبك الذي تكسّبتَه، ورأيته قد أخذ بأطراف السماء، فألّف بين قمريها، ونظم فرقديها، فكلّما رأى ثغرًا سدّه بسهامها، أو لمح خرقًا رمَّه بزبانها، إلى غير ذلك، فقلت: كيف أوتيَ الحكم صبيًّا، وهَزّ إليه بجذع نخلة الكلام فاسّاقط عليه رُطبًا جنيًّا؟ أما إنّ به شيطانًا يهديه، وشيصبانًا يأتيه، وأقسمُ أنّ له تابعة تُنجدُه، وزابعة تؤيّدُه، ليس هذا في قدرة الإنس، ولا هذا النفَسُ من النفس.

فصل في نقد كتابته: على لسان الجاحظ [1]

قال: إنّك لخطيب، وحائك للكلام مجيد، لولا أنّك مغرًى بالسجع، فكلامك نظم لا نثر. فقلت في نفسي: قرعك -بالله- بقارعته، وجاءك بمماثلته، ثُم قلت له: ليس هذا -أعزّك الله- مني جهلًا بأمر السجع، وما في المماثلة والمقابلة من فضل، ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام، ودُهيتُ بغباوة أهل الزمان، وبالحرا أن أحرّكهم بالازدواج، ولو فرشت للكلام فيهم طولقًا،

(1) الذخيرة لابن بسّام، ص209-210.

وتحرّكت لهم حركة مُشَوْلم، لكان أرفع لي عندهم وأولج في نفوسهم، فقال: أهذا على تلك المناظر، وكبر تلك المحابر، وكمال تلك الطيالس؟ قلت: نعم، إنها لحاء الشجر، وليس ثَمّ ثمرٌ ولا غبق، قال لي: صدقت، إني أراك قد ماثلت معي، قلت: كما سمعت، قال: كيف كلامهم بينهم؟ قلت: ليس لسيبويه فيه عمل، ولا للفراهيديّ إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة، إنّما لكنة أعجمية يؤدّون بها المعاني تأدية المجوس والنبط، فصاح: إنا لله، ذهبت العرب وكلامها! ارمِهم يا هذا بسجع الكهان، فعسى أن ينفعك معهم، ويطير لك ذكر فيهم، وما أراك مع ذلك إلّا ثقيل الوطأة عليهم، كريه المجيء إليهم.

فصل في نقد كتابته: على لسان عبد الحميد الكاتب[1]

لا يغرنّك منه ما تكلّف من المماثلة، إنّ السجع لطبعه، وإنّ ما أسمَعَ لك كُلفَة، ولو امتدّ به طلق الكلام، وجرت أفراسه في ميدان البيان: لصلّى كَودنه، وكَلّ بُرثُنُه، وما أراه من اللَّكَن الذي ذكره، وإلّا فما للفصاحة لا تهدِر، وللأعرابية لا تومض؟ فقلت في نفسي: طبع عبد الحميد ومساقه وربِّ الكعبة، فقلت له: لقد عجلت أبا هبيرة، إنّ قوسك لنبع، وإن ماء سهمك لسمّ، أحمارًا رميت أم إنسانًا، وقعقعة طلبت أم بيانًا؟ وأبيك إن البيان لصعب، وإنّك منه لفي عباءةٍ تتكشف عنها أستاه معانيك، تكشّفَ است العنز عن ذَنَبها. الزمان دِفءٌ لا قرّ، والكلام عراقي لا شامي. إنّي لأرى من دم اليربوع بكفّيك، وألمح من كشى الضبِّ على ماضِغَيْك. فتبسّم إليّ وقال: أهكذا أنت يا أطيلس، تركب

(1) الذخيرة لابن بسّام، ص210.

لكلٍّ نهجَه، وتعِجُّ إليه عَجَّه؟ فقلت: الذئب أطلس، وإنّ التيس ما علمت، فصاح به الجاحظ: لا تعرض له، وبالحرى أن نخلص منه، فقلت: الحمد لله خالق الأنام في بطون الأنعام! فقال: إنها كافيةٌ لو كان له حِجْرٌ.

فصل على لساني: الجاحظ وعبد الحميد [1]

قالا: إنّ لسجعِك موضعًا من القلب، ومكانًا من النفس، وقد أعرتَه من طبعك، وحلاوة لفظك، وملاحة سَوْقِك، ما أزال أفَنَه، ورفع غَيْنه، وقد بلغَنا أنّك لا تجازى في أبناء جنسِك، ولا يُمَلّ من الطعن عليك، والاعتراض لك.

يصف أدبه: على لساني الجاحظ وعبد الحميد [2]

قال لي الأستاذان: إنا لنخبط منك بيداء حَيْرة، ونفتق أسماعنا منك بعِبْرَة، وما ندري أنقول: شاعر أم خطيب؟ فقلت: الإنصاف أولى، والصدع بالحق أحجى، ولا بُدّ من قضاء، فقالا: اذهب فإنك شاعر خطيب. وانفضّ الجمع والأبصار إليّ ناظرة، والأعناق نحوي مائلة.

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص212.
(2) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص217.

فصل[1]

أما علمتَ أنّ الواصف إذا وصف شيئًا لم يتقدّم إلى صفته، ولا سُلّط الكلام على نعتِه، اكتفى بقليل الإحسان، واجتزى بيسير البيان؟ لأنّه لم يتقدّم وصف يُقرَن بوصفه، ولا جرى مساق يضاف إلى مساقه.

قال أبو عامر[2]:

تذاكرنا ما تعاوَرَته الشعراء من المعاني، ومن زاد فأحسَن الأخذ، ومن قصّر، فأنشد قول الأفوَه بعض من حضر: (من الرَّمَل)

وَتَـرَى الطَّيْـرَ علـى آثَارِنَـا ... رَأْيَ عَـيْنٍ ثِقَـةً أَنْ سَتُمَـارْ

وأنشد آخر قولَ النابغة: (من الطويل)

إذا ما غَزَوا بالجيشِ حَلَّقَ فَوْقَهُـم ... عَصَائِبُ طَيْرٍ تهتدي بِعَصَائِـبِ

تَرَاهُنَّ خَلْفَ الْقَومِ خُزْرًا عُيونُها ... جُلُوسَ الشِّيُوخِ في ثِيَابِ المَرَانِبِ

جَـوَانِحَ قَـد أَيْقَـنَّ أَنَّ قَبِيْلَـهُ ... إذا ما التقى الجَيْشَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

وأنشد آخر قولَ أبي نُواس: (من البسيط) (يراجَع لصريع الغواني)

قد عَوَّدَ الطَّيْرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بِهـا ... فَهُـنَّ يَتْبَعْنَـهُ في كُـلِّ مُرْتَحَـلِ

وأنشد آخر قولَ أبي تمام: (من الطويل)

وقد ظَلَّلَتْ عُقْبَانُ أعلامِهِ ضُحًى ... بِعُقْبَـانِ طَيْـرٍ في الـدِّمَاءِ نَوَاهِـلِ

---

(1) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص215.

(2) الـذخيرة لابـن بسّـام، ص220–225، ج1، وورد الـنص مختصـرًا في مختـارات ابـن الصيرفي، ص56.

أَقَـامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حتى كَأَنَّهَـا مِـنَ الجيشِ إلّا أَنَّهَـا لَـمْ تُقَاتِـلِ

فكلهم قصّر عن النابغة، لأنّه زاد في المعنى، ودلّ على أنّ الطير إنّما أكلت أعداء الممدوح، وكلامهم كلّهم مشترك يحتمل أن يكون ضِدّ ما نـواه الشـاعر، وإن كـان أبـو تمـام قـد زاد في المعنـى، وإنمـا المحسـن المتخلّص المتنبي حيث يقول:

لَـهُ عَسْـكَرًا خَيْـلٍ وطيـرٍ إذا رَمَـى بها عَسْكَرًا لَـمْ تَبْقَ إلّا جَمَاجِمُـهْ

ولكن في قول المتنبي: ما تسأل الطير إذا شبعت أي القبيلين الغالب، وأمّا الطير الآخر فلا أدري لأي معنى عافت الطير الجماجم دون عظام السّوقِ والأذرع والفقارات والعصاعص؟ ولكنّ الذي خلص هذا المعنى كلَّه، وزاد فيه، وأحسن التركيب، ودلّ بلفظة واحدة على ما دلّ عليه شعر النابغة وبيت المتنبي، من أنّ القتلى التي أكلتها الطيرُ أعداءُ الممدوح.

واستحسن من ذلك قوله: (من الطويل)

وَتَـدْرِيْ سِـبَاعُ الطيـرِ أَنَّ كُمَاتَـهُ إذا لَقِيَـتْ صِـيْدَ الْكُمَـاةِ سِبَـاعُ
لَهُـنَّ لُعَـابٌ في الهَـوَاءِ وَهَـزَّةٌ إذا جَـدَّ بـين الـدارِعِيْنَ قِـرَاعُ
تَطِيْـرُ جِيَاعًـا فَوْقَـهُ وَتَرُدُّهَـا ظُبَـاهُ إلـى الْأَوْكَـارِ وهـي شِـبَاعُ
تَمَلَّـكَ بالإحْسَـانِ رِبقَـةَ رِقِّهَـا فهـنَّ رقيـقٌ يُشْـتَرَى وَيُبَـاعُ
وَأَلْحَمَ مِـنْ أَفْرَاخِهـا فهي طَوْعُـهُ لدى كُلِّ حَربٍ والمُلُـوكُ تُطَاعُ
تُـمَـاصِعُ جَرْحاهـا فَيُجْهِـزُ نَقْرُهَـا عليـهِمْ وللطيـرِ العِتَـاقِ مِصَـاعُ

قال في معنى قول الكندي: (من الطويل)

سَـمَوتُ إليهـا بعـد مـا نـامَ أَهْلُهَـا سُمُوَّ حَبَابِ الماءِ حالًا على حَالِ

قلت: هو من العقم، ألا ترى عمر بن أبي ربيعة، وهو من أطبع الناس، حين رام الدنوّ منه والإلمام به، كيف افتضح في قوله: (من الطويل)

وَنَفَّضْتُ عَنِّي النومَ أقبلتُ مِشْيةَ الـ ـحُبابِ ورُكْنِي خِيْفَةَ القَوْمِ أَزْوَرُ

إنّه أساء قسمة البيت، وأراد أن يلطف التوصّل، فجاء مقبلًا بركنٍ كـرُكنِه أزور، فأعجبني ذلك منه، وما زلتُ مُقدّمًا لهذا المعنى رِجلًا، ومؤخّرًا عنه أُخرى.

وفي صناعة الشعر يقول أبو عامر:

فإذا اعتمدت معنىً قد سبقك إليه غيرُك فأحسنَ تراكيبه وأرقَّ حاشيته، فاضرب عنه جملة، وإن لم يكن بُدًّا ففي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسِن، لتنشطَ طبيعتُك، وتقوى مُنّتُك[1].

وقول الشاعر: «والشعر لإسماعيل بن يسار» (من السريع)

لَمَّـا تنـامَى النجـمُ في أُفْقِـهِ ولاحَـتِ الجَـوزَاءُ والمِـرْزَمُ

أَقْبَلـتُ وَالـوَطْءُ خَفِيْـفٌ كَمَـا ينسـابُ مِـنْ مَكْمَنِـهِ الْأَرْقَـمُ

وابن أبي ربيعة لو ركِب غيرَ عروضِه لخلص، وقال أبوعامر: قلت أنا في ذلك: (من المتقارب)

وَلَمَّـا تَمَـلَّأَ مِـنْ سُـكرِهِ فنـام ونامَـتْ عُيُـونُ العَسَـسْ

دَنَـوتُ إليـه علـى بُعْـدِهِ دُنُـوَّ رَفِيْـقٍ درى مـا التَمَـسْ

(1) يُنظَر مختار ابن الصيرفي من شعراء الأندلس، ص59.

أَدُبُّ إليـــه دَبيـــبَ الكَـــرَى وأسمـــو إليـــه سُمُـــوَّ النَّفَـــسْ
وَبِـــتُّ بـــه ليلـــتي نـــاعِمًا إلـــى أن تَبَسَّـــمَ ثَـــغْرُ الْغَلَـــسْ
أُقَبِّـــلُ منـــه بَيَـــاضَ الطـــلا وَأَرْشِـــفُ منـــه ســـوادَ اللَّعَـــسْ

وفي كلام المتنبي حيث يقول: (من الطويل)

نزلنا عَـنِ الأكـوارِ نمشي كَرَامَةً لِمَـنْ بـان عنـه أَنْ نُلِـمَّ بـه رَكْبَـا
نـذمُّ السـحابَ الغُـرَّ في فِعْلِهَـا بـه ونعرضُ عنها كلّما طلعَتْ عُتْبَا

كلام يرعى تلاع الفصاحة، ويستحمُّ بماء العذوبة والبراعة، شديد الأسر، جيّد النظام.

الكتاب الرابع

الوصف والتشبيهات مع مقتطفات أدبية

تقديم

إنّ ما ورد من نثر لابن شُهَيد يشمل مجالات مختلفة، منها: رسائل ابن شُهَيد المختلفة التي وردت في «الذخيرة» لابن بسّام، ورسالة «التوابع والزوابع» النقدية، إضافة إلى ما تناثر في الكتب من ذكر لكثير من القطع الأدبية في أوصاف شتّى. وقد اعتمدنا على مصادرها مع آراء بعض من حفظوا هذه المقطوعات على أنّها من كتاب «حانوت عطّار»، وخاصة ما ذكره الأصفهاني في كتابه «خريدة القصر وجريدة العصر»، أضفنا إليها قطعا أدبية ذكرها ابن بسّام (بكلمة فصل) دون أن يوضح مصدرها الذي نقل منه، ومنها بعض الرسائل التي رأينا أنها تناسب الكتاب في تصورنا ورسْمِنا للصورة التي نراها للكتاب.

ولم نشأ أن نعطيَ انطباعًا أو رؤية حول نثر ابن شُهَيد، فقد تكلم عليه الكثيرون، ولكن نذكر ما قاله الدكتور زكي مبارك في كتابه «النثر الفنّيّ في القرن الرابع»، وهو مُقَدَّم في 25 إبريل 1935م، وتعرّض فيه كثيرًا بصفحات مطولة في بحثه وعناوين مختلفة، منها في النقد عند ابن شُهَيد، أو عند بحثه في رسالة «التوابع والزوابع»، وهنا سنقتطف رأيه في نثر ابن شُهَيد:

يرى الدكتور زكي في نثر ابن شُهَيد: أنّه (جعجعة وقعقعة)[1]، فقد استشهد

(1) النثر الفني في القرن الرابع، د.زكي مبارك، كتاب النقد الأدبي عند ابن شُهَيد، ص58.

بجملة عن أبي العلاء المعري عندما سُئِل عن شعر ابن هانئ الأندلسي قال: (رحى تطحن قرونًا)، وقال زكي: أخشى أن يكون الأمر كذلك في نثر ابن شُهَيد، فهو في الأكثر جعجعة وقعقعة وقلقلة في غير نفع ولا غَناء، ويقول: ويسوؤنا والله أن يكون ذلك ما نراه في نثر ذلك الرجل الذي نعتقد فيه دقة الفهم، ورقّة الطبع، وسلامة الذوق، ولكن ما الحيلة! وقد قلّبنا نثره على وجوهه، وراجعنا ما بقي أكثر من عشرين مرة، فلم يزدنا إلّا اقتناعًا بأنه كان في إنشائه من المتكلّفين [1].

ثُمّ يقول: مع ما في نثر ابن شُهَيد من القلق والغموض والاضطراب فإنّه يغري القارئ بالبحث عمّا فيه من نتاج الفكر والذكاء، وهو يشبه بعض التّلال التي يوقن المتطلع بأنّ فيها كنوزًا، فلا يزال يُقَلِّب أكداس الخزف والتراب حتى يصل إلى بعض ما يَنشُد من الذهب الدفين. وإنّ ابن شُهَيد أسير القلق والغموض.

وإن رسائل ابن شُهَيد في جملتها تدل على غنى في اللغة وبراعة في الصنعة، ولكنّها خالية من الروح [2].

أمّا في رسالة الحلوى فيرى أنه عارض بديع الزمان في المقامة البغدادية. وغيره آخرون لهم الرأي ذاته [3].

ويصف نثر ابن شُهَيد بقوله: وبعد، فإنّ نثر ابن شُهَيد – على ما فيه من مآخذ وعيوب – دليل على أنّ الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول، وليس يعيبه

(1) النثر الفني في القرن الرابع، ص378.
(2) النثر الفني لزكي مبارك، ص382.
(3) نفس المصدر، ص383.

أن نراه أقلّ من شهرته، فإنّا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصريه أشدّ الاختلاف، وكان للرجل في حياته نجاح مرموق، فقد وصل نثره وشعره إلى الشرق على عسر الوصول، وتداوله المؤلفون وكان لا يزال من الأحياء، وفي هذا برهان على أنّ الرجل مَدَّ عصرَه بروحه، واستولى بقوّة على عرش البيان[1].

وإنّ رسائله في صناعة النقد والبيان تدلّ على أنّه كان من أصفى الناس ديباجة، وأسدّهم رأيًا، وأصدقهم فراسة، إذا مضى يشرح مزالق الأفكار، ومزلّات العقول[2].

فصول من نثر أبي عامر في الوصف والتشبيهات

مَن كتم الحق بعد ما ظهر، وستر البرهان بعد ما بهر، يجحد المسكَ طيبَه بعد شمِّه، ويدّعي ظلمة البدر بعد ليلة تَمِّه. [3]

في وصف جبان[4]:

يزحف يوم الزّحف إلى خلف، ويروعه الواحد وهو في ألف، أزهد في الحرب من بني العنبر، وأدهش من مستطعم الماء على المنبر.

بنو العنبر أشار إلى قول بعضهم[5]: (من البسيط)

لكنَّ قومي وإنْ كانوا ذَوِي عَدَدٍ ليسوا من الشَّرِّ في شيء وَإِنْ هَانا

(1) نفس المصدر، ص386.

(2) نفس المصدر، ص387.

(3) خريدة القصر وجريدة العصر، الأصفهاني، ج 20، ص635.

(4) نفس المصدر والصفحة.

(5) خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، ج3، ص 556.

ومُستطعِم الماء على المنبر خالد بن عبد الله القسري وخبره مشهور.

في سلطان مضيع[1]:

إن كان من يعجبه اللهو، ويغلبه السهو، فهو.

في أوصاف أهل الإنصاف[2]:

إخوان استوت بواطنهم وظواهرهم، وصفت علانيتهم وسرائرهم، كلّهم السّمَوءل -إلّا دينَه- وفاءً، وحاتم -إلّا جاهليتَه- سخاءً، وزياد -إلّا سُمِيَّتَهُ- دهاءً، وإياس -إلّا عُجْبَه- ذكاءً.

وفي ضد ذلك[3]:

إخوان أخوَن من السراب اللعين، ومن أهل الكوفة للحسين، يبادرون الهفوَة بالإشاعة، ويسبقون الزّلة بالإذاعة.

وفي المواساة[4]:

المقِلُّ يرثي للمقلّ لعلمه مرارة الفاقة، وضَعف الطاقة، حتى إنّه ليَشدُّ من أزره بالنَّزر من برِّه، «وللمساكين أيضًا بالندى ولَعٌ».

في الشفاعة[5]:

جعلني سبيلًا من جعلك مقصدًا، ورآني رائدًا من رآك موردًا.

---

(1) نفسه، ص636.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) خريدة القصر، نفس المصدر، ص637.

(4) نفس المصدر والصفحة.

(5) نفس المصدر والصفحة.

وفي المَطل[1]:

المطل عدو النّفس، والإنجاز حبيبُها، والتسويف مرضُها، والتعجيل طبيبُها.

وفي ذمّ رجل[2]:

فيه عن الشكر سُكر، وعن الحمد جمد، وعن الحسن وسَن، وعن الإعطاء إبطاء، وأنا أرغب إلى الله في وجهين: أحدُهما لقاؤك بلا وجهين، والآخر أن أرى علق النفاق في سوقك قليل النَّفاق.

في وصفِ فتى[3]:

فبعمرٍو والقمَرِ الطالعِ، بالرقعةِ المفكوكة الطابع، إلّا ما أريتَنا وجهَك! فانفلق ماء العين عن وجهِ فتًى كفلقة القمر.

في وصف مدينة البساط[4]:

هي كثيرة الأعناب، وخمرها مشهورة.

في صفة الشعراء[5]:

جرير كلب منابحة، وكبش مناطحة، جارى السوابق بمطيّة، وفاخر غالبًا بعطيَّة.

أبو نواس حزم القياس، وترك السيرة الأولى، ونكّب عن الطريقة المثلى،

---

(1) نفس المصدر والصفحة.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) الذخيرة لابن بسّام، مج1، ص198.

(4) المُغرِب في حُلى المَغرِب، ج2، ص154.

(5) خريدة الأصفهاني، ج20، ص637- 638.

وجعل الجدَّ هزلًا، والصعبَ سهلا، وصادف الأفهامَ قد نكلت وكلّت، وأسبابَ العربية قد نحلت وانحلّت، والفصاحات الصحيحة قد سُئِمت ومُلّت، فمال الناس إلى ما عرفوه، وعلقت نفوسهم بما ألفوه، فتهادَوا شعرَه، وأغلَوا سعرَه، وشُغِفُوا بأسخفِه، وفُتِنُوا بأضعفِه، وقد فطن باستضعافِه، وخاف من استخفافِه، فاستطرد بفصيح طرَد.

في تحريك البخلاء من الكبراء[1]:

وأصعب من هذا تحريك البخلاء من الكبراء إلى البذل، لأنهم بعادتهم لا تمكن نقلتهم لعزتهم، ولما اشتملت عليه ثياب مجدهم، فلا ينجع تقويضهم، فها هنا يُحتاج إلى أثقب ما يكون من الذهن، وأوسع ما يكون من الحيلة، إلّا أن هذه العصابة لا يتمكن لذي التفاهة تحريكها، ولا بدّ لها من طبقة يكون لها في العين بعض التصويب والتصعيد، ولهذا صار سبّ الأشراف عسيرًا عويصًا، فإنّك تجدهم يتدحرج عنهم قبيح المقال، ولا يضعضِعُهم خبيث الكلام، لقوة بنيانهم، وثبات أركانهم، فهدم بنيان هؤلاء صعب، ولذلك فخرت العرب بمن لا يمكن له ذلك من أهل الكلام، ولذلك نوّهوا بمن يحسِن سبّ الأشراف، واستحسنوا من ذلك قول ابن صفوان في شبيب: (ليس له صديق في السر، ولا عدوّ في العلانية).

في وصف إشكمياط[2]:

كتب إلى أبي بكر المعروف بإشكمياط، عندما قال عن كتابته: فقر حسان

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص186-187.

(2) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص 183.

إلّا أنه عثر عليها، فكتب:

ما أغيرك أبا بكر على نظم ونثر لو إليك كان العلم، أو بكفك كان الفهم، لم تترك لأرض أعلامًا، ولا لغيرك إنعامًا، أحشًّا عند رِعدتك؟! عرضت عليك الدر منظومًا، فقلت: نِعْمَ ما صنعت لو اخترعت، وما أحسن ما صنعت لو اخترعت، وما أحسن ما أطلعت لو ابتدعت، معرضًا بالتقصّص، ومشيرًا إلى التلصّص، هيهات! لا يزيد الحزّ من الغَرَب، ولا يضيء السليط في القصَب، لأقطعنّ حبالك هاجرًا، ولأتركنَ ليلك ساهرًا.

في مجادلة نفسه[1]:

وهذا أخفّ حمل وأيسر، فأدركَني ما يدرك مَن طاب غرسه، وكرمت عليه نفسه، وأزمعت على المقاطعة، فقلت: الصبر أولى، والإنصاف أحجى، لا بد أن تُوَفَّى الرجالُ مقاديرَها في أزمانها، ويستحال لها عند استحالة أعيانها، وتَخشع من أوهدَ لمَن أصعدَ سدادٌ، وتَليُّنُ من أتْهَمَ لمَن أنجد رشاد، فتقلقلت واضطربتْ، وتجمعت لي وانقبضت، ثم جاشت كما يجيش البحر، له همهمة وزخر، فقالت: ثكلتك المكارم يا بن الأكارم، ألستَ من أشجعَ في العلا؟ ومن شُهَيد في الذرى! وللخالق في صدرك حكمة، وللرازق في حجرك نعمة؟ تقول بهذه فتسمع، وتغنى بتلك فلا تخضع، وساويت امرأً لم تحتج إليه، ووازنته ما لم تطمع فيما لديه! لا أسرّ إنّما أعلن: قيمة كل امرئ ما يحسن، قلت لها: فأين اليأس؟ قالت: هو في القلب والرأس، لئن أصابه غيرك فارسًا، إنّك لَغير بعيد

(1) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص182.

منه راجلًا، فقلتُ: لقد أدركتك عجرفيّة، واستولت عليك أعرابيّة، لا بدّ من قصدي أبا الجيش، قالت: ليهنِك العيش في أبرد من ظل الخيش، وقصدتُك من جهتي، فلم أشكَّ ولم أعرف ولم أنكر، وانصرفت بين الحالتين، لا قربٌ ولا شَحْطٌ، ولا رضًا ولا سُخْطٌ.

في وصف ثعلب[1]:

أدهى من عمرو، وأفتك من قاتل حُذيفة بن بدر، كثير الوقائع في المسلمين، مغرىً بإقامة ذمّ المؤمنين، إذا رأى فرصة انتهزها، وإن طلبته الكماة أعجزها. وهو مع ذلك بقراط في إدامه، وجالينوس في اعتدال طعامه، غذاؤه حمام ودُرّاج، وعشاؤه بذرح ودجاج.

في وصف ماء[2]:

أزرق كعين السّنّور، صاف كقضيب البلّور، انتُخِب من الفرات، واستُعمِل بعد البيات، فجاء كلسان الشمعة، في صفاء الدمعة، كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر لياح، له من إنائه انصباب الكوكب الدّرّي من سمائه، العين حانوته، والقمر عفريته، كأنّه خيط من غزل قلق، أو مخصرةٌ من ورق، يترفع عنك فتردى، ويصدع به قلبك فتحيا.

في صفة بَعوضة[3]:

مالكة لا حسَّ لها سواها، تحقرها عين من رآها، تمشي إلى الملك بندبها،

(1) اليتيمة للثعالبي، ج2، ص54.
(2) نفس المصدر والصفحة. ويُنظَر: الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص215.
(3) اليتيمة للثعالبي، ج1، ص54.

وتضرب بحبوحة داره بطلبها، تؤذيه بإقبالها، وتعرفه بإراقة مالها، فتُعجز كفَّه، وتُرغِم أنفه، وتُضرّج خدَّه، وتفري لحمه وجلدَه، زجرتُها تسليمها، ورمحُها خرطومُها، تذلّل صعبك إن كنتَ ذا قوة وعزم، وتسفك دمَكَ وإن كنتَ ذا حلف وعسكر ضخم، تنقض العزائم وهي منقوضة، وتُعجِز القوى وهي بعوضة، ليرِيَنا الله عجائب قدرته، وضعفَنا عن أضعف خليقتِه.

في صفة برغوث[1]:

أسود زنجيّ، وأهليّ وحشيّ، ليس بِوانٍ ولا زُمَيْل، وكأنه جزء لا يتجزأ من ليل، أو شونيزة، أو بنتها عزيزة، أو نقطة مداد، أو سويداء قلب فؤاد، شربُه عبٌّ، ومشيُه وثبٌ، يكمن نهارَه ويسير ليلَه، يدرك بطعنٍ مؤلم، ويستحلّ دمَ كلّ كافر ومسلم، مساور للأساورة، ومجرد له على الجبابرة، يتكفّن بأرفع الثياب، ويهتك كلّ حجاب، ولا يحفل ببوّاب، يَرِدُ مناهل العيش العذبة، ويصل إلى الأحراج الرطبة، لا يُمنَع منه أمير، ولا ينفع فيه غيرة غيور، وهو أحقر حقير، شرِه مبثوث، وعهده منكوث، وكذلك كلّ برغوث، كفى بهذا نقصانًا للإنسان، ودلالة على قدرة الرحمن.

وقال في وصف البرغوثِ شعرًا[2]: (من الكامل)

ومُنَفِّرٌ للنومِ مَسْكَنُهُ إذا نامَ	المُمَلَّكُ بينَ أثناءِ الثيابْ
يسري إلى الأجسامِ يَهْتِكُ عَدْوَهُ	عن كُلِّ جسمٍ صِيغَ بالنُّعمى حِجابْ
ويَعَضُّ أطرافَ الحِسانِ وما لَهُ	كَفٌّ ولكنْ فُوهُ من أعدى حِرابْ

(1) نفس المصدر، اليتيمة، ص52.

(2) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص175.

مُـتَحكّمٌ في كـلِّ جسـمٍ نـاعِمٍ ... مُتـدَلِّلٌ مـا بـين ألحـاظِ الكـعابْ
فـإذا هَمَمْـتَ بزجـرِهِ ولَّـى ... ولا يَثنيهِ عمَّا قد تَعـوَّدَهُ طِـلابْ
وتَـرى مواضِـعَ عَضِّـهِ مخضـوبةً ... بِدَمِ القلوبِ وما تَعاورَهُ خِضـابْ
قَـرْمٌ مـن الليـل البهـيمِ مُكَـوَّرٌ ... يمشـي البـرازَ ومـا تُواريـهِ ثِيـابْ
عَظُمـتْ رَزِيَّتُـهُ ولكـنْ قَـدْرُهُ ... أخزى وأهْوَنَ من ذُبـابٍ في تُـرابْ

وقال في وصف النحلة [1]: (من الطويل)

وطـائِرَةٍ تَهْـوِي كـأنَّ جَناحَـها ... ضَـميرٌ خَفِـيٌّ لا يُحَـدّدهُ وَهْـمُ
ملازمـةٍ للـروضِ حتّـى كأنّـما ... لها كُـلُّ ما تَفتَرُّ عنهُ الرُّبى طُعْمُ
تَمُجُّ بفيها الشُّهْدَ صِـرْفًا ويختفي ... لِمُشْـتارِهِ مـا بـينَ أحشـائِها سَـهْمُ
مُنافِـرَةٍ للأنـسِ تأنَـسُ بالـفَلا ... مُفَرِّقةٍ للشُّهدِ، من بعضـها السُّـمُّ
فإدناؤهـا رُشـدٌ وهَتـكُ حِجابِـها ... إذا احتَجَبَـتْ في غيرِ أيامِهـا ظُلـمُ

في وصف البرد والحَمَّام [2]:

لما تلقّى اليـوم البـرد شـاكرك بنـوع، ومشـى إليـه بـروع، وكـان بـالأمس بـردًا أجحف، فابتنى من سحابة أوطف، قصـد بيـت النـار، ومـورد الأبـرار والفُجّـار، فلما رأى الناس أخلاطًا تـذكر جهـنّم، ولفحَهـا المتضـرّم، وقولـه تعـالى: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا**﴾ [مريم: 71]، واستعاذ بالله من لهبها، وسـأله أن لا يكـون مـن حطبها، وإذا بأهلها يتساقون أكواب الحرّ، ويتعاورون أثواب القرّ، فلمـا أخـذت منهم حُمَيّاه، تهلّلت الشفاه، وانطلقـت الأفـواه، فأخـذوا مـن تجـادلهم، وأكثـروا

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص175.
(2) نفس المصدر، يتيمة الثعالبي، ص52.

من عوائدهم، وكُشِفَت الأبشار، وهُتِكَت الأستار، وجعلوا يتجادلون دلكًا، ويتضاربون حكًّا، حتى إذا خرجوا بجماهرهم، وانحرفوا بحذافرهم، صبّ على جسمه من عريض، وامتدّ على وضّاح ذي وميض، قاربه الحرّ حتى احتواه، وباعده القرّ حتى اشتهاه، فحينئذ أخذ في طهره، وقضى من أمره، وقد لطف حسُّه، وتراجعت إليه نفسُه، فذكر ما خاطبك به أمس في المعنى الذي كلفتَه، على الاختيار الذي قصدتَه، فإذا بذلك الكلام لا يدلّ على سواه، ولا يقتضي لغير معناه، فأثبتت فقرًا مخترعة أرهفت جوانبها، فسالت غرائبها، وهي حلّة المشكور، فإن كان ذلك من كريم كان ذلك طرازًا على كمِّها، ورقمًا على حاشيتها، فإن زاد أن يكون عن كريم فإن ذلك تميمة لوَشْيِها، وذهب يرفّ على أرضِها، فالشكر حَلوبة مسخَّرة للشَّكور، دربها أمل، وملحها عسل، فإن كانت من كريم كان روضها وردًا، وحوضها شهدًا، وإن زاد أن يكون عن كريم كانت ناقة صالح، صرُّها ثواب، وحفظُها عقاب، والشكر طائر يتغنّى باسم المشكور، فإن كان عن كريمٍ كان شخصه محبوبًا، ورجعه تطريبًا، وإن زاد أن يكون عن كريم كان حمامةَ نوح يغرّد بنغم، ويقع ببشرى، والشكر درع حصينة يلبسها المشكور، فإن كان من كريم كان ظلّها بَرَدا، ونفحها ندى، وإن زاد أن يكون عن كريم كان ثمرها عجوة، وجناها شهوة، والشكر وادٍ يسقي أرض المشكور، فإن كان من كريم استحال أتِيًّا، وإن زاد أن يكون عن كريم عمر عمّر العجاج، وأترع الأضواج، والشكر يهبّ على المشكور، فإن كان من كريم كان نشره فوحًا، ونفحه روحًا، وإن زاد أن يكون عن كريم صاك منه عنبر، وتنفس منه مسكٌ أذفر.

وقال في وصف حَمَّام شعرًا: (من المنسرح)

أَنْعِـــمْ أبـــا عـــامِرٍ بِلَذَّتِـــهِ ... وَاعْجَبْ لأمرينِ فيه قد جُمِعَا

نِيْرَانُـــهُ مِـــنْ زِنَـــادِكُمُ قَـــدَحَتْ ... ومـــاؤهُ مـــن بَنَـــانِكُم نَبَعَـــا[1]

وقال في وصف السيف والرمح [2]: (من الطويل)

وَمِنْ تحتِ حضْنِي أَبْيَضٌ ذو شَقَائِقٍ ... الكـفِّ مـن عَسَّـالَةِ الخـطِّ أَسْـمَرُ

هما صاحبايَ من لَدُنْ كنتُ يافِعًا ... مُقِيْلانِ من جَدِّ الفتى حينَ يَعْثَرُ

وقال في وصف فرس [3]: (من أحذّ الكامل)

وكـــأنّني لمّـــا انْحَطَطْـــتُ بـــهِ ... أَرْمِـــي الفـــلاةَ بكوكـــبٍ طَلْـــقِ

وكـــأنّني لمـــا طلبـــتُ بـــهِ ... وَحـشَ الفـلاةِ علـى مَطَـا بَـرْقِ

في وصف الحلوى[4]:

وما أرّقني إلّا ليلة أُضْحِيانة دخلت فيها الجامع، ووقفت موقف الساجد الراكع، حتى إذا قضيت من حق الله أمرًا، وأتبعت الشفع وترًا، جلت في أكنافه، وانعطفت في أعطافه، فإذا أرضه تباهي السماء، وغبراؤه تضاهي الخضراء، زجاجة نوريّة، كأنّها الكواكب الدريّة، ورعد قراء لله تعالى وخيرته، كالرعد يسبح بحمده والملائكة من خيفته، فصحت: واويلاه! واحرّ قلباه! أين منك المفرّ؟ وأين دونك المقرّ؟! لاها الله لا يتركك كريم، ولا يقلاك إلّا لئيم، بركًا

(1) خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء المغرب والأندلس، ج3، 1986م.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) اليتيمة، ج2، ص55.

كبرك الجمال، وثباتًا كثبات الجبال.

ثم خرجت في تتمّة من الأصحاب، وثُبةٍ من الأتراب، وفيهم فقيه كان ذا لقم ولم أشعر به، فلمّا طالعتنا الحلوى صاح: هذا وأبيكم الروض، فناديته: اسكت فضحتَنا لا أبالك، فقال: لا وأبيك، قلت: ما لك وما تريد؟ قال ذلك الشُهَيد العتيد، واضطرب به الألم واستخفه الشرّه فدار في ثيابه، وأسال من لعابه، وازور جانبُه، وخفق شاربُه، ثم نهض في كرّ، وصدرَ بحرّ، ونظر إلى الفالوذج، فصاح: هذا اللصّ كأنه تألّى مجاجة الزنابير، حدثت عن شوابير، وخالطها لباب الحبّة، فجاءت أطيب من ريق الأحبّة.

ثم نظر إلى الخبيص، فصاح: بأبي الغالي الرخيص، انظر فيه ذا التماع، أكرم به من شعاع، هذا حليب سماء الرحمة، تمخضت به فأبرزت منه زَبَد النعمة، تجرحه اللحظة، وتدميه اللفظة، بماء أبيض، قالوا: بماء البيض الأبيض، فقال: غضّ من غضّ، انظروه له إشراق، هذا وأبيكم بقيّة العشّاق، ما أطيب خلوة الحبيب لولا حضرة الرقيب.

ثم نظر إلى الزلابية فصاح: ويل لأمّها الزانية، أبأحشاءٍ نُسِجَت؟ أم صفاق قلبي أُلِّفَتْ؟ بأبي أجد مكانك بنفسي مكينًا، وحبل هواك على كبدي متينًا، من أين خلّصك كفّ طابخك إلى باطني فأقطعك منّي دواجني؟ والعزيز الغفّار لأطلبنّ بالثأر. يركل برجليه، ويجاحش بفخذيه، ممانعًا ومدافعًا الميزان، فجعل يصيح: الثعبان الثعبان، فلما عاينته ألبس، وهو ينظر نظر المفلس، حنت له ضلوعي، وعلمت أن الله فيه غير مضيعي، وقد تحلّ الصدقة على ذي الوفر، وفي كل كبدة رطبة أجر، فأمرت الغلام بابتياع أرطال تجمع أنواعها التي أنطقته،

وتحتوي على ضروبها التي أخرعته، فجاء بها فوضعها بين يديه، فلما عاينها انحنى عليها بلبانه، وألقى عليها بجرانه، وجعل يركل برجليه، ويجاحش بفخذيه، ممانعًا ومدافعًا عنها، فصحت به: لا عليك حكمها، فجعل يقطع ويبلع، ويوجر فاه ويدفع، وعيناه تبضان، كأنهما جمرتان، وقد برزتا عن وجهه كأنّهما خصيتان، وأنا أقول: على رسلك يا فلان، البطنة تذهب الفطنة، وهو يقول: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا﴾ [الرعد: 35] حتى التهم جماهرها، وألحق أولها بآخرها، وهبّت منه ريح عقيم، أُهْبًا لنا بالعذاب الأليم، وفرّقتنا شذر مدر، وسرّبتنا في شعب شغر بغر، فانتحينا منه الطوفان، وصدق الخبر فيه العيان، نفخ ذلك فبدد النعام، ونفح هذا فبدّد الأنام، فلم نجتمع بعد هذا والسلام.

في وصف جارية[1]:

أخت نعمة وربيبة نعمة، كأنّ شعرها على غرّتها الغرّاء غراب يسفد حمامة بيضاء، وكأنّ خدّها على جبينها المُشرق تفاحة قدم بها إبريق من راووق، تكلّمك بألحاظها، وتأسرك بألفاظها، تقابلك من خدّها بوردة، ومن عينها بنرجسة، كأن ثغرها من جوهر، وشفتها خيط حرير أحمر، وتقبِل إليك بقضيب بان، ثمرته رمّانتان، وتنفتل عليك بكفل مائج، كأنه كثيب عالج، تنطوي بقبطية، وتقوم على أنبوب برديّة، إن استقبلتها بركان، تضحك لك عن فلقة رمّان، أو بطحتك جبهة أسد غرير، فيقبض روحك قبض أرواح المؤمنين، ويتوفّاك بكدّ كالفقيه المشرف على المذاهب، ركبت فيه أخلاق كاتب، فإن كنتَ شافعيًّا

(1) اليتيمة، ج2، ص56.

سدّدتك، وإن كنت مالكيًّا قلّدتك، المنظر غلام، والمخبَر فتاة، إن علوتَها تدفعت إليك، أو علتك تداركت عليك، وإن أعطشَك فراشها سقتك من شراب، إن شئت قلت خمرة أو رضاب، أو أجاعك عراكها أطعمتك من لسانها، يصل إليك وصول الإيمان.

في وصف البرد والنار والحطب[1]:

أطال الله بقاء مولاي الّذي أَهْتَدي بمصباحه، وأعشو إلى غُرَرِه وأوضاحه. صبّحَتنا اليوم خيل البرد مغيرة، فانقبضت إلى أخريات الإيوان، وقد كدّسني بصارم وسنان، فجعلت مِجَنِّي حطبًا دلّ على نفسه، وتشظَّى من يبَسه، فسلّطت عليه صاحب الشّرر، ورميتُه منها ببنات الحديد والحجر، فواقعَهُ قليلًا وعاركَهُ طويلًا، فكان لها عجيج، وله من حرّها ضجيج، ثم خلا سريعًا، واستولت عليه صعبًا منيعًا. فبدَّدَت شمله وألفت شملها، واستحالت حيّة لا يُستَلَذُّ قتلها، ترمي بألوان وتتهدّد بلسان، فلذعت البرد لذعة، ونكزته على فؤاده نكزة، خرّ لها على جبينه، ومات بها من حينه، وغشيَنا من فائض جمّها حرٌّ كان لنا حياة، ولذلك وفاة. فالحمد لله على نعمته، وما أرانا من غريب قدرته، ودلّنا به من لطيف صنعته. ولما استحال جمرها رمادا، وقد مهد لنا من الدفء مهادا، ولمحته العين كالورد، وذرّ عليه كافور الهند، انبسطت كفّ شاكرك، فتذكر لما كلفته من الزيادة في المعنى الذي اعتمدته، محرمًا له لا مقتديًا به، ومستثنيًا فيه لا آخذا منه.

---

(1) اليتيمة، ج2، ص56. ويُنظَر: خريدة القصر: قسم شعراء المغرب والأندلس، ج3، ص560، لاختلاف في بعض الكلمات.

في وصف الخط[1]:

ومن كلام أبي عامر ابن شُهَيد: أدام الله يا أخي حفظك، وسدّد لفظك ولحظك، بلغني -أعزّك الله- أنك عبتني بغموض الخطّ وضعف حروفه، ولم تعلم أن خطوط العلماء ضعيفة، وأن خطوط الخلفاء لطيفة، وأن ذلك من معالم السؤدد بينهم، ودلائل الكرم فيهم، وأنّ ضعف الخطّ تميمة عُلِّقت على جيِّدِ اللفظ، وأن منزلته من الكلام منزلة الكلف من بدر التمام.

في وصف بطاقة الكتابة وقصيدة الشعر[2]:

وقد أشار إلى شيء من هذا التعبير في حانوت عطّاره: «واختياري في البطاقة أن تكون نحو الشبر، كما أن اختياري في القصيدة: أن تكون نحو الأربعين بيتًا، لأنّ الطول في الغلب مملول، وهذا العدد من أبيات القصيد كان غاية الطائي، والجعَفي، في أكثر قصائدهما، وربما زعم بعضهم من هذين الفحلين لضيق عطن، وليس كذلك، وإنما ذهبا مذهب ابن الزّبعري وأخذا نحو مأخذه، قيل لابن الزّبعري: مالك تقصر شِعرَك؟ فقال: لأن القصار أولج في المسامع، وأجول في المحافل، وقيل للجماز مثل ذلك فقال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق، على أنّ أبا تمّام وأبا الطيب لم

(1) إحكام صنعة الكلام لأبي القاسم الكلاعي، ص46-47، تح: د.محمد رضوان الدّاية، دار الثقافة، بيروت. ويُنظَر منهج البحث الأدبي في الأندلس لـ د.أحمد حاجم الربيعي، ص313.

(2) نفس المصدر: إحكام صنعة الكلام، ص47-48.

ينزلا بهذا النزول، كلاهما فوق القِصر ودون الطول».

في اللطف[1]:

في كلّ شيء استحسنوا اللطف، إلّا في السرّة والضرّة.

في الخط[2]:

الخطوط خلفاء الألسنة، وخطباء العقول، والمِداد ماء القريحة، والطّرس ستر الصناعة وعرض العمل.

في الناس[3]:

ومن الناس من هو أخفّ من شرره، وأشبه اختلاطًا من غيره، لقد صحبتُ قومًا أخذوا من الثريا اجتماعها، ومن الجوزاء شعاعها وارتفاعها.

الصديق[4]:

إذا شكا الصديق إلى صديقه خَطْبَ هوىً دهمه، وأمر محبة فاجأه، فلا بدّ للمساعدة، والتركُ للائمة في صدر الكلَف، وحُميّا الشغَف.

(1) المختار من شعر شعراء الأندلس لابن الصيرفي، ص61، تح: د.عبدالرزاق سين، دار البشير، عَمّان.

(2) المختار من شعر شعراء الأندلس لابن الصيرفي، ص61.

(3) المختار من شعر شعراء الأندلس لابن الصيرفي، ص61.

(4) نفس المصدر: مختار الصيرفي، ص64.

مقتطفات أدبية

فصل[1]:

جلّى الشكوكَ بيَقينِه، واستنبط الأعمال من شؤونه، وقسم ليله نصفين: نصفًا للتلاوة، ونصفًا للسياسة، ويومَه شطرين: شطرًا للميدان، وشطرًا للديوان، فاستحمّ درجَ الخراج، ونزف دماءَ الأعلاج من الأوداج.

فصل[2]:

لا نعمة للخالق على المخلوق أجمل عاقبة وأحمد مغبة، وأروق بهاء، وأسبغ رداء، وأبعد مأثرة، وأيسر مكرمةً، من تقى يشعرها قلبه، وأدب يزين به عقله، ولسان مُبين يفيض عليه فيُعرب به عن نفسه، ويكشف عن حقيقة ذاته، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: 13]. وقال: ﴿**قل هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر: 9]، وقال: ﴿**سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ**﴾ [الأحزاب:19]، وقال: ﴿**أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾ [الزخرف: 18].

وقال علي رضي الله عنه: قيمة كلّ امرئ ما يحسن، وقال: المرء مخبوء تحت لسانه. ولذلك كانت الملوك تعدل ببنيها عن التنعُّم إلى شظف العيش، وتدني محالّهم من البادية، وتبوِّئُهم منازل الفصاحة، لتحتدّ أفئدتهم، وتمتدّ

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسّام، ج1، ص179.
(2) نفس المصدر، ص179-180.

ألسنتهم، وينسابوا في لصاب الدهاء، ومزاحف النكراء، فيجيدوا الحزّ، ويطبقوا المفصل، ويسوسوا النوب، ويكبتوا الخصوم، ويخرجوا من الغمّاء، ويمضوا قدمًا في الشعناء، كما قال عمرو لمعاوية: (من الطويل)

فإن تعطني مصرًا فأربحْ بصفقةٍ أَخَذْتَ بها شيخًا يضرُّ وَيَنْفَعُ

وإنّ امرأ يقابل ابن هند بهذا، وهو هو، لَفضفاض قميصِ الأدب، طويل نجاد المعرفة، موقوف على ذروة الفضل.

فصل[1]:

واصلَ الجهاد، واسْتَأصَل الكفر والعناد، واتّخذ ظهر الجواد بيتًا، وظلّ اللواء كنًّا، واستبدل من نقر الكران قرع الطبول، ومن نغم القيان شجا الصهيل، ومن وجبة المعازف لجِبَ الجيوش، يمشي في الهجير، ويسري في الزمهرير، ويحن إلى الأذان والتكبير، في خطة إبليس، ومصدح الناقوس.

فصل في طب التجميل[2]:

كنت أسمع من هذه المآثر والمكارم من نفح الصَّبا، ويقرع أذني منها جرس ألذّ من نغمة الصِّبا، فلا أكذب، لصدق الشاهد، وأمانة الناقل، وكثرة القائل، والحكيم أبو فلان خادم الشيب، ومصلح العيب، وله جوارشات مؤلفة، حارة مفلفلة، تكاد ترد الخَصِيّ فحلًا، والثور المُسِنّ عجلًا.

(1) نفس المصدر، ذخيرة ابن بسّام، ص180.

(2) نفس المصدر والصفحة.

فصل[1]:

أجلُّ ما بيننا ارتضاع الكاس، وشمّ الآس، والجري في حافات الصِّبا، والصيد بالسّكر في الرّبى، وإن طانت هنات مخلقة، وأوقات موبقة، ذهبت وبقي وزرها، وظعنت وأقام شرّها، فإن المرجوع للحكيم ربِّ العرش العظيم.

فصل: جواب على خطاب[2]:

ورد كتابك الكريم، بفضله العميم، يتبلّج تبلّج البرق، ويتحلّب تحلّب الودق، متكسّرًا في المشية، جاليًا لليل الشكّ والمِرْية، قائدًا بأزمّة المُنى والبغية، كلما اشتقّ موجًا غمره، أو لاعب موجًا بهره، أو جزَع واديًا أمدّه من أتِيّه، ونعم من أنبوب بَرْدِيِّهِ، أو مرّ بروض شقّ عليه رداء ورد، وأثار به عجاج نَدّ، أو عارض حمامة حيّتْه بغنائها، أو سامت لَقْوةً نزلت إليه من هوائها، أو مسح بعُصْمٍ حنّت إليه، أو خطر بأُسد تهالكت عليه، كتاب منع جانبه، وحمى حامله، كلّما خبط بطحاء كتبت بالكتائب، أو ركب جزعاء رقمت بالأراقم، كان لهذه مدية، ولتلك رقية، وكلّما كحل مقلة شوساء خشعت، أو لمس كفًا خشناء بخعت، أو وقع إلى رئيس وضعه على رأسه، أو دفع إلى ذي بأس أخدمه من بأسه، أو لمحته شقراء حمحمت، أو بصرت به بيضاء ترنّمت، هو الحديقة، تساق سوق الوَسيقة، أو اللَّطيمة في ثِنْيها الغنيمة، فثرت إليه قائمًا، وأرْقلت

(1) نفس المصدر والصفحة.

(2) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص163.

نحوه ساعيًا، وكان أوّل تحيّتي له أن قبّلته ووضعته على راسي، وحبست عليه أنفاسي، ثمّ فضضت ختمه، واسترقت شمّه، ففتق عليّ نسيم العبير لُخْلِخَ به صدور الحور، وأهدى إليّ عبق الياسمين، ذرَّعليه مسكَ دارين، فأنعمت في نشر طيّه، وضربت في مدرج لَيّه، فإذا ببناتٍ من البِرّ مسلّمة عليّ، وثغور من الإكرام ضاحكة إليّ، وفاض اللألاء، وكثر الهتاف والإيماء، فكلّت عيني عن ذلك الرونق، وحبست أذني عن ذلك المنطق، فلم أتمالك أن غطيت وجهي حياء، وقد تصببت ماء، وتقبّضت في رَدَني، وقد ضاق به عَطَني.

فصل: قطعة أدبية[1]:

فتنفّضت تنفّض العُقاب، وهزّتني أريَحيّات الشّباب، وقام بوهمي أنّي ملأت الأرض بجسمي، فأومأت إلى الجوزاء بكفّي أن تأمّلي، وإلى العَوّاء أن أقبلي، وقَلَّت المجرّة في عيني أن تكون لي منديلًا، وصغر الزبرقان عندي أن أتّخذه إكليلًا، فقلت: هكذا يكون الأَلوك، وبمثل هذا تنفح الملوك.

في أبي جعفر[2]:

وما كان هذا القرد أهلًا لأن يُحمَل عليه حُرُّ الكلام، ولا ليُرمى بفضل بيان، وبالحرى أن يُرقَم على عتبة دكّان، أو يصوّر على باب حمّام، وقد غرس في وجعائه رأس نخلة، وحيي في سعفها عشّ نحلة، أو يُنقشَ في خاتم قيمار وقد

(1) نفس المصدر، ذخيرة ابن بسّام، ص164.

(2) نفس المصدر، ذخيرة ابن بسّام، ص172.

علاه خنزير، وعطس مستنجاه بإبرة زنبور، فإنه بقيّة من بني إسرائيل الذين استحلّوا الحرام، واجترحوا السيئاتِ والآثام، فلما عتَوْا عمّا نُهوا عنه قيل لهم كونوا قردة خاسئين، فجُعلت نكالًا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتّقين.

فصل في التحذير من خالد الفَرَضي ـ الكيميائي[1]:

شنشنة أعرفها من أخزم، لا يصلح للأفعى مَراد الرّوض، ولا ورود الحوَض، ولا يدفع لؤمُ الكلب كرمَ الصحب، وإنّما الأخلاق جارية على الأعراق، والأفعال مأخوذة عن الأعمام والأخوال، وهذا المذكور مشؤوم، أدْوَى من مُوم، وأشأم من بوم، يسيء لمن أحسن إليه، ومن أجاره تجنّى عليه، مَنّته نفسه على ضيق نفَسها ملك الملوك، وإحياء وقائع اليرموك، فارتبك فيما ارتبك، ولولا القدر لطحنتْه الرَّهَك، لقد أخطأت اسْتَهُ الحفرة، وما ثبت عند النُّفرة، أولى له! لقد خبث مغرسه عمّا حاول، ولؤم معطسُه عمّا تناول، وهيهات! لا تبصر الشمسَ العُمْشُ، ولا تهتدي السُّبُلَ الخُفْشُ، وإني لأخاف على سعدك نحسه، وأحذر على يومك أمسه، أفقده الله حسَّه، وأورده الكنيف رمسَه، فإنه لو جاور البحر لسدّه، ولو جاس أبا قبيس لهدّه، وما أبعد أن تمنّيَه نفسه الخبيثة الفتكَ بك، والوثوب عليك، فإنّ أمره أسخف، وصفاقة مخّه أشفّ من أن لا يجري هذا المجرى، ولا يرميَ هذا المرمى، وربما ساعده القدر: هذا حمزة قعصَهُ وحشيٌّ، وبسطام صرعه عاصم، وكسرى فتك به مرازبته.

(1) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص173.

فصل أيضًا في وصف أبي عبد اللّه الفَرَضي[1]:

له ثلاثة سموم: سمّ أفعى وعقرب، ويعسوب نحل، شرب الماء واردًا وعنده حشائش استفادها من كيميائه، تكفيه وعثاء عنائه، إذا رام فتكًا أو حاول وثبًا. وإذ قد اطّرد هذا القول، وانثالت هذه الكلمات، فقد صحبته منذ أعوام، أيام اختلافنا إلى الزاهرة، وإذ تلك المواطن قائمة غير دائرة، وبالغُرر من آل عامر عامرة، وكنا كثيرًا ما نتدارس ضروب العلم من أدب وخبر وفقه وطبّ وصنعة وحكمة، على أنه في أهل الفهم واو عمرو، أو لسان بظر، وكان – ولا أشعر – يدانس ويوالس، قد استهتر على الفلوس، واستهلك على التدليس، وصار في ذلك وضح النهار، ونفخة المزمار، لو لمس البدور لعادت زيوفًا، أو تناول الشموس لغشّاها كسوفًا.

وقصدته يومًا على جهل بتلك الخليقة منه، لأستريح إليه، وألقي من شيئي عليه، فألفيته قد خلا بابُه، وغاب بوابُه، فولجت فثار إليّ صبيٌّ غرير أصبتُه هنالك قائلًا لي: طال انتظارنا لك! وتقدّمني وسرتُ حتى انتهيت إلى دار ذات أجوان، قد غشيها دُخان كقطع العنان، تعبق منه صُنان، من كبريت وزنجفور وأنزروت، فتذكرت: ﴿**فارتقبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ**﴾ [الدخان: 10] ﴿**يَغْشَى النَّاسَ هَـذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [الدخان: 11]، فاستشعرتُ الشرّ، وأردت الفرّ، ثمّ التفتُّ فإذا أنا بأكداس جمر، وآلات تبر، وأشخاص سود وصفر، ثُم أفضيت إلى بيت فيه عدة أشباح، كأنّها قُبّاض الأرواح، غرابيب، بأيديهم

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص175.

كلابيب، رزادق، قد تقلّدت مطارق، فلما رأوني صاحوا: فضحكم الواغل، فامحَقُوه من عاجل، فلمّا نظرت إلى المنيّة، وخشيت فصل القضيّة، ضحكت إليهم وقلت: تخطّتكم النعمة، ولا هُديتم سبيل الحكمة، أهكذا تعجلون، ولا تدرون من تريدون؟ قالوا: ومن أنت؟ قلت: من أخذ الطّلَق فسحقه بالمدَق، وشقّ بيد الذكاء عن زهرة الأشياء، فبشِّر الآباء بالأبناء، فقالوا: بنار أم بماء؟ قلت بهما جميعًا وبهواء، فأومضوا إليّ ضاحكين، واستقبلوني معتذرين، وقالوا: كدتَ والله تُلتَهم، وتكون السواد المُختَرَم، قلتُ: وأين أبو عبد الله؟ قالوا: انفرد يرقّق ماء بيض، ويصفّق دمَ حيض، وغرضه استخراج دهن الحجر الكريم، فقلت: حبس حديث أو قديم؟ فنادوا: أوّاه، أوّاه! على الخبير سقطتُم، ثمّ تلطفتُ وخرجت تطير بيَ رجلاي، وقد حقن الله دمي بعَطفه، واستنقذني من يدي منيّتي بلُطفه. ووصفت لمن استوثقتُه ذلك بعد أن استكتمتُه، فجاس وخاس، وكأنّي أودعت سرّي ريحًا، فاضطغن ذلك عليّ، وأكّد ذلك أيضًا معاملة عاملني بها أيّام حرب المدينة، وكانت حبالها إذ ذاك متينة، أعقَبَتْه وقع السوط على رأسه، وعضّ الحِجْل على ساقه.

فصل[1]:

كفى الله شرّهُما، شبّا حرْبَ البَوسِ، وتناقرا على الرُّؤوس، وكانتْ أَحدُهما صِينِيَّة، أو مِرآة هِندية، فكبا الجَدُّ بمن كبا، ونبا المَجدُ عن هامَةِ مَن نبا، ليبلُغ الكتابُ أجلَه، ويقضِيَ اللهُ أَمرًا كان مفعولًا.

(1) نفس المصدر، الذخيرة لابن بسّام، ص175-177.

فصل:[1]

إنّما هو لِطَبْخِ إكسيرٍ، أو لِشَدِّ قَصدِير، أو لِنَقْشٍ في ذكير، أو لادِّعاءِ أعمالٍ، أو لِتَغْشِيَة مِثقال، أو إقامة طِلِّسْمات، وهو خَلِيٌّ من ذلك كلّه، والحقيقَة نائيةٌ عنه، والشَّعوَذةُ غير مُستَملحَةٍ منه، لبرد طِباعِه، وقِصَر باعِه، وإنّما هي لأديبٍ ظريف، ذي فهمٍ لَطيفٍ، فأمّا هو فأبردُ من ثلجة، وأشدُّ عُفُوصَةً من عَفْصَةٍ فَجَّةٍ.

فصل:[2]

لولا أنّ الملوكَ لا تَتهادى بالوضيعِ، ولا تَعتمِدُ في تُحَفِها غيرَ الرفيع، لرأيتُ أنْ تهْدِيَهُ إلى البَلينَة مَلِكةِ البحر، والقَيِّمَةِ بالأمر، لِيَنصرِفَ البارِدُ إلى عُنصره، وعسى أنْ يُخرِجَه البحرُ بعدَ حِينٍ في عَنبَرِه، فيكون أحرَّ قليلًا، وأهدى إلى ذلك سبيلًا.

في منازل أبي نواس:[3]

انتهينا إلى أصلِ جبلِ دَيْر حنّة، فشقَّ سمعي قرع النواقيس، فصحتُ: من منازل أبي نواس وربِّ الكعبة العلياء، وسرنا نجتاب أديارًا كنائس وحانات، حتى انتهينا إلى دير عظيم تعبق روائحُه، وتَصوكُ نوافحه، فصاح زهير: سلامٌ على أهل دير حنّة، قلتُ: أو هل صرنا بذات الأكيراح؟ قال: نعم، وأقبلت

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص179.
(2) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص179.
(3) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1، ص202-203.

نحونا الرهابينُ مُشَددَةً بالزنانير، قد قبضت على العكاكيز، بيضَ الحواجب واللحى، إذا نظروا إلى المرءِ استحيا، مُكثرين للتسبيح، عليهم هَدْيُ المسيح، فقالوا: أهلًا بك يا زهير من زائر، وبصاحِبك أبي عامر، ما بُغيتُك؟ قال: حُسين الدَّنَّان، قالوا: إنه لفي شُرب الخمرة، مُنذ أيامٍ عشرة، وما نراكُما مُنتفِعينَ به، فقال: على ذلك، ونزلنا وجاؤوا بنا إلى بيتٍ قدِ اصطّفت دِنانُه، وعكفت غزلانُه، وفي فُرجتِه شيخٌ طويلُ الوجهِ والسّبَلة، قدِ افترشَ أضغاثَ زهر، واتكأ على زقٍّ خمر، وبيده طرجهارة [1]، وحواليه صبية كأَظْبٍ تعطو إلى عرارة، فصاح به زهير: حيّاك الله يا أبا الإحسان! فجاوب بجواب لا يُعقَل، لغلبةِ الخمر عليه.

في وادي الجن[2]:

قالَ لي زهير: حُلَّ على الجواد، فصرنا عليه، وسار بنا كالطائر يجتابُ الجَوَّ فالجوّ، ويقطعُ الدَّوَّ فالدَّوّ، حتى التمحتُ أرضًا لا كأرضِنا، وشارَفتُ جوًّا لا كجَوِّنا، متفرّع الشجر، عطرَ الزّهر، ومال العِنان إلى وادٍ ذي دَوحٍ تتكسَّرُ أشجارُه، وتترنَّمُ أطياره.

(1) الطرجهارة: فنجان، أو طاس يشرب به.

(2) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص195.

حبّه لقرطبة[1]:

لكنني ممنوع، وعن إرادتي مقموع، يملكُني سلطانٌ قريب، وأمير ليس كمثله أمير، شيءٌ غلب صبر الأتقياء، واستولى على عزم الأنبياء، وهو العشق، باطلٌ يلعبُ بالحق، ليبين ضَعفُ البشر، وتلوحَ قُدرَةُ مُصَرِّفِ القدر. والذي أشكو منه أغربُ الغرائب، وأعجَبُ العجائب، بَثٌّ شاغِلٌ، وبَرحٌ قاتلٌ، وصَبرٌ بَغيض، ودمعٌ يفيض، لِعَجوزٍ بَخراءَ، سَهِكَةٍ دَرداء، تُدعى قُرطبة: (من المتقارب)

عَجُوزٌ لَعَمْرُ الصّبا فانيةْ ... لها في الحشا صُورَةُ الغَانِيَهْ

زَنَتْ بالرِّجالِ على سِنِّها ... فيا حَبَّذا هِيَ مِن زانِيَهْ

تُرِيك العُقُولَ على ضَعفِها ... تُدارُ كما دارتِ السَّانِيَهْ

فقد عَنِيَتْ بهواها الحُلو ... مُ فهْيَ بِراحتها عانِيَهْ

تَقَاصَرُ عن طولِها قَونكَةٌ ... وتَبْعُدُ عن غُنجِها دانِيَهْ

تَرَدَّيْتُ من حُسنِ عَيْشِي بها ... غَرامًا فيا طولَ أحْزانِيَهْ

(1) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص166.

الكتاب الخامس

مجلس الجن

تقديم[1]

إنّ ما يزيدنا وثوقًا أنّ مجلس الجنّ هو من ضمن كتاب «حانوت عطّار»، ما أورده ابن الصيرفي في «المختار من شعر شعراء الأندلس» نصوصًا أوردها ابن بسّام في التوابع والزوابع، وقد ذكر ابن الصيرفي أنّه نقلها في مختاره من كتاب «حانوت عطّار»، وكذلك في كتاب «المُغرِب في حُلى المَغرِب» أبيات أوردها عن أخيه وعمّه، وذكر صاحب الكتاب أنّه أخذها من «حانوت عطّار»، وذكرها ابن بسّام في رسالة التوابع في مجلس الجنّ، فلهذا أضفناها كجزء رئيسي من كتاب البخور، مع أنّا أوردنا قِطَعًا منها في كتاب النقد.

النص[2]

قال أبو عامر: وحضرت أنا أيضًا وزهير مجلسًا من مجالس الجنّ، فتذاكرنا ما تعاورَته الشعراء من المعاني، ومن زاد فأحسن الأخذ، ومن قصر، فأَنشدَ قول الأفوه الأودي بعضُ من حضر: (من الرَّمَل)

---

(1) يُنظَر: المختار من شعر شعراء الأندلس لابن الصيرفي، و:المُغرِب في حُلى المَغرِب، ج1، ص85–86. والذخيرة لابن بسّام، ص220.

(2) يُنظَر النّصّ في الذخيرة لابن بسّام، (ابن شُهَيد)، وكذلك كتاب «رسالة التوابع والزوابع» لبطرس البستاني.

وتــرى الطيــرَ علــى آثارِنــا رَأْيَ عــينٍ ثقَــةً أنْ سَتُمَــارْ

وأنشد آخر قول النابغة: (من الطويل)

إذا ما غزوا بالجيش حَلَّق فوقَهم عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ
تراهُنَّ خلف القومِ خُزرًا عيونُها جلوسَ الشيوخِ في ثياب المَرانبِ
جوانحَ قد أيقَنَّ أن قبيلهُ إذا ما الْتقى الجيشان أوّلُ غالبِ

وأنشد آخر قولَ أبي نُواس: (من المديد)

تتَأيّا الطير غَدوتَه ثقةً بالشبع من جزرِه

وأنشد آخرُ قولَ صريع الغواني: (من البسيط)

قد عَوَّدَ الطيرَ عاداتٍ وثِقنَ بها فهُنَّ يتبعْنَهُ في كُلِّ مُرتَحَلِ

وأنشد آخرُ قول أبي تمام: (من الطويل)

وقد ظُلِّلَتْ عقبانُ أعلامِهِ ضحىً بعقبان طيرٍ في الدِّماءِ نَواهِلِ
أقامت معَ الراياتِ حتّى كأنَّها منَ الجَيشِ إلّا أنها لم تقاتِل

فقال شمردلُ السّحابيّ: كُلّهُم قصّرَ عن النابغة، لأنّه زاد في المعنى، ودلّ على أنّ الطيرَ إنما أكلتْ أعداءَ الممدوح، وكلامُهم كلّهم مشتركٌ يحتمل أن يكونَ ضِدّ ما نواهُ الشاعرُ، وإن كان أبو تمّام قد زادَ في المعنى، وإنّما المُحسنُ المتخلّص المتنبي حيث يقول: (من الطويل)

لهُ عسْكرا خَيلٍ وطيرٍ إذا رَمى بها عسكرًا لم تبقَ إلّا جَماجِمُهْ

وكان بالحضرة فتىً حَسَنُ البِزّةِ، فاحتَدّ لقول شَمردل، فقال: الأمرُ على ما ذكرتَ يا شمردل، ولكن ما تسألُ الطير إذا شبعتْ أيُّ القبيلينِ الغالبُ. وأمّا

الطيرُ الآخر فلا أدري لأيِّ معنى عافَتِ الطيرُ الجماجِمَ دون عظام السّوقِ والأذرُعِ والفِقاراتِ والعَصاعِص؟ ولكنّ الذي خلّص هذا المعنى كلَّه، وزادَ فيه، وأحسنَ التركيبَ، ودلّ بلفظةٍ واحدةٍ على ما دلَّ عليه شعرُ النابغةِ وبيتِ المتنبي، من أنّ القتلى التي أكلتها الطيرُ أعداءُ الممدوحِ، فاتكُ بن الصّقْعَبِ في قوله: [1] (من الطويل)

وتدري سِباعُ الطيرِ أنّ كُماتَهُ ... إذا لَقِيتْ صِيدَ الكُماة سِباعُ
لهُنَّ لُعابٌ في الهواء وهزَّةٌ ... إذا جَدَّ بينَ الدّارِعِينَ قِراعُ
تطيرُ جِياعًا فوقَهُ وتَرُدُّها ... ظُباهُ إلى الأوكارِ وهي شِباعُ
تَملّكَ بالإحسانِ رِبقَةَ رِقِّها ... فهُنَّ رقيقٌ يُشترى ويُباعُ
وألْحَمَ من أفراخِها فهي طَوعُه ... لدى كُلِّ حربٍ والملوكُ تُطاعُ
تُماصعُ جَرحاها فيُجهِزُ نقرُها ... عليهم وللطيرِ العِتاقِ مِصاعُ

فاهتزَّ المجلِسُ لقولِهِ، وعلموا صدقَه، فقلت لزهير: مَن فاتكُ ابنُ الصقعَب؟ قال: يعني نفسَه. قلتُ لهُ: فهلّا عرَّفتني شأنَهُ منذُ حِين؟ (إنّي لأرى نزعات كريمةٍ). وقُمتُ فجلستُ إليه جِلسةَ المُعَظِّمِ لهُ. فاستدارَ نحوي، مُكرمًا لمكاني، فقلتُ: جُد أرضَنا -أعزك الله- بسحابِك، وأمطِرنا بعيونِ آدابِكَ، قال: سلْ عمّا شئت، قلتُ: أيُّ معنىً سبقكَ إلى الإحسانِ فيه غيرُك، فوجدْتَه حينَ رُمْتَه صعبًا عليك إلّا أنك نفذتَ فيه؟ قال: معنى قول الكندي: (من الطويل)

سمَوتُ إليها بعدما نامَ أهلُها ... سُمُوَّ حَبابِ الماءِ حالًا على حالِ

(1) هل يعني فاتك بن الصقعب نفسه ابن شُهَيد؟ يُنظَر تعليق د.إحسان عباس، الذخيرة، الهامش، ج1، ص221.

قلتُ: أعزَّك اللهُ، هو من العقمِ. ألا ترى عمر بن أبي ربيعة، وهو من أطبعِ الناسِ حين رامَ الدنوَّ منه والإلمامَ به، كيف افتضحَ في قولهِ: (من الطويل)

ونفَّضتُ عَنّي النومَ أقبلتُ مشيَةَ الـ ـحُبابِ ورُكني خِيفةَ القومِ أزوَرُ

قال: صدقتَ، إنّهُ أساءَ قسمةَ البيت، وأراد أن يلطِّف التوصل، فجاءَ مُقبلًا بركنٍ كركنه أزور، فأعجبني ذلك منه، وما زلتُ مقدِّمًا لهذا المعنى رِجلًا، ومؤخِّرًا عنه أخرى، حتى مررتُ بشيخٍ يعلمُ بُنيًّا له صناعةَ الشعْرِ وهو يقول له: إذا اعتمدتَ معنىً قد سبقك إليهِ غيرُك فأحْسنَ تراكيبَه وأرقَّ حاشيتهُ، فاضربْ عنهُ جملةً، وإن لم يكُن بدٌّ ففي غير العروض التي تقدّم إليها ذلك المُحسنُ، لتنشطَ طبيعَتُك، وتقوى مُتَّتُك، فتذكّرتُ قول الشاعر وقد كنتُ أُنسِيتُه: (من السريع)

لَـمّا تَسامى النجمُ في أُفقِهِ ولاحتِ الجوزاءُ والمرزمُ

أقبلتُ والوَطءُ خفيفٌ كما ينسابُ منْ مكمَنِه الأرقَمُ

فعلمتُ أنّه صدقَ، وابن أبي ربيعة لو ركّبَ غيرَ عروضِهِ لخلَصَ، فقلتُ أنا في ذلك: (من المتقارب)

ولمّا تَملّأ من سُكرِهِ فنامَ ونامَتْ عُيونُ العسَسْ

دَنوتُ إليهِ على بُعدِهِ دُنُوّ رفيقٍ دَرى ما التَمسْ

أَدِبُّ إليهِ دَبيبَ الكرى وأسمو إليهِ سُمُوَّ النَّفَسْ

وبِتُّ به لَيلَتي ناعِمًا إلى أن تَبسَّم ثَغرُ الغَلَس

أُقبِّلُ منهُ بَياضَ الطُّلا وأَرشُفُ منهُ سَوادَ اللعَسْ

فقُمتُ وقَبلتُ رأسَهُ، وقلتُ: لله درُّ أبيك!

فقال لي فَاتكُ بن الصَّقعَب: فهل جاذبتَ أنت أحدًا من الفحول؟ قُلتُ: نعم، قولَ أبي الطيب: (من البسيط)

أأخلعُ المجدَ عنْ كتفي وأطْلُبهُ ... وأتركُ الغيثَ في غِمْدِي وَأَنْتَجِعُ

قال لي: بماذا؟ قلتُ بقولي: (من الطويل)

ومنْ قُبّةٍ لا يُدركُ الطّرْفُ رَأسَهَا ... تَـزِلُّ بهـا رِيْـحُ الصَّـبا فتَـحدَّرُ

إذا زاحَمَتْ منها الْمَخَارِم صَوَّبَتْ ... هُوِيًّا على بُعدِ المدى وهي تَجْأرُ

تكَلَّفتُها والليلُ قد جاشَ بَحْرُهُ ... وَقَـدْ جَعَلَـتْ أَمْوَاجُـهُ تَتكَسَّـرُ

وَمِنْ تَحْتِ حِضني أَبْيَضٌ ذو سَفاسِقٍ ... وفي الكفِّ من عَسَّالَةِ الخَطِّ أَسْمَرُ

هُمَا صَاحِبَايَ من لَدُنْ كُنْتُ يافِعًا ... مُقِيْلانِ مِنْ جَدِّ الفتى حِينَ يَعْثَرُ

فذا جَدْوَلٌ في الغِمْدِ تُسْقَى به المُنَى ... وذا غُصُنٌ في الكَفّ يُجْنى فيثمرُ

فقال: والله لئن كان الغيث أبلغَ، فلقد زِدت زِيادةً مليحة طريفةً، واخترعتَ معانيَ لطيفة، هل غيرُ هذا؟ فقلتُ: وقولُه أيضًا: (من الطويل)

وأَظَما فلا أُبْدِي إلى الماءِ حَاجَـةً ... وللشمسِ فوق اليَعْمَلاتِ لُعَـابُ

قالَ: بماذا؟ قلت: بقولي: (من الطويل)

ولمْ أَنْسَ بِالنَّاووسِ أَيَّامَنَا الأُلَـى ... بهـا أَيْنُنَـا مَحْبُوبُهـا وحُبَابُـهَا

وَفِتْيَـةِ ضَـرْبٍ مـن زَنَانَـة مُمْطِـرٍ ... بِوَبْـلِ المَنَايَـا طَعْنُهَـا وَضِرَابُـها

وَقَفْنَا على جَمْرٍ مِنَ المَوْتِ وَقْفَةً ... صِـلِيٌّ لَظَـاهُ دَابُ قَـوْمِي وَدَابُـهَا

إذا الشمسُ رامت فيه أكلَ لحومنا ... جرى جشعًا فوق الجيادِ لُعابُـها

فصاح صيحةً مُنكرةً من صياحِ الجِنِّ كادَ يُنخبُ لها فؤادي فزعًا- والله - منهُ.

وكان بنَجوةٍ جِنِّيٌ كأنّهُ هضبة لِرَكناتِه وتقَبُّضِه، يُحَدِّقُ فِيَّ دونَهُم، يرميني بسهمَينِ نافِذَيْنِ، وأنا ألوذُ بطَرْفي عنهُ، وأستعيذُ بالله منه، لأنّهُ ملأ عَيني ونَفسي، فقالَ لي لَمّا انتهيتُ، وقد استَخَفَّه الحسد: على مَن أخذتَ الزَّمير؟ قلتُ: وإنّما أنا نفَّاخٌ عندك مُنذُ اليوم؟ قال: أجل! أعطنا كلامًا يَرعى تِلاعَ الفصاحة، ويَستحِمُّ بماء العذوبةِ والبراعة، شديدَ الأسْرِ جيّد النظام، وضَعْهُ على أيِّ معنًى شئتَ. قلتُ: كأيِّ كلام؟ قال: ككلام أبي الطيب: (من الطويل)

نَزَلْنَا عَنِ الأكْوَارِ نمشي كَرَامَةً ... لِمَنْ بَانَ عنْهُ أنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبَا
نَذُمُّ السَّحَابَ الغُرَّ في فِعْلِهَا به ... ونُعْرِضُ عنها كُلَّما طَلَعَتْ عُتْبَا

وكقولِهِ: (من الكامل)

أَرَأَيْتَ أَكبَرَ هِمَّةً من ناقتي ... حَمَلَتْ يَدًا سُرْحًا وخُفًّا مُجْمَرَا
تَرَكَتْ دُخَانَ الرَّمْثِ في أَوْطَانِهَا ... طَلَبًا لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ العَنْبَرَا
وتَرَفَّعَتْ رُكَبَاتُها عَنْ مَبْرَكٍ ... تَقَعَانِ فيه، وَلَيْسَ مِسْكًا أَذْفَرَا
فَأَتَتْكَ دَامِيَةَ الأظَلِّ كأَنَّما ... حُذِيَتْ قَوَائِمُهَا العَقِيْقَ الأحْمَرَا

وكقولِهِ: (من الطويل)

على كُلِّ طَاوٍ تَحْتَ طَاوٍ كأنّما ... مِنَ الدَّمِّ يَسْقِي أو مِنَ اللحمِ يَطْعِمُ
لها تَحْتَهُمْ زِيُّ الْفَوَارِسِ فَوْقَهَا ... فكُلُّ حِصَانٍ دَارِعٌ متَلَثِّمُ
وما ذاك بُخْلًا بالنُّفُوسِ على الْقَنَا ... ولكنَّ صَدْمَ الشَّرِّ بالشَّرِّ أَحْزَمُ

فـآدَني والله بمـا قـرعَ بـه سـمعي، وقُلـتُ: أيّ مـاءٍ لـو كـانَ مِـن جِمامِـكَ، واسْتَهَلت به عُيونُ غَمامِك! ثم استقدَمتُ فأنشَدتُهُ: (من الكامل)

ولَـرُبَّ لَيْـلٍ لِلهُمُـومِ تَهَدَّلَـتْ ... أَسْـتارُهُ فَمَحَـا الصُّـوَى بِسُتُـورِهِ
كالبحرِ يَضْـرِبُ وَجْهَهُ في وَجْهِهِ ... صَـعْبٌ على العُبّارِ وَجْهُ عُبُورِهِ
طَاوَلْتُـهُ مِـنْ عَزْمَتِـي بمُضبَّـرٍ ... أثبَـتُّ هَمِّـيَ في قَـرارَةِ كُـورِهِ
وعَلـيَّ للصَّـبْرِ الجَمِيْـلِ مُفَاضَـةٌ ... تَلْقَى الرَّدَى فَتكِلُّ دون صبُورِهِ
وَبِرَاحَتِـي مِـنْ فِكْرَتِـي ذو ذُكْـرَةٍ ... عَهِـدَتْ تُـذكِّرُنِي لِطَبـعِ ذَكِـيْرِهِ
فَـرْدًا إذا بَعَثَـتْ دَيَـاجِي جنحِـهِ ... هَـوْلًا علـيَّ خَبَطْـتُ في دَيجُـورِهِ
حتـى بَـدَا عبـدُ العزيـزِ لِنَاظِـرِي ... أَمَلِي فَمَزَّقْـتُ الدُّجَى عـن نُـورِهِ

وأنشدتُهُ: (من الكامل)

اللهَ في أرضٍ غُـــذِيْتُ هَوَاءَهَـــا ... وعِصَـــابَةٍ لـــم تَّـــتهِمْ إِشْـــفَاقَهَا

وأنشدتُهُ: (من الكامل)

لا تَبْكِـيَنَّ مِـــنَ الليـــالي أَنَّـــها ... حَرَمَتْكَ نُغْبَةَ شَارِبٍ مِـنْ شَارِبِ
فَأَقَلُّ ما لكَ عندَها سَيْفُ الرَّدَى ... يُستَلُّ من شَعْرِ القَذَالِ الْأَشْيَبِ

وأنشدتُهُ: (من الطويل)

ولـمْ أرَ مثلي مَـا لَـهُ مِـنْ مُعَاصِـرٍ ... ولا كَمَضَـائِي مـا لـهُ مـن مُضـافِرِ
ولو كـان لـي في الجَـوِّ كَسْرٌ أَؤمُّهُ ... رَكِبـتُ إِلَيْـهِ ظَهـرَ فَتْخَـاءَ كَاسِـرِ

وأنشدتُهُ: (من البسيط)

وقالتِ النّفْسُ لمّا أن خَلَوتُ بهـا ... أشكو إليها الهوى خِلْواً مِنَ النَّغَمِ

حتّامَ أنتَ على الضَّرَّاءِ مُضْطَجِعٌ مُعَـرّسٌ في ديـارِ الظُّلْـمِ والظُّلَـمِ

ففتحَ عليَّ عينيْنِ كالمَاوِيَتَيْن، ثم قال لي: مِن القائل: (من مجزوء الرَّمَل)

طَلَـــعَ البَـــدرُ علَينـــا فحسِـــبناه لَبيبَـــا
والتقينـــا فَرَأيْنـــا هُ بعيـــدًا وَقَرِيبَـــا

قُلتُ: أبي، قالَ: فمن القائل: (من المتقارب)

فَيَـا مَـنْ إذا رَامَ مَعْنَـى كَلامِـي رأى نَفْسَهُ نُصْبَ تِلْكَ الْمَعَـانِي
شَـكَوْتُ إليـكَ صُـرُوفَ الزَّمَـانِ فلـم تَعْـدُ أن كُنـتَ عَـونَ الزَّمَـانِ
وَتَقْصُـرُ عَـنْ هِمّتـي قُدرَتِـي فيـاليتني لِسَـوَى مَـنْ نَمَـانِي
ولا غَـرْوَ لِلحُـرِّ عنـدَ المَضِيـقِ أَنْ يتمنّـى وَضِـيْعَ الْأَمَـانِي

قلتُ: أخي، قال: فمن القائل؟: (من الطويل)

صُدُودٌ وإن كان الحَبِيْبُ مُسَاعِفَا وبُعْـدٌ وإنْ كـان المَـزارُ قَرِيـبَا
ومـا فَتِئَـتْ تلْـكَ الـدِّيارُ حَبائِـبًا لنـا قَبـلَ أن نلقـى بِهـنَّ حَبيبـا
ولـو أَسْـعَفَتْنَا بـالْمَوَدَّةِ في الهَـوَى لأَدْنَـيْنَ إِلْفًـا أو شَـغَلنَ رَقِيـبَا
وما كان يَجْفُوُ مُمْرِضِي، غَيْرَ أَنَّهُ عَدَتْـهُ العَـوَادِي أَنْ يكـونَ طَبِيـبَا

قُلتُ: عمي، قالَ: فَمَنِ القائِلُ؟: (من الطويل)

أَتَيْنَاكَ لا عَـنْ حَاجَةٍ عَرَضَـتْ لَنَا إليـكَ ولا قَلْـبٍ إليـكَ مَشُـوُقِ
ولكنّنـا زُرْنَـا بِفَضْـلِ حُلُومِـنَا حِمَـارًا تَلقَّـى بِرَّنـا بِعُقُـوُقِ

قُلتُ: جَدّي، قال: فمن القائل؟: (من السريع)

وَيْلِـي علـى أَحْـوَرَ تَيَّـاهِ أحسَـنَ مـا يَلهُـو بـهِ اللاهِـي

أَقْبَـلَ في غِيـدٍ حَكَـيْنَ الظِّبـا ... بِـيضِ تَـراقٍ حُمْـرِ أَشْفَـاهِ
يَـأْمُرُ فِـيْهِنَّ ويَنْهَـى ولا ... يَعْصِـينَهُ مِـن آمِـرٍ نَاهِـي
حتـى إذا أَمْكَنَنِـي أَمْـرُهُ ... تَرَكتُـهُ مِـن خيفَـةِ اللهِ

قُلتُ: جَدُّ أبي، قال: فمنِ القائل؟: (من البسيط)

وَيْـحَ الكِتابَـةَ مِـنْ شَـيخٍ هَبَنَّقَـةٍ ... يَلْقَـى العُيُـونَ بِـرَأْسٍ مُخَّـهُ زَارُ
ومُنـتِنِ الـرِّيحِ إنْ ناحَيْتَـهُ أَبَـدًا ... كأنّمـا مَـاتَ في خَيْشُـومِهِ فَـارُ

قُلـتُ: أنـا، قـال: والـذي نفسُ فرعـونَ بيدِه، لا عَرَضـتُ لـكَ أبـدًا، إني أراكَ عَريقًـا في الكـلام، ثـم قَـلَّ واضْـمَحَلَّ، حتـى إنّ الخُنفُسـاءَ لَتدوسُـهُ، فـلا يَشـغَلَ رِجلَيها، فَعجِبتُ منهُ، وقُلتُ لِزهيرٍ: مَن هذا الجِنِّي؟ فقال: استَعِذ بـاللهِ مِنهُ، إنّهُ ضرَطَ في عَين رَجلٍ فبدَرَت مِن قفاهُ، هذا فِرعونُ بن الجَـون. فقلـتُ: أعـوذُ بـاللهِ العَظيم، مِن النار ومن الشيطانِ الرجيمِ! فَتبسَّمَ زهيرٌ وقـال لي: هـو تابِعَـةُ رجُلٍ كبيرٍ منكم، فَفَهِمتُها عَنهُ.

ومشيتُ يومًا أنا وزهيرٌ بأرضِ الجِنِّ أيضًا نتَقرّى الفوائِدَ، ونعتَمِدُ أنديَـةَ أهلِ الآدابِ منهم، إذ أشرَفنا على قَرارَةٍ غَنّاء، تفتَرُّ عن بركةِ ماء، وفيها عانَةٌ من حُمُرِ الجنِّ وبغالِهم، قد أصابَها أَولَـقٌ فهيَ تصْطَكُّ بـالحوافِر، وتـنفُخُ من المَنـاخِر، وقد اشتَدَّ ضُراطُها، وعلا شَحيجُها ونُهاقُها، فلمّا بَصُرَت بنا أجفَلَـتْ إلينـا وهـي تقولُ: جاءَكم على رِجليهِ، فارتَعتُ لـذلك، فتَبسّـمَ زهيرٌ وقد عـرفَ القصـد، وقالَ لي: تَهيّأ للحُكم، فلمّا لَحقت بنا بدَأتني بالتَّفدِيَة، وحَيّتني بالتكنِيَة، فقلـتُ: ما الخطبُ حُمِيَ حِماكِ أيَّتُها العانة، وأخصَـبَ مَرعـاكِ؟ قالـت: شِعرانِ لحِمـارٍ

وبَغـلٍ مَـن عُشّـاقِنا اختلفنـا فيهمـا، وقـد رَضـيناكَ حَكَمًـا، قلـتُ: حتـى أسـمع، فتقدَّمَت بَغلةٌ شَهباء، عليها جُلُّها وبُرقُعُها، لم تدخُلْ فيما دخَلَت فيه العانَةُ من سُوءِ العَجَلةِ وسُخفِ الحَرَكة، فقالت: أحدُ الشِّعرَين لبَغلٍ من بِغالِنا وهو: (من الطويل)

على كُـلِّ صَـبٍّ مِـنْ هَـواهُ دَلِيْـلُ ... سَقامٌ على حَرِّ الجَوى ونُحُـولُ
ومـا زالَ هـذا الحُـبُّ داءً مُبَرِّحًـا ... إذا مـا اعْتَرى بغـلًا فليـسَ يَـزولُ
بِنَفْسِي التي أمَّا مَلاحِظُ طَرْفِها ... فَسِـحرٌ، وأمّـا خَـدُّها فأسِيـلُ
تَعِبتُ بما حَمَّلتُ من ثِقلِ حُبِّها ... وإنِّـي لَبَغـلٌ للثِّقـالِ حَمُـولُ
ومـا نِلْـتُ منهـا نائـلًا غيـرَ أنني ... إذا هـي بَالَـتْ بُلـتُ حيـثُ تَبـولُ

والشِّعرُ الآخَرُ لِدُكينِ الحمار: (من الطويل)

دُهِيْـتُ بهـذا الحُـبِّ مُنـذُ هَوَيْـتُ ... ورَاثَـتْ إراداتِـي فَلَسْـتُ أَرِيْـتُ
كَلِفْتُ بِإِلْفِي مُنذُ عِشرينَ حِجـَّةً ... يَجُـولُ هَوَاهَـا في الحَشـا ويَعِيْـتُ
وَمَالِيَ مِنْ بَرْحِ الصَّبَابَةِ مَخلَصٌ ... ولا لِيَ مِن فَيضِ السّقـامِ مُغِيْـتُ
وغَيَّـرَ مِنهـا قَلبَهـا لـيْ نَمِيْـمَةٌ ... نَمَاهَـا أَحَـمُّ الخُصْـيتَينِ خَبـيثُ
ومـا نِلْـتُ منهـا نَـائِلًا غيـرَ أنّنـيْ ... إذا هيَ راثَتْ رُثتُ حَيْـثُ تَرُوثُ

فَضحِكَ زهيرٌ، وتَماسَكتُ وقُلتُ للمُنشِدةِ: ما هَويث؟ قالتْ: هُـو هَويـتُ، بلُغَة الحَمير، فقلتُ: واللهِ إنَّ للرَّوثِ رائِحَةً كَريهةً، وقد كان أنفُ النّاقَةِ أجدَر أن يحكُمَ في الشِّعرِ! فقالتْ: فهمتُ عنكَ. وأشارتْ إلى العَانَةِ أنَّ دُكَينًا مَغلوبٌ، ثُمّ انصرَفَت قانِعةً.

وقالت ليَ البغلَةُ: أما تعرِفُني أبا عامر؟ قلتُ: لو كانتْ ثَمَّ علامة! فأماطَتْ لِثامَها، فإذا هيَ بَغلَةُ أبي عيسى، والخالُ على خَدِّها، فتباكَينا طويلًا، وأخَذنا في ذِكرِ أيّامِنا، فقالتْ: ما أبقَتِ الأيامُ منك؟ قلتُ: ما تَرَيْنَ، قالت: شَبَّ عَمروٌ عنِ الطَّوق! فما فَعلَ الأحِبّةُ بعدي؟ أهُم على العهدِ؟ قلتُ: شَبَّ الغِلمانُ، وشاخَ الفتيانُ، وتَنكَّرتِ الخلّانُ، ومن إخوانِك مَن بَلغَ الإمارةَ، وانتهى إلى الوزارةِ، فَتَنَفَّسَتِ الصعَداء وقالت: سقاهُم اللهُ سَبَلَ العَهدِ، وإن حالوا عنِ العَهدِ، ونَسُوا أيامَ الوُدِّ، بحُرمةِ الأدب، إلّا ما قَرَأتَهم منّي السلام، قلتُ: كما تأمُرين وأكثر.

وكانت في البركةِ بقُربنا إوَزَّةٌ بيضاءُ شَهلاء، في مثلِ جُثمانِ النَّعامةِ، كأنما ذُرَّ عليها الكافورُ، أو لبِسَت غِلالةً من دِمقسِ الحرير، لم أرَ أخفَّ من رأسِها حركة، ولا أحسنَ للماءِ في ظَهرِها صبًا، تثني سالِفَتَها، وتكسِرُ حَدقَتها، وتلولبُ قَمَحْدُوَتَها، فترى الحُسنَ مُستعارًا منها، والشكلَ مأخوذًا عنها، فصاحَت بالبَغلَةِ: لقد حَكمتُم بالهوى، ورَضيتُم من حاكِمكُم بغير الرضى، فقلتُ لزهيرٍ: ما شأنُها؟ قال: هيَ تابِعةُ شَيخٍ من مشيخَتِكُم، تُسمّى العاقلَة، وتُكنى أمَّ خفيفٍ، وهي ذاتُ حَظٍ من الأدبِ، فاستعِدَّ لها، فقلتُ: أيتُها الإوَزَّةُ الجميلةُ، العريضةُ الطويلَةُ، أيحسنُ بجمالِ حَدَقَتيكِ، واعتِدالِ مَنكبيكِ، واستِقامةِ جَناحَيكِ، وطولِ جيدِكِ وصِغَر رأسِكِ، مُقابَلَة الضيفِ بمثلِ هذا الكلام، وتَلقِّي الطارئ الغريبِ بشبهِ هذا المَقال؟ وأنا الذي هِمتُ بالإوَزِّ صَبابةً، واحتملتُ في الكَلَفِ فيها عَضَّ كلّ مقالة؟ وأنا الذي اسْترجَعتُها إلى الوَطن المألوف، وحبَّبتُها إلى كُلِّ غطريف، فاتَّخَذَتها السادةُ بأرضِنا، واستَهلَكَ عليها الظُّرَفاءُ منّا، ورُضِيت بدلًا من العصافيرِ، ومكلّمات الزّرازير، ونسيتُ

لذَّةَ الحَمام، ونقارَ الديوكِ، ونِطاحَ الكِباش. فدَخلها العُجبُ من كلامي، ثُم ترَفّعتْ وقدِ اعترتها خِفّةٌ شَديدةٌ في مائِها، فمرّةً سابحَةً، ومرّةً طائِرةً، تنغَمسُ هُنا وتخرُجُ من هُناك، قد تَقبَّبَ جناحاها، وانتصبت ذُناباها، وهي تُطَرِّبُ تطريبَ السرورِ، وهذا الفعلُ معروفٌ منَ الإوَزّ عند الفَرحِ والمَرحِ، ثُم سَكنت وأقامَت عُنُقَها، وعرَّضت صدرَها، وعمِلَت بمجدافَيها، واستَقبلَتنا جاثيَةً كصدرِ المَركب، فقالت: أيُّها الغارُّ المغرور، كيف تحكمُ في الفروعِ وأنت لا تُحكِمُ الأصول؟ ما الذي تُحسِنُ؟ قلتُ: ارتِجالَ الشعر، واقتِضابَ خُطبَة، على حُكم المقترَح والنّصبَة، قالت: ليس عن هذا أسألك، قلتُ: ولا بغيرِ هذا أُجاوبك، قالت: حُكمُ الجوابِ أن يقع على السؤال، وإنما أردتُ بذلك إحسانَ النحوِ والغريبِ اللذينِ هُما أصلُ الكلام، ومادّةُ البيانِ، قلت: لا جواب عنديَ غيرَ ما سمعتِ، قالت: أقسمُ أنّ هذا منك غيرُ داخِل في باب الجَدلِ، قلتُ: وبالجَدلِ تطلُبيننا – وقد عقدنا سلمَه، وكُفينا حَربَه – وإنّ ما رَميتُك به منه لأنفَذُ سِهامِه وأحَدُّ حِرابِه، وهو من تعاليمِ اللهِ عزَّ وجلَّ عندنا في الجدل في مُحكم تنزيله، قالت: أقسمُ أنّ الله ما علّمك الجدلَ في كتابه، قلتُ: محمولٌ عنك خفيف، لا يلزمُ الإوَزَّ حفظُ أدبِ القُرآن، قال اللهُ عزَّ وجلَّ في مُحكم كتابه حاكيًا عن نبيِّهِ إبراهيم عليه السلام: ﴿**رَبِّيَ الذي يُحيي وَيُميتُ قالَ أنا أُحيي وأُميتُ**﴾ [البقرة: 258]. فكان لهذا الكلام من الكافرِ جواب، وعلى وجوبِه مقال، ولكنَّ النبيَّ ﷺ لمّا لاحتْ لهُ الواضِحةُ القاطِعةُ، رماهُ بها وأضربَ عن الكلامِ الأوّل، قال: ﴿**فإنَّ اللهَ يَأتي بالشمْسِ مِن المَشرقِ فأتِ بها مِنَ المَغربِ فَبُهِت الذي كَفرَ**﴾ [البقرة: 258] وأنا لا أُحسِنُ غير ارتِجالِ شِعر، واقتِضابِ خُطبة، على

حُكمِ المقترَح والنّصبة، فاهتزت من جانِبيها، وحالَ الماءُ من عَينَيها، وهمَّت بالطَيران، ثُم اعتَراها ما يَعتَري الإوَزَّ من الألفَة وحسنِ الرَّجعَةِ، فقَدَّمت عُنُقَها ورأسَها تمشي نَحونا رُويدًا، وتَنطِقُ نطقًا مُتَداركًا خفِيًّا، وهو فِعلُ الإوزِّ إذا أنِستْ واسْتراضَت وتذلّلت، على أني أُحِبُّ الإوزَّ، وأستظرِفُ حركاتها، وما يَعرِضُ من سَخافاتِها.

ثُمّ تَكلمتُ بها مُبسبِسًا، ولها مُؤنِسًا، حتى خالَطَتنا وقد عقَدنا سلمها وكُفينا حَربها، فقلتُ: يا أُمَّ خفيف، بالذي جعَل غِذاءَكِ ماء، وحَشا رأسَكِ هواء، ألا أيُّما أَفضل: الأدبُ أم العقلُ؟ قالت: بَلِ العقلُ، قلتُ: فَهل تعرِفينَ في الخَلائقِ أحمقَ من إوَزّة، ودَعيني من مثَلهم في الحُبارى؟ قالت: لا، قلتُ: فَتطلَّبي عقلَ التجرِبَة، إذ لا سبيلَ إلى عقلِ الطبيعَةِ، فإذا أحرَزتِ منه وبُؤتِ منه بحَظّ، فحينئذٍ ناظري في الأدبِ. فانصَرفَتْ وانصَرَفنا.

الكتاب السادس

أخبار البخور من الحانوت

الكتاب الذي أنشئ عند الظفر بعبد اللّه بن المنصور وقتله[1]

- ذَكر أبو عامر ابن شُهَيد في كتابه المعروف بحانوت عطّار الكتاب الذي أنشئ عند الظفر بعبد الله بن المنصور وقتله لما خرجَ على أبيه، فمنه:

«وإنّ عبد الله استَوطأَ مركبَ الخلاف والعقوق، وأضاعَ ما ألْزمه اللهُ عزَّ وجل من الحقوق، ولا غَروَ فقد يسري الخال، وينامُ عِرقُ العمّ، وربّما أفسدَ الرَّسْلَ وعاؤه، وغيَّرَ الماءَ سقاؤُهُ، فلولا غَلَبَةُ الأمشاجِ على النُّطفةِ المخْلوقَةِ حتى يكون الشبَهُ الغالِبُ فيها، لما وَلدَ الطَّيبُ خبيثًا، والخبيثُ طيبًا، ولا الفاجرُ بَرّاً، ولا البَرُّ فاجِرًا، حتى إنني ألْقَيتُ عليهِ مَحبَّتي، وألحَفتُهُ جناحَ رأفتي، وصَيَّرتُهُ بنجْوَة مِنَ العِزَّة، وبحْبوحَةٍ من الأمن، وفي عيْشٍ رقيقِ الحواشي، وحالٍ تجاوزُ طامِحَ الأماني، والنِّعَمُ أطواقٌ إذا شكرت، وأغلالٌ إذا كفَرت، والشُّكرُ لها زيادةٌ فيها، وأمانٌ من الغِيَر عليها، ولو أُساعدُ هوًى وأُجانبُه تُقًى، لَعَطفتني عليه الأواصِرُ العاطفةُ، والأرحامُ الشابِكةُ، والشقِيُّ مَن عَدلَ به الهوى عنِ الحقّ، وأورَدهُ النارَ، ﴿وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ﴾ [هود: 98].

وذكر أنّه أنشئ في مَعين منافق عصى، وشقَّ العصا، واستندَ إلى الروم، وكان

(1) المختار من شعر شعراء الأندلس لابن الصيرفي، ص38.

أبوه على الطاعة، فتولّى قتالَه إلى أن ظفَر به وقتله، ولما كفَر فلانُ النعمةَ مُباينًا، ونابذ الإسلام مُتارِكًا، واتّخَذ الدَّيْرَ دارًا، والنصارى أنصارًا، شَمَّرتُ له عن ساق الحَزم، وحسَرتُ له عن ساعِد العَزم، ولطَفتُ إليه من مسلك الحيلَةِ، واستعنتُ عليه بصادق النيَّةِ، فلم أزل أدني إليه بعيدَ الأجل، فأقطع به في وجه الأمَل، وأفتحُ عليه بابَ الطَّلب، وأسُدُّ أبواب الهَرب، حتى افترسَه فرَسُه، وجنى عليه مجنَّهُ، واعتقَلَهُ معقله، فقاده الذنب، وساقَه الجُبنُ منحوسَ الحظِّ ممنوعَ اللفظ، قد شُدَّت يدُه بالجَريرَة، وسُدَّ فَمُ توبَته بحَجزِ الكبيرَة، وأمرتُ بثوبه فكُشِف، وبطيب النِّفاق فاختُرط، وقد صارتِ القُربى بُعدًا، والرحمةُ ضِدًّا، فما كان إلّا كَلا، ولا حتى شَحَط في أوساخِه، وحِيزت لأميرِ المؤمنين أمُّ أفراخه، وعطَفت على كُلّ قرينٍ له وصاحب، فأعْدَت جميعَهم كأمسِ الذاهب، أبلَوا بلاهُم فجُوزوا جزاهُم، كذلك: ﴿**جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ**﴾ [المائدة: 33]، ومملوكُكَ يا أميرَ المؤمنينَ فيُقسِمُ بالله العظيم لو عصتك يُمناهُ لأعدى عليها يُسراهُ، ويُعيد القسَم: لو كان له ألفُ ولدٍ، كُلٌّ منهم أدهى من قتيبة، وأشجعُ من عُتيبة، وأوفى مِن عُيينة، وأذكى من عُروةَ بن أُذينَة، لتخلّى لطاعتِكَ عنهُم، وتَبرّأ لبيعَتِك منهم، وأُعذِرَ عند نِعَمكِ فيهم، ولئن كان الفائقُ ولدَ الرّائقِ، والعاصي نَجلَ الطائعِ، فقد تكونُ الصاعقَةُ من الصَّيِّب، ويُخرِجُ الله الخبيثَ من الطّيِّب.

- **ومع ابن خلدون في خبر قتل الناصر ابنَه عبد الله، قال:**[1]

كان الناصر قد رشّح ابنه الحكم، وجعله وليّ عهده، وآثره على جميع ولده، ودفع إليه كثيرًا من التصرف في دولته، وكان أخوه عبد الله يساميه في الرتبة، فغصّ لذلك، وأغراه الحسد بالنكثة فنكث، وداخل من في قلبه مرض من أهل الدولة فأجابوه، وكان منهم ياسر الفتى وغيره، ونمى الخبر بذلك إلى الناصر فاستكشف أمرهم حتى وقف على الجليّ فيه، وقبض على ابنه عبد الله، وعلى ياسر الفتى، وعلى جميع من داخلَهم، وقتلهم أجمعين سنة ثلاثمئة وثلاث وتسعين.

- **قال: أبو عامر ابن شُهَيد**[2]:

إني نشأتُ في حِجر المنصور، ورُبِّيتُ في قصره، وارتضَعتُ ثَدي كرائمه، واعْتَجرتُ رِداء مكارِمه، واغتَذيتُ من فِيه، أكلًا زَقَّنيه، وماءً عَلّنيه، فصِرتُ من أفراخ نَعمائِه الحُمرِ الحواصل، ولحقتُ بأخوَّة أبنائه الغُرِّ العَباهل.

- **وقال**[3]:

عقَد لي المُظفّر على الشرطة، وأنا ذاك ابن ثمانٍ، وكانت لِسِنّي أرفعَ خُطةٍ، فانصرَفتُ وأنا أنظُرُ عِطفي عن شَوس، وقد ضاقَ صدري على أبي عن سَعَة نَفس.

---

(1) تأريخ ابن خلدون، ج4، ص143.

(2) الذخيرة لابن بسّام، ج1، ص156.

(3) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص157.

- **من خطابه لعبد العزيز المؤتمن يطلب فيها ضيعة[1]:**

وقال: وعَدَ الوزير عباس بصرفِ ضيعة لي بجهَة تُدمير، حالت الفتنُ دونها، واضطِرابُ الأحوال عن مطالَعَتِها، وأنا أسألُ فضلَك سؤال المُدِلّ في استنجاز ما وَعد، فإنه يَعتاضُ من شُكري وثنائي عليه، وصدعي في المحافل بفضله، أجلَّ فائدة يصطفيها، وأكرم نفيسَةٍ يقتنيها.

وأصلُ اصطفائِنا لتلك الضيعةِ وسائر أخواتِها أنّ المنصورَ -رضي الله عنه- استعمل أبي عبدَه على تلك الجهة الشرقية تسعة أعوام توالت بتُدمير وبَلَنسيَة.

خطاب عبد الملك بن أحمد أبو أبي عامر إلى المنصور يعتذر فيه عن الولاية[2]:

- قال أبو عامر: لما سئِم أبي العمل خاطب المنصور برُقعة يقول فيها:

إنّ كبيرَ حقِّ المولى لا يذهب بصغير حقّ العبد، ولي حُرمَةٌ أُدِلّ بها، وذِمّة أنبسطُ لها، وقد طالت عليَّ الغُربةُ، وسئمتُ الخِدمةَ، ومَلِلْتُ من النعمةِ، فالإدَالَةَ الإدالَةَ، فأدالَهُ - رضي الله عنه -على رِضاه، وأشخصَه إليه على هواهُ، فوَرد قُرطُبةَ بأربعمئة ألفِ دينار ناضَّةً، ومئةِ ألفٍ من ذهبٍ آنيةً، ووثائقَ خمسمئة زوجٍ مُكتسَبةً، ومئتي نسمَة من رقيق الصقلبِ مُنتقاةً، والسعرُ إذ ذاك بها سامٍ جدًّا، ونَفَقةُ أبي رأسَ كلِّ شهرٍ سبعون مَدْيًا من قمحٍ، وعَلف ثمانين

(1) الذخيرة لابن بسّام، ص158.

(2) الذخيرة لابن بسّام، ص159.

دابَّةٍ من شعير، فكتب إليه يعرضُ عليه ما جاء به، ويُحكمُه فيه، ويسأَلُه أخذَه، أو الأخذَ منه.

فجاوبه المنصور: لو أردنا أخذَ ما أعطيناك ما قدَّمناك، ونحنُ نخاف أن تستصفي نفقتُك ما استقْتَه، وتأتي على ما اجتلَبتَه، بارتفاع ثمن الطعام، وأنك لم ترِد منه على ذخيرة، وقد صَككنا لك بألفي مَدْىً بشطرين من قمح وشعيرٍ تستظهرُ بهما على زمانك، فاقبضها من أهْراءِ فلانة لقُربها من مكانك، إن شاء الله.

- **قال أبو عامر[1]:**

استوحَش أبو عامر المُظفّر من هشام المعتَدّ ووزيره حَكم بن سعيد القزاز، وكانوا قد رمَوه بذنب سليمان بن هشام الناصِري، فلما خاف دَبَّر الفرار، وخرج في لُمّة من ثِقات أصحابهِ وأعوانه، وحمَل معه عُيونَ ذخائرهِ وخاصَّة حُرَمهِ، وقطَع أرضًا بعيدةً، ولم يعلَمِ المُعتدُّ بخبرهِ، إلى أن جاءَ خبرُ اجتيازهِ بديرِ قرطُبةَ راجعًا على عَقِبه من شاطبة، لم يتفق له فيها ما أراد، فكرَّ إلى ابن عبد الله بقَرْمونَةَ مستجيرًا به في ظنّه، فأخلف ابنُ عبد اللهِ ظنَّه، وخاطب قائدَه بحصرِ المرور وبإزعاجِه عن قُطْره، ولا يجتازُ على شيء من عمَله، فضاقت به الأرضُ يومئذ، فألقى نفسَه على أبي حمامة حرزةَ اليصْدراني، فأجارَه، وبوَّأَهُ منزلًا في حصنه على نهر قُرطبة، أقام في كمَدٍ وغُصّة، والحِمامُ يُغازلُه إلى أن مات عنده.

(1) ذخيرة ابن بسّام، ج1، 236.

- **قال أبو عامر[1]:**

لمّا قَدِم زُهيرٌ الصَّقلَبي فتى بني عامر حضرة قُرطُبةَ من المرِيَّة، وجَّه أبو جعفر بن عباس وزيره عن لُمَّةٍ من أصحابِنا منهمُ ابنُ بُرد، وأبو بكر المرواني، وابن الحنَّاط، والطُّبني، فسألَهُم عنّي، وقال: وَجّهوا عنهُ، فوافانيَ رسولُه مع دابَّةٍ له بسرجٍ مُحلّى ثقيلٍ، فسِرتُ إليهِ ودخلتُ المَجلِسِ، وأبو جعفرٍ غائب، فتَحرّك المجلسُ لِدُخولي، وقاموا جميعًا إليّ، حتى طلع أبو جعفرٍ علينا ساحِبًا لذَيلٍ لم يُرَ أحدٌ سحَبَه قبلَه، وهوَ يترنَّم، فسَلَّمتُ عليه سلامَ مَن يَعرِفُ حقَّ الرجال، فردَّ ردًّا لطيفًا، فَعلِمتُ أنَّ في أنْفِه نَعرةً لا تخرُجُ إلّا بسَعوطِ الكلام، ولا تُراضُ إلّا بمُستَحصِدِ النِّظام، فرأيتُ أصحابي يُصيخونَ إلى تَرنُّمِه فسألتَهم عن ذلك، فقال لي الحنّاطي، وكان كثيرَ الإنحاء عليّ، جالبًا في المَحافِل ما يَسوءُ الأولياء إليّ: إنَّ الوزير حضرَه قسيمٌ من شِعره، وهو يسألُنا إجازَتَه. فعَلِمْتُ أنّيَ المُراد، فاستَنشَدته فأنشَده، وهو:

مرضُ الجُفونِ ولَثغَةٌ في المَنطِق (من الكامل)

فقلتُ لمن حَضرَ: لا تُجهِدوا أنفُسَكُم فلستُمُ المُرادَ، فأخذتُ القلم وكتبتُ بديهةً: (من الكامل)

مَرَضُ الجُفونِ ولَثغةٌ في المَنطقِ ... سِيّانِ جَرّا عِشقَ مَنْ لمْ يَعشَقِ

مَن ليْ بألثَغَ لا يزالُ حَديثُهُ ... يُذكي على الأكبادِ جمرةَ محرِقِ

يُنبي فينبو في الكلامِ لسانُه ... فكأنَّه مِن خَمرِ عَينَيهِ سُقي

(1) الذخيرة لابن بسّام، مج1، ص232.

لا يُـنعِش الألفـاظَ مِـنْ عَثَراتِهـا ولـوَ انّهـا كُتِبـتْ لـهُ في مُـهْرِقِ

ثُم قُمتُ عنهم فلم ألبثْ أن وردوا عَليّ، وأخبروا أنّ أبا جَعفرٍ لـمْ يرضَ ما جئنا به من البديهةِ، وسألوني أن أحمِلَ مكاويَ الكلام على حتارِه، وذكروا أن إدريسَ هجاهُ فأفحشَ، فلمْ أستحْسِنَ الإفحاشَ، فقلتُ فيه مُعرِّضًا إذِ التَّعريضُ من محاسِنِ القول: (من المتقارب)

أبـو جَعفَـرٍ رجُـلٌ كاتِـبٌ مَليحُ شَبا الخَطِّ حُلوُ الخِطابَهْ
تَمـلَّأَ شَـحمًا ولحمًـا ومـا يليـقُ تَملُّـؤُهُ بالكِتـابَهْ
وذو عَـرَقٍ لـيسَ مـاءُ الحَيـاءِ ولكنَّـهُ فضْـلُ رَشْـحِ الجَنابـهْ
جرى الماءُ في سُفلهِ جَرْيَ لِينٍ فأَحْـدثَ في العُلْـوِ منـهُ صلابَـهْ

- قال أبو عامر[1]:

لمّا أُنشِدَ المُعتلي باللهِ يحيى بن علي بن حمّود قولَ ابن قاضي مِيلةَ يصِفُ مَركبًا للروم أوقعَ به المُسلمونَ وغَرَّقوهُ وذكَرَ قَتلَ العِلج: (من البسيط)

إذا طفـا أَبصـرَ الصَّمصـامَ يَرقُبُـهُ أو غاصَ في الماءِ منْ خَوفِ الرَّدى شَرِقا
وأيُّ عيشٍ لمَوقوفٍ على تَلَـفٍ يُراقِبُ المِيْتتيْنِ السيـفَ والغَرَقـا

وكانـتْ إثْـرَ ذلـكَ وَقعَـةٌ للمُعتلـي بـالله علـى السـودانِ بإشـبيليَّةَ، فـأمَر أبـا عبد الله بن الحنَّاط بصِفَة ذلك، إذِ الوقعَتانِ مُتشابِهتَان، ففعل، وبلَغَني أنا ذلك، فكتبتُ إلى المعتلي بشعرٍ طويلٍ في المعنى أولُهُ: (من البسيط)

غَناكَ سعدُكَ في ظِلِّ الظُّبا وسقًى «فاشربْ هنيئًا عليك التّاجُ مُرتفِقا»

(1) ذخيرة ابن بسّام، ج1، ص242.

ومنها في صفةِ الوقعةِ:

سَقيًا لأُسدٍ تَساقى الموتَ أنفُسُها ... وتَلبسُ الصبرَ في يومِ الوغى حَلقا
قامتْ بنَصرِكَ لمّا قامَ مُرتَجِلًا ... خطيبُ جودِكَ فيها ينثُرُ الوَرِقا
سَريتَ تقدُمُ جيشَ النَّصرِ مُتَّخذًا ... سُبْلَ المَجَرّةِ في إثْرِ العُلا طرُقا
في ظلِّ ليلٍ منَ الماذِيِّ مُعتَكرٍ ... يَجلو إلى الخَيلِ منهُ وَجهُكَ الفلَقا
وصفحِ قِرْنٍ غداةَ الرَّوْعِ يكتُبُه ... من الظُّبا قلمٌ لا يَعرِفُ المَشَقا
أجريتَ للزِّنجِ فوقَ النّهرِ نهرَ دَمٍ ... حتى اسْتحالَ سماءً جُلِّلَتْ شفَقا
وساعَدَ الفلَكُ الأعلى بِقتلهمُ ... حتى غدا الفُلْكُ بالناجي به غَرِقا
مِنْ كُلِّ أسودَ لمْ يَدلِف على ثَلَجٍ ... بأنّ جَدّكَ يجْلو صَفحَهُ يَققا
كأنَّ هامَتَه والرمحُ يحمِلُها ... غُرابُ بَيْنٍ على بانِ النّقا نَعقا

ومنها:

إذا ونى ثَغَرَ الخطّيُّ ثُغرَتُهُ ... أو عاذَ بالنهرِ مسلوبَ القُوى غَرِقا
وأيُّ نهرٍ يُرجّي العِبْرَ عابرُهُ ... وسُفْنُهُ طافياتٌ غُودِرَتْ فِلَقا

خاتمة

ما نستشفّه من القراءة في نقد ابن شُهَيد أبي عامر أنه كتب «حانوت عطار» في لحظات من التجلي الذهني، ومن متابعة للنقاد والكتاب العرب، كعبد الحميد الكاتب والحسن بن سهل والجاحظ، وما لديه شخصيًّا من عين بصيرة بالشعر ومُحسِّناته وألفاظه، كذلك حفظه للشعر العربي من جاهلي وإسلامي، وإلى ما استمتع به الشعر الأندلسي من دعابة وتشبيه، مع ما كان للنثر والخطابة في أروقة الحكم من أثرٍ، وعوامل عدة أسهمت في الذائقة الأدبية لدى شاعر حسّاس سريع البديهة، لطيف اللغة، قادر على صوغ النَّفَس الأدبي بما أوتي من بلاغة ومقدرة فائقة في قدرة النقد، كان يشعر أنه قادر على تقديم كتاب «حانوت عطّار» برؤية شموليّة يتحدّى بها علماء عصره.

- وكتاب «حانوت عطّار» هو مقالات كتبها ابن شُهَيد في كراريس ثم جمعها تحت هذا المسمّى، وهذا ما أورد الإشكال في رسالة «التوابع والزوابع».
- ليس كما يقال بأنّ رسالته في التوابع هي تحدٍّ لغيره للتجاوب مع شعراء آخرين قبله من أشهر الشعراء الّذين اختارهم بعناية ليجيزوا شعره، ويعطوه شهادة أو إجازة أنّه أشعرهم، كامرئ القيس وطرفة والمتنبي وحبيب الطائي وأبي نواس، ولكن كان لملَكَته الشعرية أنّه أراد أن ينقل النقد إلى واقع حيّ يرسمه بنظرته الشعرية، وهو لم يقم بمفاضلة بين

الشعراء الذين اختار لهم، بل قام هو ببناء القصيدة ليناقشها، ولم يشأ البتة المقارنة بين شاعر وشاعر كما هو مع النقاد من قولهم: هذا كما قال فلان.

- وفي النقد النثري يتبع نفس الأسلوب أيضًا، فيلازم الكتّاب كالجاحظ وابن سهل ليتكلموا عن نثره هو، ناقلًا ما يقولونه في النثر من سجع وغيره، فجعل المفاضلة في وصف نثره، مع إمكانيّة أن يأتي بأمثلة من النثر التي تعج بها الساحة الأندلسية بعدد لا يحصى من الأندلسيين الذين جمعوا بين الشعر والنثر، وتفنّنوا في كتابة الرسائل في ميادين كثيرة من الإلهام والوصف.
- وناقش الجاحظ مشيرًا إلى كتابه «البيان والتبيين»، كيف أنّه لم يشر إلى إمكانية تعليم البيان، مع سهولة الحصول على معلّمين لتدريس النحو، وقد أراد ليضرب مثلًا في كتابه «الحانوت» عن كيفية تدريس البيان بمثل، فقال بما معناه: كان عندي رجل من الخاصّة من أهل قرطبة، وجلس معنا يوسف بن إسحاق الإسرائيلي، وليعطيَ مبدأً لتعليم أسلوب البيان، رغم أنّه يرى أنّ تلك خاصّية إبداعية، وليست نحواً، أو سهولةً في تعليم الإبداع البياني.
- ما ورد من ذكره لأسماء كثيرة من الشعراء الذين اطّلعنا عليهم، وأكثرهم من «جَذوة المُقتَبِس» للحُميدي، فإنه لم ينقدهم إلّا بكلمات، أو ذكر ما اختاره من شعرهم.
- ما ذكره ابن بسّام في «الذخيرة» ونقله لفصول كثيرة عن أبي عامر ابن

شُهَيد من شعر، ورسائل متعددة، ومقتطفات أدبية، هي بلا شك من «حانوت عطّار»، وقد ذكر ابن بسّام أنّ الرسالة سمّاها ابن شُهَيد شجرة الفاكهة، وتأتي رسالة «التوابع والزوابع» مع مجلس الجنّ أجزاءً من كتاب «حانوت عطّار» وهو من نصّ ابن شُهَيد، حيث يقول في رسالته بلسان أبي بكر: (لا بدّ أنّ له تابعة...)، وتجمع هذين الجزأين شجرة الفاكهة، وهي: كتاب التوابع والزوابع، ومجلس الجن، ولعلّه وضعها: كتاب شجرة الفاكهة: رسالة التوابع والزوابع – مجلس الجن، وهذا ما أوحى به ابن بسّام، أو أَوْهَم به.

- ذكر الكَلاعيّ كلمة: كتاب التوابع والزوابع في كتابه «إحكام صنعة الكلام»، وهذا يدلّنا على أنّ ابن شُهَيد قسّم كتاب «حانوت عطّار» إلى كتاب كذا... وليس إلى أبواب، وكذلك نراه مع ابن حزم في كتابه «التقريب لحدّ المنطق»، وكذلك «ريحانة الكتّاب» للسان الدين بن الخطيب، ويدل على أنّ الحانوت مقسّم إلى كتب، وتكلم فيه داخل الكتاب ما أراده من نقد وأدب.
- وعند تأليف الحُميديّ لجَذوة المُقتَبِس –وقد ألّفه في رحلته إلى الشرق– فمن المتوقّع أنه أخذ نسخة من كتاب الحانوت معه، رغم أنه قال بأن مؤلَّفه من الذاكرة والحفظ.
- وهنالك يتيمة الثعالبي التي ذكر فيها ابن شُهَيد، فعند ذكره لشعر ابن شُهَيد يقول: أنشدني... ، وفي حالة ذكر نثره لم يُروَ عن أحد، وهذا يدلّ على أنّ «الحانوت» انتقل إلى الشرق باكرًا وفي حياة ابن شُهَيد.

- أما ابن الصيرفي فقد اختار ما اختاره من الشعر الأندلسي، وما رواه عن ابن شُهَيد بالنصِّ عليه أنّه من «حانوت عطّار»، مع أنّ ابن الصيرفيّ حسبما ذكر محقّق الكتاب كَتَبَه قبل أن يكتب ابن بسّام ذخيرته.
- وهنالك ذو الوزارتين الكَلاعيّ الذي أدرك ابن بسّام، وكان مع المعتمد ابن عباد، وعمل مع يوسف بن تاشفين، ذكر أنه اشترى بضاعة نقدٍ من «حانوت» ابن شُهَيد. فأورد له في وصف الخطّ، ووصف قرطاس الكتابة وطوله، ووصف القصيدة وما يجب أن تكون عليه من عدد أبياتها.
- ما ذكره الأصفهاني في «خريدته» من مقتطفات ذكر أنّها من «الحانوت» لم تذكرها المصادر الأخرى.
- هنالك لطيفة مع ابن شُهَيد والتوابع، فلقد ذكر أنّ كلَّ الشعراء أجازوه، إلّا تابع أبي الطيّب، فقد أجازه لنكتته، وخفّة جوابه، وليس لشعره، (اذهب، فقد أجزتك للنّكتة، فقبّلت رأسه) وهذا يعطينا منعطفًا مع ابن شُهَيد ورأيه في شعر المتنبي، ومقارنة ذلك مع الشعراء.

و«حانوت عطّار» – في رأينا – أبدع ابنُ شُهَيد في أسلوب كتابته بكلّ ما أوتي من الحبكة الأدبية، ومن أسلوب السّخرية في النقد، في شتى مجالات الكتابة، ليُثبِت مقدرته، وليأتيَ بأسلوب جديد في النقد، هو أسلوب ابن شُهَيد كما هو أسلوبه وطريقته في كتابة الشعر والنثر، وليس مباهاة، بل مقدرته على ذلك.

تخيله لحدوث القصيدة الحرّة

يقول ابن شُهَيد قال لي الجاحظ: فكيف كلامهم بينهم؟ قلت: ليس لسيبويه فيه عمل، ولا للفراهيدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة، إنّما لكنة أعجميّة يؤدُّون بها المعاني تأدية المجوس والنبط.

هذه الجملة من النبوءة التي تنبّأ بها ابن شُهَيد في إمكانية ابتعاد الشعر العربيّ عن الأصول العروضيّة وكتابة شعر حرّ ظهر في هذا العصر وهو القصيدة الحرّة التي بدأها بدر شاكر السياب ونازك الملائكة، والتي ظهرت في هذا العصر، وتجلّت صورتها الواضحة في عدم البيان في القصيدة النثرية، حتى قيل: لم يعنِ المعنى الذي حلّلناه، ولكنّه يقصد عدم معرفة – آخرين – بالعروض والنحو، وأصول اللغة، ولكنّا نعتبرها كلمة خرجت مِنْ عَالَمِ الغيب للغد القادم، ونستطيع أن نقول: إنّه أوّل من تنبّأ بالشعر الحديث، «لكنة أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية المجوس والنبط».

وإذا نظرنا إلى قصيدة النثر فإنها تعتمد على الكلمة المُفرَدة في الإيحاء والرمزية بعيدًا عن سياقها في جملة شعرية، وكذلك إذا تتبّعناها نحويًّا فليس لسيبويه فيها عمل، أي إنّها في النحو تعتمد على كلمة ليس من الضروري أن تكون في جملة لتشرحَها، سواء أكانت هذه الجملة فعلية أو اسمية، وهي لا تتبع البيان في مصدره، بل يرى كُتّاب الشعر الحداثيون أنّها إبداع في التعبير عن الحداثة، والهروب من العروض والنحو، لتكون فكرًا أدبيًّا ينحو نحو تجلّي الشاعر إلى ما يريد التعبير عنه.

وكذلك بدأت قصيدة الشعر الحرّ عند تواصل الشعر العربي بالشعر الوارد

من لغات مختلفة سواء أكانت أوروبية أم غير ذلك، وكان للتأثير النقدي في اللغات الأجنبية تأثير إبداعي في كتابة الشعراء المحدثين.

وهذا أيضًا ما أوحى به ابن شُهَيد – أنهم – في قوله: «يؤدّون بها المعاني تأدية المجوس والنبط». وفي خيالنا أنّها آتية من لغات أخرى أعجمية.

وندرك تأثر ابن الحنّاط إذ التقط هذه الشاردة من ابن شُهَيد، ونحن ندرك العلاقة بينهما والمحبة والمناقضة، فأراد أن يكتب شعرًا بِرَأْيِ ابنِ شُهَيد، فكتب أبياتًا خارجة عن الوزن العروضي يقول فيها:

لَوْ كانَ يَدْرِي الَّذِي فَعَلْ ... أَحْيَا المُحِبَّ الذي قَتَلْ

ظَبْيٌ بِعَيْنَيْهِ أَسْهُمٌ ... في كُلِّ قَلْبٍ لَهَا عَمَلْ

يَحْمَرُّ فِيْ خَدِّهِ دَمِي ... وَيَدَّعِيْ أَنَّهُ خَجَلْ

إنّ ظهور الموشحات في الأندلس، وكذلك شعر الزجل، ليس لها علاقة بما تنبّأ به ابن شُهَيد، إذ كانت مشهورة ومتداولة بين شعراء الأندلس، ونرى أن ابن شُهَيد في عبارته السابقة لا يعني هذه الأشعار خاصّة عندما قال: أعجمية مجوسية أو نبطية.

ما زلنا ندرك أنّ ابنَ شُهَيد شاعر كاتب ناقد، ينظر بأفقه الخاصّ نظرة إلى الشعر العربيّ أو الشعر عامّة على أنّه شعور إنساني تتحرّر معه الكلمة كإبداع لا يمكن الوقوف معه.

ملحق

رسالة التوابع لابن شُهَيد

قال في صدرها مخاطِبًا أبا بكر بن حزم

لله أبا بكرٍ، ظنٌّ رَميته فأصميت[1]، وحدس أمّلته فما أشْويت! أبديتَ بهما وجهَ الجليّة، وكشفتَ عن غرّةِ الحقيقة حين لمحتَ صاحِبَك الذي تكسّبتَه، ورأيتَه قد أخذ بأطراف السماء، فألّفَ بين قَمريها، ونظمَ فرقديها، فلما رأى ثغرًا سدّهُ بسُهاها[2]، أو لمحَ خرقًا رمّهُ بزباناها[3]، إلى غير ذلك. فقلتَ: كيف أوتي الحكم صبيًّا، وهَزّ بجذعِ نخلة الكلامِ فاسّاقط عليه رطبًا جنيًّا،؟ أمَا إنّ به شيطانًا يهديه، وشَيصبانًا[4] يأتيه، وأُقسمُ أنّ لهُ تابعةً تُنجدُه، وزابِعةً تُؤيدُه، ليس هذا في قُدرةِ الإنس، ولا هذا النّفَس لهذه النفْس، فأما وقد قُلتها- أبا بكر- فأصِخ أُسمعك العَجبَ العُجاب:

كنتُ أيامَ كُتّابِ الهِجاء أحنُّ إلى الأُدباءِ، وأصبو إلى تأليفِ الكلام، فاتّبعت الدواوين، وجلستُ إلى الأساتيذ، فَنَبض لي عرق الفهم، ودرّ لي شريانُ العلم، بموادَّ روحانيّة، وقليل الالتماح من النظر يزيدُني، ويَسيرُ المطالعة من الكتب

(1) أصميت: الصّما: التقلب والوثب.

(2) السّهى: كوكب في السماء.

(3) الزّبن: دفع الشيء بالشيء، والمزابنة، وهي: الطناء، كطناء ثمر النخيل.

(4) شيصبان: اسم داهية، وقيل اسم شيطان.

يفيدُني، إذ صادف شنّ العلم طَبَقَه، ولم أكن كالثلج تقتبس منه نارًا، ولا كالحمار يحمل أسفارًا، فطَعنتُ ثُغرةَ البيان دراكًا، وأعلقتُ رجل طيرِه أشراكًا، فانثالت ليَ العجائب، وانهالتْ عليّ الرغائب، وكان لي أوائل صبوتي هوًى اشتدّ به كلَفي، ثم لحقني بعدُ مَلَلٌ في أثناء ذلك الميل، فاتفق أن مات من كُنتُ أهواه مدّةً ذلك الملل، فجزعت وأخذتُ في الحائر، وقد أُبهمت عليّ أبوابه، وانفردتُ فقلتُ: (من المتقارب)

تولّى الحِمامُ بظبي الخُدورِ وفازَ الرّدى بالغزالِ الغريرِ

إلى أن انتهيتُ إلى الاعتذارِ منَ الملل الذي كان، فقلتُ:

وكُنتُ مَلَلْتُكَ لا عن قِلىً ولا عن فَسادٍ جرى في ضَميري

فأرْتِجَ عليَّ القولُ وأُفحِمتُ، فإذا أنا بفارِسٍ ببابِ المجلسِ على فرسٍ أدهمَ كما بَقلَ وجهُه، قد اتكأَ على رمحِه، وصاح بي: أعجزًا يا فتى الإنس؟ قُلتُ: لا وأبيك، للكلام أحيان، وهذا شأنُ الانسان، قالَ لي: قُلْ بعده: (من المتقارب)

كمثلِ مَلالِ الفتى للنعيمِ إذا دامَ فيه وحالِ السرور

فأثبتُّ إجازته، وقُلتُ له: بأبي أنت، من أنتَ؟ قال: أنا زُهيرُ بن نُمير مِن أشجع الجنّ، فقلتُ: وما الذي حداك إلى التصوُّرِ لي؟ فقال: هوًى فيك، ورغبةٌ في اصطفائِكَ، قلتُ: أهلًا بك أيُّها الوجهُ الوَضّاح، صادفتَ قلبًا إليكَ مقلوبًا، وهوىً نحوكَ مجنوبًا، وتحادثنا حينًا ثمّ قال: متى شِئْتَ استحضاري فأنشدْ هذه الأبيات: (من الطويل)

والـى زُهيـرَ الحُـبِّ يـا عَـزَّ أنّـه إذا ذَكرتـــهُ الـــذاكِراتُ أتاهـــا
إذا جـرتِ الأفـواهُ يومًـا بذِكرِهـا يُخيّـــلُ لـــي أني أُقَبِّـــلُ فاهـــا
فأغشى ديـارَ الـذاكرينَ وإنْ نـأَتْ أُجـارعُ مـن داري هـوًى لهواهـا

وأَوثَبَ الأَدهمَ جدارَ الحائطِ ثم غاب عنّي.

وكُنتُ – أبا بكرٍ – متى أُرتجَ عليَّ، أو انقطعَ بي مسْلك، أو خانني أسلوب، أُنشدُ الأبياتَ فيمثلُ لي صاحبي، فأسيرُ إلى ما أرغب، وأُدركُ بقريحتي ما أَطلبُ، وتأكّدت صُحبتُنا، وجَرتْ قِصَصٌ لولا أن يطولَ الكتابُ لذكرتُ أكثرَها، لكنّي ذاكِرٌ بعضَها.

فصل: تذاكرتُ يومًا معَ زُهير بن نُمير أخبارَ الخُطباءِ والشُّعراءِ، وما كان يألفُهُم من التوابعِ والزّوابعِ، وقُلتُ: هل حيلةٌ في لقاءِ من اتّفقَ منهم؟ قال: حتى أستأْذِنَ شَيخنا، وطارَ عني ثُم انصرفَ كلمحٍ بالبصر، وقد أُذِنَ له، فقال: حُلَّ على مَتْنِ الجواد. فَصرنا عليه، وسارَ بنا كالطّائِرِ يَجْتابُ الجَوَّ فالجوَّ، ويَقطعُ الدّوَّ فالدّوَّ، حتى الْتَمحتُ أرضًا لا كأرضِنا، وشارَفتُ جَوًّا لا كَجوِّنا، مُتفرِّعَ الشّجرِ، عطر الزهر، فقالَ لي: حلَلتَ أرضَ الجنّ أبا عامر، فمَن تُريدُ أن نَبدأَ؟ قُلتُ: الخُطباء أولى بالتقديم، لكني إلى الشُّعراءِ أشوَق. قال: فمَن تُريدُ منهُم؟ قلت: صاحب امرئِ القيس، فأمالَ العنانَ إلى وادٍ منَ الأودِيَةِ ذي دَوْحٍ تتكسّرُ أشجارُه، وتترنّمُ أطيارُه، فصاحَ: يا عُتَيبَةُ بن نوفل، بسِقطِ اللوى فحومَل، ويومِ دارةِ جلجُل، إلّا ما عَرضْتَ علينا وجهَك، وأنشدتَنا من شعرك، وسَمِعتَ من الإنسيِّ، وعرَّفتنا كيف إجازَتُكَ له. فظهرَ لنا فارسٌ على فرسٍ شقراء كأنّها

تلتهب، فقال: حيّاك الله يا زُهير، وحيّا صاحِبَك! أهذا فتاهُم؟ قلتُ: هو هذا، وأيُّ جمرَةٍ يا عُتيبة! فقال لي: أنشد، فقلتُ: السيّدُ أولى بالإنشاد، فتطامحَ طرَفُه، واهتز عطفُه، وقبضَ عنانَ الشقراء، وضَربَها بالسوط، فَسَمَت تُحضِرُ طولًا عنّا، وكَرّ فاستقبَلَنا بالصَّعدة هازًّا لها، ثم ركزها وجعل يُنشِد:

«سَما لكَ شوقٌ بعدما كان أقصَرا»

حتى أكملَها، ثُم قال لي: أنشِدْ، فهممتُ بالحيصَةِ ثُم اشتَدّتْ قوى نفسي، وأنشدتُ:

«شَجَتْهُ مَغانٍ مِن سُليمى وأدؤرُ» (من الطويل)

حتى انتهيتُ إلى قولي: (من الطويل)

ومِن قُبّة لا يُدركُ الطرفُ رأسَها ... تَـزلَّ بها ريحُ الصَّبا فتحـدَّرُ

تكلّفتُها والليلُ قد جاشَ بحرُهُ ... وقد جعلتْ أمواجُه تتكسّرُ

ومن تحتِ حضني أبيضٌ ذو سَفاسقٍ ... وفي الكفِّ من عسّالةِ الخَطِّ أسمرُ

هما صاحبايَ من لَدُن كُنتُ يافِعًا ... مُقيلانِ من جّد الفتى حين يعثُرُ

فذا جَدولٌ في الغِمد تُسقى به المُنى ... وذا غُصُن في الكفِّ يُجنى فيثمرُ

فلما انتهيتُ تأمّلني عتيبةُ ثم قال: اذهب فقد أجزتُكَ. وغاب عنّا.

فقال لي زهير: من تُريدُ بعد؟ قلتُ صاحب طَرفة. فجزعنا وادي عتيبة، وركضنا حتى انتهينا إلى غيضةٍ شجرها شجران: سامٍ يفوحُ بهارًا، وشِحْر يعبق هنديًّا وغارًا. فرأينا عينًا مَعينةً تسيل، ويدورُ ماؤُها فلكيًّا ولا يحول. فصاح به زهير: يا عنتر بن العجلان، حلَّ بك زهير وصاحبُه، فبخولة وما قطعت معها

من ليلة، إلّا ما عرضتَ وجهك لنا! فبدا إلينا راكبٌ جميلُ الوجه، قد تَوشَّحَ السيفَ، واشتمل عليه كساءَ خزّ، وبيده خطيٌّ، فقال: مرحبًا بكما! واستنشدَني فقلتُ: الزعيمُ أولى بالإنشاد، فأنشَد: (من الطويل)

«لسُعدى بحزّانِ الشُّرَيْفِ طلولُ»

حتى أكملها، فأنشدته من قصيدة:

أمن رسم دارٍ بالعقيقِ محيلِ (من الطويل)

حتى انتهيتُ إلى قولي: (من الطويل)

ولمّا هبَطنا الغيبَ نذعَرُ وحشَهُ ... على كُلّ خوّار العنان أسيلِ

وثارتْ بناتُ الأعوجيات بالضّحى ... أبابيلَ من أعطافِ غيرٍ وبيلِ

مُسوّمةً نَعتدُّها من خيارِها ... لطردِ قَنيصٍ أو لطردِ رَعيلِ

إذا ما تغنّى الصّحبُ فوق مُتونِها ... ضُحيًّا أجابتْ نحوَهُم بصَهيلِ

نَدوسُ بها أبكارَ نَوْرٍ كأنّه ... رداءُ عروسٍ أُوذِنتْ بحليلِ

رَمينا بها عرضَ الصُّوار فأقْعصَت ... أغَنَّ قتلناهُ بغيرِ قتيلِ

وبادرَ أصحابي النزولَ فأقبلتْ ... كراديسُ من غضِّ الشّواءِ نشيلِ

نُمسِّح بالحَوْذانِ منهُ أكُفَّنا ... إذا ما اقتنصْنا منه غير قليلِ

فقُلنا لساقيها أدرها سُلافةً ... شمولًا ومن عينيك صِرفَ شمولِ

فقامَ بكأسَيْه مُطيعًا لأمرنا ... يُميلُ به الإدلالُ كُلّ مَميلِ

وشَعْشَعَ راحَيْهِ فما زال مائلًا ... برأسِ كريمٍ منهُمُ وتليلِ

إلى أن ثناهم راكدين لِما احتَسوْا ... خليعينَ منْ بَطشٍ وفضلِ عُقولِ

نشاوى على الزهراء صرعى كأنّهُم ... أساطينُ قصرٍ أو جُذوعُ نخيلِ

فصاح عنتر: لله أنت، اذهب فإنك مُجاز. وغابَ عنّا.

ثمّ مِلنا عنه فقال لي زهير: إلى من تَتوقُ نفسُك بعد من الجاهليين؟ قلت: كفاني مَن رأيت، اصرفْ وجه قصدِنا إلى صاحبِ أبي تمام، فركضنا ذات اليمينِ حينًا، ويشتدُّ في أثرِنا فارسٌ كأنّه الأسد، على فرسٍ كأنّها العُقاب، وهو في عَدْوِه ذلك ينشد: (من الطويل)

طعنتُ ابنَ عبدِ القيسِ طعنةَ ثائرٍ لها نَفَذٌ لولا الشّعاعُ أضاءَها

فاستربتُ منه، فقال لي زهير: لا عليك، هذا أبو الخطّار صاحبُ قيس بن الخطيم. فاستبى لُبِّي من إنشادِه البيتَ، وازدَدْتُ خوفًا لجرأته، وأننا لم نُعَرِّجْ عليه، فصرفَ إليه زهيرٌ وجه الأدهم، وقال: حيّاك اللهُ أبا الخطّار، فقال: أهكذا يُحادُ عن أبي الخطّار ولا يُخطَرُ عليه؟ قال: علمناك صاحبَ قَنص، وخفنا أن نشغلَكَ، فقال لي: أنشدني يا أشجَعي، وأقسِمُ أنّك إن لم تُجِدْ ليكوننّ يومَ شرٍّ، فأنشدته قولي من قصيدة:

منازِلُهم تبكي إليكَ عَفَاءَها (من الطويل)

ومنها: (من الطويل)

خليلَيّ عوجا بارك الله فيكُما بدارتِها الأولى نُحَيٍّ فِناءَها

فَلَمْ أرَ أسرابًا كأسرابِها الدُّمى ولا ذئبَ مثلي قد رعى ثَمَّ شاءَها

ولا كضلالٍ كان أهدى لصَبْوَتي ليالِيَ يهديني الغرامُ خباءها

وما هاج هذا الشّوقَ إلّا حمائمٌ بكيتُ لها لمّا سَمِعتُ بُكاءَها

عَجبتُ لنفسي كيفَ مُلِّكَها الهوى وكيفَ استَفزَّ الغانياتُ إباءَها

ولـو أنّنـي أَنْحَـتْ علـيَّ أكـارمٌ ... تَرضَّـيتُ بـالعِرْضِ الكـريمِ جَزاءَهـا
ولكـنّ جُـرذانَ الثُّغـورِ رَميـنني ... فأكرمتُ نفسي أن أريـقَ دماءَهـا
إليـك أبـا مـروانَ ألقيـتُ رابيًـا ... بحاجة نفسٍ ما حربتُ خَزاءَهـا
هززتُك في نصري ضُحىً فكأنني ... هززتُ وقد جئتُ الجبالَ حِراءَها
نقضتُ عُرى عَزمِ الزمانِ وإن عَتا ... بعزمَـةِ نَفـسٍ لا أُريـدُ بقاءَهـا

فلمّا انتهيتُ تبسمَ وقال: لَنِعْمَ ما تَخلصتَ! اذهبْ فقد أجزتُك.

ثُم انصرفنا وركضنا حتى انتهينا إلى شَجرةٍ غيْناء، يتفجّرُ من أصلِها عينٌ كمقلة حوراء. فصاح زُهير: يا عتّاب بن حبناء، حلَّ بكَ زهير وصاحِبُه، فَبعَمْرِو والقمرِ الطالعِ، وبالرّقعَةِ المفكوكة الطابعِ، إلّا ما أريتَنا وجهك! فانفَلقَ ماءُ العينِ عن وجه فتىً كفلقَةِ القمرِ، ثم اشْتقّ الهواءَ صاعدًا إلينا من قَعرها حتى استوى معنا. فقال: حيّاك الله يا زهير، وحيّا صاحِبَك! فقلتُ وما الذي أسكنك قعر هذه العين يا عتّاب؟ قال: حيائي من التحسُّنِ باسمِ الشعر وأنا لا أُحسِنُه. فصحتُ: وَيلي منه، كلامُ مُحْدَثٍ وربِّ الكعبة، واستنشدني فلم أُنشده إجلالًا له، ثم أنشدته:

أَبَكيتَ إذ ظَعَنَ الفريقُ فراقَها (من الكامل)

حتى انتهيتُ فيها إلى قولي: (من الكامل)

إنّـي امـرؤٌ لَعـبَ الزمـانُ بِهـمّتي ... وسُقيتُ من كأسِ الخطوبِ دهاقَها
وكَبَوتُ طِرْفًا في العُلا فاستَضْحكَتْ ... حُمُـرُ الأنـامِ فمـا تَـريمُ نهـاقَها
وإذا ارتمتْ نحوي المنى لأَنالَها ... وقـفَ الزمـانُ لهـا هُنـاك فعـاقَها

وإذا أبــو يحيــى تــأخّرَ نفسُــه فمتى أُومّـلُ في الزمـان لَحـاقَها؟

فلمّا انتهيتُ قال: أنشدني من رثائك. فأنشدته: (من المتقارب)

أَعينــا امــرأً نزَحَــتْ عينُــه ولا تَعجبـا مـن جُفـونٍ جِمـادِ
إذا القلــبُ أحرقَــه بَثُّــهُ فـإنّ المـدامِعَ شـلْوُ الفُـؤادِ
يَــودُّ الفتــى مَــنهلًا خاليًــا وســعدُ المنيــةِ في كُــلِّ وادِ
ويَصـرِفُ للكـون مـا في يديـه ومـا الكـونُ إلّا نـذيرُ الفسـادِ
لقــد عَثَــرَ الــدهرُ بالســابِقينَ ولمْ يُعجِزِ الموتَ رَكضُ الجوادِ
لَعمـرُك مـا ردَّ ريـبَ الـرّدى أريــبٌ ولا جاهــدٌ باجتهــادِ
ســهامُ المنايـا تُصـيبُ الفـتى ولــو ضَــربوا دونــه بالســدادِ
أصَـبْنَ علـى بطشِـهم جُرْهُمًـا وأصْـمَينَ في دارهـم قـومَ عـادِ
وأقعصْــنَ كلبًــا علــى عِــزِّه فمـا اعتـزّ بالصـافناتِ الجيـادِ

إلى أن انتهيتُ فيها إلى قولي: (من المتقارب)

ولكننــي خــانني مَعشَــري ورُدْتُ يفاعًــا وَبيــلَ المَــرادِ
وَهلْ ضَربَ السيفُ من غيرِ كفٍّ؟ وهـل ثَبـتَ الـرأسُ في غيـرِ هـادِ؟

فقال: زدني من رِثائكَ وتحريضك، فأنشدتهُ: (من الطويل)

أَفي كُـلِّ عـامٍ مَصـرعٌ لعظـيمِ؟ أصـابَ المنايـا حـادِثي وقديمـي
هَـوى قَمـرا قيسِ بـنِ عيلان آنِفًـا وأوحشَ مـن كلـبٍ مكـانُ زَعـيمِ
فكيفَ لِقائي الحادثاتِ إذا سطَـتْ وقد فُـلّ سيفي منهُـمُ وعَزيمـي؟
وكيفَ اهتِدائي في الخطوبِ إذا دَجتْ وقد فقدَتْ عينايَ ضـوءَ نُجـومِ؟

مضى السَّلَفُ الوَضّاحُ إلّا بقيَّةً ... كغُرَّةِ مُسوَدِّ القميصِ بَهيمِ

ومنها: (من الطويل)

رميتُ بها الآفاقَ عنّي غريبةً ... نتيجةَ خَفّاقِ الضُّلوعِ كظيمِ
لأبدي إلى أهل الحِجى من بواطني ... وأُدلي بعُذرٍ في ظواهرِ لومِ
أنا السيفُ لم تتعَبْ به كَفُّ ضاربٍ ... صروم إذا صادَفْتُ كفَّ صَرومِ
سَعيتُ بأحرارِ الرجالِ فخانَني ... رِجالٌ ولم أُنجَدْ بجِدٍّ عَظيمِ
وضيّعني الأملاكُ بَدْءاً وعَودةً ... فَضِعتُ بدارٍ منهُمُ وحَريمِ

فقال: إن كُنتَ ولا بُدّ قائلًا، فإذا دَعَتْكَ نفسُكَ إلى القولِ فلا تكُدَّ قريحتَك، فإذا أكملتَ فجَمامُ ثلاثةٍ لا أقلَّ، ونَقّح بعد ذلك، وتذكّر قولَه: (من الطويل)

وجَشّمَني قولُ ابنِ عفّانَ رَدَّها ... فثقَّفتُها حولًا كريتًا ومَرْبَعا
وقد كان في نفسي عليها زيادةٌ ... فلمْ أَرَ إلّا أنْ أُطيعَ وأسمعا

وما أنت إلّا مُحسنٌ على إساءةِ زمانك. فقبّلتُ رأسَهُ، وغاصَ في العين.

ثمّ قال لي زهير: مَن تُريدُ بَعدَه؟ قلت: صاحبَ أبي نواس، قال: هو بدَيرِ حَنّة منذ أشهر، قد غلبتْ عليه الخمر، ودَيرُ حَنّة في ذلك الجبل. وعَرَضَه عليّ، فإذا بيننا وبينه فراسخ، فركضنا ساعة، وجُزنا في ركضنا بقصرٍ عظيمٍ قُدّامُه ناورد يتطاردُ فيه فُرسان، فقلتُ: لِمن هذا القصر يا زُهير؟ قال: لطوقِ بن مالك، وأبو الطبع صاحبُ البحتري في ذلك النّاوردِ فهل لك في أن تراه؟ قلتُ: ألف هل، إنه لمن أساتيذي، وقد كُنتُ أُنسيتُه، فصاح: يا أبا الطبع! فخرج إلينا فتىً على فرسٍ أشعل، وبيدهِ قناة، فقال له زُهير: إنك مُؤْتَمُّنا، فقال: لا، صاحبُكَ أشمخُ

مارنًا من ذلك لولا أنّه ينقصُه، قلتُ: أبا الطبعِ على رِسْلكَ، إنّ الرجالَ لا تكالُ بالقُفزان. أنشدنا من شعرك. فأنشد:

ما على الركبِ منْ وقوفِ الركابِ (من الخفيف)

حتى أكملَها، ثم قال: هاتِ إنْ كنتَ قلتَ شيئًا، فأنشدتُه:

هذه دارُ زينبٍ والرَّبابِ (من الخفيف)

حتى انتهيتُ فيها إلى قولي: (من الخفيف)

وارْتَكضنا حتى مَضى الليلُ يسعى ... وأتى الصُّبحُ قاطعُ الأسبابِ
فكأنَّ النجومَ في الليلِ جَيشٌ ... دخلوا للكُمونِ في جوفِ غابِ
وكأنَّ الصباحَ قانصُ طيرٍ ... قَبضَتْ كَفُّه بِرِجْلِ غُرابِ

حتى انتهيتُ فيها إلى قولي: (من الخفيف)

وَفُتُوٍّ سَرَوْا وقد عكفَ الليلُ ... وأرخى مُغْدَوْدِنَ الأطنابِ
وكأنَّ النجومَ لمّا هَدَتْهُم ... أشرقَتْ للعُيونِ منْ آدابي
يَتَقَرَّوْن جَوْزَ كُلِّ فلاةٍ جُنحَ ليلٍ ... جوزَاؤُهُ مِن رِكابي
عنَّ ذِكري لِمُدْلِجيهمْ فتاهوا ... مِن حديثي في عُرضِ كلِّ عُجابِ
همَّةٌ في السماءِ تَسحبُ ذيلًا ... مِن ذُيولِ العُلا وجَدٌّ كابي
ولوَ انَّ الدنيا كريمةُ نحرٍ ... لمْ تكُنْ طعمةً لِفَرْسِ الكلابِ
جيفةٌ أنتَنتْ فطارَ إليها ... منْ بني دهرِها فراخُ الذبابِ

حتى أكملتُها، فكأنما غَشّى وجهَ أبي الطبعِ قطعةٌ منَ الليلِ، وكَرَّ راجِعًا إلى ناوَرْدِه دون أن يُسلّم. فصاح به زُهير: أأجَزتَه؟ قال: أجَزتُهُ، لا بورِك فيك من

زائِر، ولا في صاحِبِك أبي عامر.

فضربَ زهيرٌ الأدهَمَ بالسّوطِ، فسار بنا في قَننه، وسرنا حتى انتهينا إلى أصلِ جبلِ دَيْر حَنّة، فَشقَّ سمعي قَرعُ النواقيس، فصحتُ: مِن مَنازلِ أبي نواس، وربِّ الكعبةِ العلياء! وسِرْنا نَجتابُ أديارًا وكنائِسَ وحاناتٍ، حتى انتهينا إلى دَيرٍ عظيمٍ تعبَقُ روائِحُه، وتَصوكُ نوافِحُه، فوقف زهيرٌ ببابه وصاح: سلامٌ على أهلِ دَيرِ حَنّة! فقُلتُ لزهير: أوَ هل صِرنا بذاتِ الأُكيراح؟ قال: نعم. وأقبلت نحونا الرّهابينُ، مُشددةً بالزنانير، قد قبضَتْ على العَكاكيز، بيضَ الحواجبِ واللحى، إذا نظروا إلى المرءِ استحيا، مُكثرينَ للتسبيح، عليهم هديُ المسيح، فقالوا: أهلًا بك يا زُهير من زائرٍ، وبصاحبكَ أبي عامر، ما بُغْيَتُك؟ قال: حُسين الدّنان. قالوا إنه لفي شُربِ الخمرة، مُنذُ أيامٍ عشرَة، وما نراكُما مُنتفعينَ به. فقال: وعلى ذلك. ونزلنا وجاؤوا بنا إلى بيتٍ قد اصطَفّتْ دِنانُه، وعكَفتْ غزلانُه، وفي فُرجته شيخٌ طويلُ الوجهِ والسَّبَلة، قد افترشَ أضغاثَ زهر، واتّكأَ على زقٍّ خمر، وبيدِه طرجهارة وحواليه صِبيةٌ كأَظْبٍ تعطو إلى عَرارةٍ. فصاحَ به زُهير: حيَّاك اللهُ أبا الإحسان! فجاوبَ بجوابٍ لا يُعقل لغلبةِ الخمر عليه. فقال لي زهير: اقرعْ أُذُنَ نشوتِه بإحدى خمرياتك، فإنهُ رُبما تنبَّه لبعضِ ذلك، فصِحْتُ أُنشدُ من كلمة لي طويلةٍ: (من الكامل)

ولـرُبّ حـانٍ قـد أَدرْتُ بدَيـرِهِ ... خمرَ الصبا مُزِجتْ بصفوِ خُمورِهِ

في فِتيـةٍ جعلـوا الزقـاقَ تِكـاءَهُم ... مُتصـاغِرينَ تخَشُّـعًا لِكَـبيرِهِ

والَـى عَلـيّ بطَرْفِـهِ وبكَفّـه ... فأمـالَ مـن رأسـي لِعَـبٍّ كـبيرِهِ

وتَـرنَّمَ النـاقوسُ عنـد صلاتِهـم ... ففتَحتُ من عيني لرَجْعِ هَـديرِهِ

يُهدي إلينا الراحَ كُلُّ مُعَصفَرٍ كالخشْفِ خفّرَهُ التِماحُ خَفيرِهِ

فصاحَ من حبائلِ نشوتِهِ: أَأَشْجعي؟ قلتُ: أنا ذاك، فاستدعى ماءً قراحًا، فشرِبَ منه وغَسلَ وجهَهُ، فأفاقَ واعتذرَ إليّ من حالِه، فأدركتني مهابتُه، وأخذتُ في إجلالِه، لمكانهِ من العلمِ والشِّعر، فقال: أَنشدْ، أو حتى أُنشِدُك؟ فقلتُ: إن ذلك لأشدّ لتأنيسي، على أنّه ما بعدك لمحسنٍ إحسانٌ، فأنشد: (من البسيط)

يا دَيرَ حنّة من ذاتِ الأكَيراحِ مَنْ يَصحُ عنكَ فإني لستُ بالصاحي
يَعتادُهُ كُلُّ محفوفٍ مَفارِقُهُ من الدّهانِ عليهِ سحقُ أمْساحِ
لا يَدلفونَ إلى ماء بآنِيَةٍ إلّا اغترافًا منَ الغُدرانِ بالراحِ

فكِدتُ والله أخرجُ من جلدي طربًا. ثم أنشد:

طرحتُم مِنَ الترحالِ أمرًا فغمّنا (من الطويل)

وأنشدَ أيضًا: (من الطويل)

لِمَن دمنٌ تزدادُ طيبَ نسيمِ على طيبِ ما أقوتْ وحسنِ رُسومِ
تجافَى البِلى عنهنَّ حتّى كأنّما لَبِسنَ مِنَ الإقواءِ ثَوبَ نعيمِ

واستمرَّ فيها حتى أكمَلها. ثم قال لي: أَنشِد، فقلتُ: وهل أبقيتَ للإنشادِ موضعًا؟ قالَ: لا بُدَّ لك، وأوعثْ بي ولا تُنجِد. فأنشدتُه: (من الرَّمَل)

أصفيحٌ شِيمَ أم برقٌ بدا أم سنا المحبوبِ أورى أزنُدا؟
هَبّ مِنْ مَرقدِه مُنكسِرًا مُسْبلًا لِلكُمِّ مُرْخٍ للرِّدا
يمسحُ النعسَةَ من عينَيْ رشا صائدٍ في كُلّ يومٍ أسدا

قُلتُ: هَبْ لي يا حبيبي قُبلةً ... تَشْفِ من عَمِّكَ تبريحَ الصدى
فانثنى يهتزُّ من منكبِهِ ... قائلًا: لا، ثُم أعطاني اليدا
كُلّما كَلّمني قَبّلتُه ... فهو إمّا قال قولًا ردّدا
كادَ أن يَرجِع من لَثْمي له ... وارتشافي الثغرَ منهُ أدردا
قال لي يلعبُ: خُذْ لي طائرًا ... فتراني الدهرَ أجري بالكُدى
وإذا استنجَزتُ يومًا وَعْدَهُ ... قال لي يَمْطُلُ: ذكِّرني غدا
شَربتْ أعطافُهُ خمرَ الصِّبا ... وسقاهُ الحُسنُ حتى عَربدا
وإذا بتُّ به في رَوضَةٍ ... أغيدًا يَقْرو نباتًا أغيدا
قامَ في الليلِ بِجيدٍ أَتلَعٍ ... يَنفضُ اللِّمّةَ من دمعِ الندى
رَشأٌ بل غادةٌ ممكورةٌ ... عَمَّمَت صُبحًا بليلٍ أسودا
أحّحت من عضّتي في نهدها ... ثُم عضّتْ حُرّ وجهي عمَدا
فأنا المجروحُ من عَضّتِها ... لا شَفاني اللهُ منها أبدا

فلمّا انتهيتُ قال: لله أنت، وإن كان طَبعُك مُخترعًا منك، ثم قال لي: أنشدني من رِثائِك شيئًا، فأنشدته من قولي في بُنيّةٍ صغيرة: (من الرَّمَل)

أيُّها المُعتّدُّ في أهل النُّهى ... لا تذُبْ إثْرَ فقيدٍ وَلهى

حتى انتهيتُ إلى قولي: (من الرَّمَل)

وإذا الأُسْدُ حمَتْ أغيالَها ... لم يضُرَّ الخيسَ صَرْعاتُ المها
وغريبٌ يا بْنَ أقمارِ العُلا ... أنْ يُراعَ البدرُ من فَقْدِ السّها

فلما انتهيتُ قالَ لي: أنشدني من رِثائكَ أشَدَّ من هذا وأفصح، فأنشدتُه من

رثائي في ابنِ ذكوان، ثم قال: أنشدني جحدريتَك من السجن، فأنشدته:

قريبٌ بمُحتلِّ الهوانِ بعيدُ (من الطويل)

حتى انتهيتُ فيها إلى قولي: (من الطويل)

فإنْ طالَ ذكري بالمجونِ فإنّني ... شَقِيٌّ بمنظومِ الكلامِ سعيدُ

وهَلْ كُنتُ في العُشّاقِ أوّلَ عاشِقٍ ... هَوتْ بِحجاهُ أعيُنٌ وخُدودُ؟

فمَنْ مُبلِغُ الفِتيانِ أنّيَ بعدَهُم ... مُقيمٌ بدارِ الظالمينَ طريدُ؟

ولستُ بذي قَيدٍ يَرِقُّ وإنما ... على اللحظ من سخطِ الإمام قُيودُ

فبكى لها طويلًا ثُم قال: أنشدني قطعةً من مجونك، فقد بَعُدَ عهدي بمثلِك، فأنشدتُه: (من المتقارب)

ونـاظِرَةٍ تحتَ طَيِّ القِناعِ ... دعاها إلى اللهِ والخيرِ داعي

سعَتْ بابنِها تبتغي منزِلًا ... لوَصلِ التّبَتُّلِ والانقطاعِ

فجاءت تَهادى كمثلِ الرؤوم ... تُراعي غزالًا بأَعلى يفاعِ

أتتْنا تَبخْتَرُ في مَشْيِها ... فحلّتْ بوادٍ كثيرِ السّباعِ

وريعَتْ حذارًا على طفلِها ... فناديتُ يا هذه لا تُراعي!

فولّتْ وللمِسكِ من ذيلِها ... على الأرضِ خطٌّ كظهرِ الشّجاع

فلما سَمعَ هذا البيتَ قامَ يرقُصَ به ويُردّدهُ، ثم أفاق، ثم قال: هذا والله شيء لم نُلْهَمْه نحن، ثم استدناني فدنوتُ منه، فقبّل بين عَينيّ، وقال: اذهب فإنك مُجاز على بَظرِ أمّ الكاره.

فانصرَفنا عنه وانحدَرنا من الجبل، فقال لي زهير: ومَنْ تُريدُ بعد؟ قُلت له:

خاتمةَ القومِ صاحبَ أبي الطّيب، فقال: اشددْ له حيازيمك، وعطّرْ له نسيمَك، وانثر عليه نُجومَك. وأمالَ عِنانَ الأدهم إلى طريق، فجعلَ يركضُ بنا، وزهير يتأمّل آثارَ فرسٍ لمحناها هناك، فقلتُ له: ما تتبُّعُكَ لهذه الآثار؟ قال: هي آثارُ فرسِ حارِثةَ بن المغلس صاحبِ أبي الطّيّب، وهو صاحبُ قنص. فلم يزل يتقرّاها حتى دفعنا إلى فارسٍ على فرسٍ بيضاء كأنه قضيبٌ على كثيب، وبيدهِ قناةٌ قد أسندها إلى عُنُقِه، وعلى رأسه عِمامةٌ حمراء، قد أرخى لها عذبةً صفراء. فحيّاه زهير، فأحسن الرّد ناظرًا من مقلةٍ شوساء، قد مُلِئَتْ تيهًا وعُجبا، فعرّفَه زهير قصدي وألقى إليه رغبتي. فقال: بلغني أنه يتناول، قلتُ: للضرورة الدافعة، وإلّا فالقريحةُ غيرُ صادِعَة، والشفرَةُ غيرُ قاطِعة، قال: فأنشدني، وأكبرتُهُ أن أستنشده، فأنشدته قصيدتي التي أوّلها:

أبرقٌ بدا أم لمعُ أبيضَ قاصِلِ (من الطويل)

حتى انتهيتُ فيها إلى قولي: (من الطويل)

تـردّدَ فيهـا الـبرقُ حتـى حَسبْتُـه ... يُشيرُ إلـى نجـمِ الرُّبى بالأنـاملِ

رُبىً نَسجتْ أيدي الغَمامِ للُبسِها ... غلائلَ صُفرًا فوقَ بيضٍ غـلائِلِ

سَهِرتُ بها أرعى النجومَ وأنجُمًا ... طوالِـعَ للـرّاعينَ غـيرَ أوافِـلِ

وقـد فغَـرتْ فاهـا بهـا كـلُّ زهـرةٍ ... إلـى كـلِّ ضَـرْعٍ للغمامـة حـافِلِ

ومرَّتْ جيوشُ المُزنِ رَهْواً كأنّها ... عساكرُ زنجٍ مذهبات المـناصلِ

وحلقتِ الخضراءُ في غُرّ شُهبـها ... كلُجّـةِ بحـرٍ كُلِّـلَتْ باليـعالل

تخالُ بها زُهرَ الكواكبِ نرجِسًا ... علـى شـطِّ وادٍ للمجـرةِ سـائلِ

وتلمـحُ مـن جوزائهـا في غُروبِـها ... تساقُطَ عرشٍ واهنِ الدعمِ مـائلِ

وتحسَبُ صقرًا واقعًا دَبَرانَها ... بِعُشّ الثُريّا فوقَ حُمرِ الحواصِلِ
وبَدرَ الدجى فيها غديرًا وحولَهُ ... نجومٌ كطلعاتِ الحَمامِ النّواهلِ
كأن الدُّجى همّي ودمعي نجُومُه ... تحدّرَ إشفاقًا لدهرِ الأراذلِ
هوتْ أنجمُ العلياء إلّا أقلَّها ... وغِبنَ بما يحظى به كلُّ عاقلِ
وأصبحتُ في خَلْفٍ إذا ما لمَحتُهُم ... تبيّنتُ أنّ الجهلَ إحدى الفضائلِ
وما طاب في هذي البريّةِ آخِرٌ ... إذا هو لم يُنجِدْ بطيبِ الأوائلِ
أرى حُمُرًا فوقَ الصواهلِ جَمّةً ... فأبكي بعيني ذُلَّ تلك الصّواهِلِ
وَرُبَّتَ كُتّابٍ إذا قيلَ: زَوِّروا ... بكتْ مِنْ تَأَنّيهم صُدورُ الرّسائلِ
وناقلِ فقهٍ لمْ يرَ اللهَ قلبُه ... يَظنُّ بأن الدينَ حفظُ المسائلِ
وحاملِ رُمحٍ راحَ فوقَ مَضائه ... به كاعبًا في الحيِّ ذاتَ مغازلِ
حُبُوا بالمنى دوني وغُودِرتُ دونَهم ... أرودُ الأماني في رياضِ الأباطِلِ
وما هيَ إلّا هِمّةٌ أشجعِيّةٌ ... ونفسٌ أبت لي من طلابِ الرذائلِ
وفهمٍ لَوِ البِرْجيسُ جئتُ بحَدِّهِ ... إذًا لتلقّاني بنحسِ المقاتلِ
ولمّا طما بحرُ البيانِ بفكرتي ... وأغرقَ قرنَ الشمسِ بعضُ جداولي
رَحلتُ إلى خيرِ الورى كُلَّ حُرّةٍ ... من المدحِ لم تَخْمُلْ برَعْيِ الخمائلِ
وكدتُ لِفضلِ القولِ أَبلغُ ساكتًا ... وإنْ ساء حُسّادي مدى كُلِّ قائلِ

فلما انتهيتُ قال: أنشدني أشدّ من هذا، فأنشدتُه قصيدتي: (من الكامل)

هاتيْك دارُهُم فقفْ بمعانها

فلمّا انتهيتُ قال لزهير: إن امتدَّ به طلَقُ العُمر، فلا بُدّ أن يَنفُثَ بِدرر، وما أراه إلّا سَيُحتضَر، بين قريحَةٍ كالجمر، وهِمّةٍ تضَعُ أخمصَه على مَفرقِ البدر.

فقلتُ: هلّا وَضعتَه على صَلعَة النسر؟ فاستَضْحكَ إليّ وقال: اذهبْ فقد أجَزتُك بهذه النُّكتة. فقبّلتُ على رأسِه وانصرفنا.

قال لي زهير: من تُريدُ بعدَه؟ فقلتُ: مِل بي إلى الخُطباء، فقد قضَيتُ وَطرًا من الشُّعراءِ. فركضنا حينًا طاعِنين في مطلعِ الشمس، ولقينا فارسًا أسرَّ إلى زهير، وانجزعَ عنا. فقال لي زهير: جُمِعتْ لك خُطباءُ الجنّ بمرجِ دهمان، وبيننا وبينهُم فرسخان، فقد كُفيتَ العَناءَ إليهم على انفِرادِهم. قلتُ: لمَ ذاك؟ قال: للفرقِ بين كلامين اختلف فيه فِتْيان الجنّ. وانتهينا إلى المرج فإذا بنادٍ عظيم، قد جمع كُلَّ زعيم، فصاح زهير: السلامُ على فُرسان الكلام، فَردُّوا وأشاروا بالنزول، فأفرجوا حتى صِرنا مركزَ هالةِ مَجلِسهم، والكُلُّ منهم ناظرٌ إلى شيخٍ أصلع، جاحِظ العين اليمنى، على رأسه قَلَنسُوَةٌ بيضاءُ طويلة. فقلتُ سِرًا لزهير: مَنْ ذلك؟ قال: عُتبة بن أرقم صاحبُ الجاحظ، وكُنيتُه أبو عُتيبة، قلتُ: بأبي هو! ليس رغبتي سواه، وغيرَ صاحبِ عبدِ الحميد. قال لي: إنه ذلك الشيخُ الذي إلى جنبِه، وعرَّفَه صَغْوي إليهِ وقولي فيه، فاستَدْناني وأخذ في الكلام معي، فصَمَتَ أهلُ المجلِس، فقال: إنّك لخطيب، وحائكٌ للكلامِ مُجيد، لولا أنك مُغرى بالسَّجَع، فكلامُك نظمٌ لا نثر. فقلتُ في نفسي: قرعك- بالله- بقارِعَتِه، وجاءكَ بمُمَاثَلَتِه. ثم قلتُ له: ليس هذا -أعزَّكَ الله- منّي جهلًا بأمرِ السجع، وما في المُمَاثَلَةِ والمُقَابَلةِ من فضل، ولكنّي عَدمتُ ببلدي فُرسان الكلام، ودُهيتُ بغَباوةِ أهلِ الزمان، وبالحرى أن أحرّكَهُم

بالازدِواج. ولو فَرَشتُ للكلام فيهم طَوْلَقًا[1]، وتحرّكتُ لهم حرَكة مُشَوْلِم[2]، لكان أرفع لي عندهُم، وأولجَ في نفوسهِم، فقال: أهذا على تلك المناظر، وكِبَرِ تلك المحابِر، وكمالِ تلك الطّياليس؟ قلتُ نعم، إنها لِحاءُ الشّجر، وليس ثَمّ ثمَرٌ ولا عَبق. قال لي: صدقت، إني أراك قد ماثلت معي، قلتُ: كما سمعت. قال: فكيف كلامُهم بينهم؟ قلتُ ليس لسيبويه فيه عمل، ولا للفراهيديّ إليه طريق، ولا للبيانِ عليه سِمَة، إنّما لكنة أعجمية يؤدّونَ بها المعاني تأديَة المجوس والنبط. فصاح: إنّا لله، ذهبت العربُ وكلامُها! ارمِهِم يا هذا بسَجع الكُهّان، فعسى أن ينفعَك عندهُم، ويُطير لك ذكرًا فيهم، وما أراكَ مع ذلك إلّا ثقيلَ الوطأَةِ عليهِم، كريهَ المَجيء إليهم. فقال الشيخُ الذي إلى جانبه، وقد علمتُ أنه صاحِبُ عبد الحميد، ونفسي مُرتَقِبةٌ إلى ما يكونُ منه: لا يَغُرّنّكَ منه أبا عيينة ما تكلّفَ لك مِنَ المُماثلَة، إنّ السّجع لطبعُه، وإنّ ما أسمَعَك كُلفة، ولو امتدّ به طَلَقُ الكلام، وجرتْ أفراسُه في ميدانِ البيان، لصَلّى كَودَنُه، وكَلَّ بُرثُنُه، وما أراهُ إلّا مِنَ اللُّكْنِ الذي ذكَر، وإلّا فما للفصاحَةِ لا تهدر، وللأعرابيّةِ لا تُومِض، فقلتُ في نفسي: طبعُ عبد الحميدِ ومَساقُه ورَبِّ الكعبَة، فقلتُ له: لقد عجِلتَ أبا هُبيرة -وكان زهيرٌ عرّفَني بكُنيته- إنّ قوسَك لنبع، وإنّ ماء

(1) طولق: يقول: د. إحسان عباس في تحقيق الذخيرة، مج1، ص209. حاولت شرح هذه الكلمة، وفي ظني أن معناها لم يتحدد بوضوح، وكلمة يفرش تفيد أنها حصير أو بساط أو ما أشبه، على أن يقترن ذلك بالشّعوذة، أو بالعودة إلى بيع العقاقير، أوبالتكلّم ببذاءة.

(2) مع إحسان عباس، نفس المصدر: في كليلة ودمنة: فارقي بهذه الرقية (شولم) سبع مرات، فلعل حركة مشولم هي حركة الراقي وهو يُردد لفظة شولم.

سَهمِكَ لسُمّ، أحمارًا رَمِيْتَ أم إنسانًا، وقَعقَعةً طلبتَ أم بيانًا؟ وأبيك إنّ البيان لَصَعب، وإنّك منه لفي عَباءَةٍ تتكَشّفُ عنها أستاهُ معانيك، تكَشّفَ اسْتِ العنزِ عن ذَنبها، الزمانُ دِفءٌ لا قَرّ، والكلامُ عراقيٌ لا شاميّ، إنّي لأرى من دم اليربوعِ بكفَّيك، وألمحُ من كُشى الضّبِّ على ماضِغَيْك. فتبسّمَ إليّ وقال: أهكذا أنت يا أُطَيْلِسُ، تركَبُ لكلِّ نَهْجَه، وتَعُجُّ إليه عَجَّه؟ فقلت: الذئبُ أطلس، وإنّ التيسَ ما عَلِمتَ، فصاحَ به أبو عُيينة: لا تعرضْ له، وبالحرى أن تَخلُصَ له. فقلتُ: الحمدُ لله خالقِ الأنامِ في بُطون الأنعام! فقال: إنّها كافِيَةٌ لو كان لها حِجْر، فبسطاني وسألاني أن أقرأ عليهما، فقرأتُ رِسالتي في صِفَة البردِ والنار والحطبِ فاستحسناها، ومن رسالتي في الحَلواء، حيثُ أقول:

خرجتُ في لُمَّة منَ الأصحاب، وثُبّةٍ من الأتراب، فيهم فَقِيه ذو لَقْم، ولمْ أعرف به، وغَريمُ بطنٍ، ولم أَشعُر له، رأى الحلوى فاسْتَخفّه الشّره، واضْطرَب به الوَلَه، فدار في ثِيابِه، وأسالَ مِنْ لعابه، حتى وَقفَ بالأكداس، وخالطَ غمارَ الناس، ونظر إلى الفالوذجِ فقال: بأبي هذا اللَّمْص، انظروه كأنه الفَصّ، مُجاجةُ الزنابير، أُجرِيَت على شوابير، وخالطها لُبابُ الحبّة، فجاءتْ أعذبَ منْ ألْسِنة الأحبّة.

ورأى الخبيصَ فقال: بأبي هذا الغالي الرّخيص، هذا جليدُ سماءِ الرّحمة، تمخّضَتْ به فأبرزت منه زُبدَ النعمة، يُجرحُ باللحظ، ويذوبُ من اللفظ، بِمَ ابيَضّ؟ قالوا: بماءِ البيْضِ البَضّ. قال: غضٌّ من غضّ. ما أطيَبَ خَلْوة الحبيب، لولا حضرةُ الرقيب!

ولَمحَ القُبَيْطاء فصاح: بأبي نُقرَةُ الفضّة البيضاء، لا تَرُدُّ عن العَضّة. أبنارٍ

طُبِختْ أمْ بنور؟ فإني أراها كقِطَعِ البلُّور، وبلوزٍ عُجِنت أمْ بجَوز؟ فإني أراها عينَ عجينِ الموز. ومشى إليها وقد عدّلَ صاحبُها أرطالَ نُحاسِه، وعلّقَ قسطاسَه من أمِّ راسِه، فقال: رَطلٌ بدرهمين، وانتهشها بالنّابَيْن، فصاح: القارعة ما القارعة. هيه! وَيلٌ للمَرءِ مِن فيه.

ورأى الزّلابية فقال: وَيلٌ لأمِّها الزّانِيَة، أبأحشائي نُسِجت، أمْ مِنْ صِفاقِ قلبي أُلِّفَت؟ فإني أجِدُ مكانَها من نفسي مَكينًا، وحَبلَ هواها على كَبدي متينًا، فمن أين وصلتْ كفُّ طابِخِها إلى باطني، فاقْتَطعَتها من رواجني؟ والعزيزِ الغفّار، لأَطْلُبَنّها بالثار، ومشى إليها، فتلّمّظَ له لسانُ الميزان، فأجفَلَ يصيحُ: الثعبان الثعبان!

ورُفِع له ثمرُ النّشَا، غيرَ مهضُومِ الحَشا، فقال: مَهْيَمْ؟! من أينَ لكم جنى نخلةِ مريم؟ ما أنتم إلّا السُّحّار، وما جزاؤكم إلّا السيفُ والنار، وهَمّ أن يأخُذ منها، فأثبتَ في صدره العصا، فجلسَ القرفصا، يُذري الدموع، ويُدي الخُشوع. وما مِنّا أحدٌ إلّا عنِ الضّحِك قد تَجَلّد. فرَقّتْ له ضُلوعي، وعَلِمتُ أنّ الله فيه غيرُ مُضيعي. وقد تَجْمُل الصّدقةُ على ذوي وَفْر، وفي كُلّ ذي كَبِدٍ رَطبةٍ أجر. فأمَرتُ الحلوانيَّ بابتياعِ أرطالٍ منها تجمعُ أنواعَها التي أنطَقَته، وتحتوي على ضُروبِها التي أضرَعته. وجاء بها وسِرنا إلى مكانٍ خالٍ طيّبٍ، كوصفِ المُهلّبي:

خانٌ تَطيبُ لباغي النُّسكِ خلوتُهُ وفيهِ سترٌ على الفُتّاك إنْ فتكوا

فصَبّها رطبةَ الوقوع، كراديسَ كَقِطَع الجُذوع، فجعلَ يقطَع ويبلع،

ويدحو فاه ويدفع، وعيناه تَبِصّان كأنهما جمرتان، وقد بَرَزتا على وجهه كأنما خصيتان، وأنا أقولُ له: على رسلكَ أبا فلان! البِطْنَة تُذهِبُ الفطنة! فلمّا التقمَ جُملةَ جماهيرِها، وأتى على مآخيرِها، ووَصَلَ خَوَرْنَقَها بسَديرِها، تَجَشّأَ فهبّتْ منه ريحٌ عقيم، أيْقَنّا لها بالعذابِ الأليم. فَنَثَرتنا شذَرَ مذَر، وفرَّقتنا شَغَرَ بَغَر، فالتَمَحنا منه الظَّربان، وصّدّقَ الخبرَ فيه العِيان، نَفحَ ذلك فشرّدَ الأنعام، ونَفَح هذا فبددَ الأنام، فلم نَجتمعْ بعدها والسلام.

فاستَحْسَناها وضحكا عليها، وقالا: إنّ لِسَجعكَ موضِعًا من القلبِ، ومكانًا من النفس، وقد أَعرتَهُ من طبعِك، وحلاوةِ لفظِك، وملاحة سَوقِك، ما أَزالَ أفنَه، ورَفَع غَينَه، وقد بلغَنا أنّك لا تُجازى في أبناءِ جِنْسِك، ولا يُمَلّ مِنَ الطّعن عليك، والاعتِراضِ لك، فمَنْ أَشَدُّهم عليك؟ قلتُ: جارانِ دارُهما صَقَب، وثالثٌ نابتهُ نُوَب، فامتطى ظهرَ النوى، وألقَتْ به في سَرَقُسطَة العصا. فقالا إلى أبي محمد تُشير، وأبي القاسم وأبي بكر؟ قلتُ: أجل. قالا: فأين بلغتَ فيهم؟ قلت: أمّا أبو محمدٍ فانتضى عليّ لسانه عند المستعين، وساعدَتْه زُرافَةٌ استهواها منَ الحاسِدين، وبلغني ذلك فأنشدتُه شعرًا منه: (من الطويل)

وبُلِّغتُ أقوامًا تَجيشُ صُدورُهم ... عَليَّ وإنّي منهُمُ فارغُ الصدرِ
أصاخُوا إلى قولي فأَسمَعتُ مُعْجِزًا ... وغاصوا على سِرّي فأعياهُمُ أمري
فقال فريقٌ: ليس ذا الشِّعرُ شِعرَهُ ... وقال فريقٌ: أيمُنُ الله لا ندري
أما عَلِموا أنّي إلى العلم طامِحٌ ... وأنّي الذي سَبْقًا على عِرقِه يجري

وما كُلُّ مَنْ قادَ الجِيادَ يَسُوسُها ولا كُلّ مَنْ أجرى يقالُ له مُجري
فمن شاءَ فَلْيَخْبُر فإنيَ حاضِرٌ ولا شيءَ أجلى للشُّكوكِ من الخبرِ

وأمّا أبو بكر فأقصرَ واقْتصرَ على قوله: له تابِعَةٌ تُؤيّدُه، وأمّا أبو القاسمِ الإفليلي فمكانُه من نفسي مكين، وحُبُّه بفؤادي دخيل، على أنه حاملٌ عليّ، ومُنتسِبٌ إليّ. فصاحا: يا أنف الناقَةِ ابن معمر، من سُكّان خيبر! فقام إليهما جِنّي أشْمطُ رَبَعَةٌ وارِم الأنفِ، يتظالعُ في مِشيتِه، كاسِرًا لطرْفه، وزاويًا لأنفه، وهو ينشُد: (من البسيط)

قومٌ هُمُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهُمُ ومنْ يُسَوّي بأنفِ النّاقَةِ الذّنبا

فقالا لي: هذا صاحبُ أبي القاسم، ما قولُك فيه يا أنفَ الناقة؟ قال: فتىً لم أعرفْ على من قَرأ. فقلتُ لنفسي: العصا مِنَ العُصيّة! إنْ لمْ تعربي عن ذاتِك، وتُظهري بعضَ أدواتِكِ، وأنت بين فُرسانِ الكلام، لم يَطِرْ لكِ بعدها طائِر، وكُنتِ غَرَضًا لكلِّ حجَرٍ عابِر. وأخذتُ للكلام أُهْبَتَه، ولَبِستُ للبيانِ بِزّتَه، فقلتُ: وأنا أيضًا لا أعرِفُ على مَنْ قرأتَ. قال: ألمثلي يُقالُ هذا؟ فقلت: فكان ماذا؟ قال: فطارِحني كتابَ الخليل، قُلتُ: هو عندي في زِنبيل، قال: فناظرني على كتابِ سيبويه. قلتُ: خَرِيَت الهرَّةُ عندي عليه، وعلى شرحِ ابن دَرَسْتوَيه، فقال لي: دعْ عنك، أنا أبو البيان، قلت: لاهَ اللهُ! إنّما أنت كَمُغَنٍّ وَسط، لا يُحسِن فيُطرب، ولا يُسيءُ فَيُلْهي، قال: لقد عَلّمَنيه المؤدّبون، قلتُ: ليس هو من شأنِهِم، إنما هو مِن تعليمِ اللهِ تعالى حيثُ قال: ﴿**الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ* عَلَّمَهُ**

﴿الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: 1-4] ليسَ من شِعرٍ يُفَسَّر، ولا أرضٍ تُكسَر، هيهات حتى يكونَ المسكُ من أنفاسِك، والعنبرُ من أنقاسِك، وحتى يكون مَساقُك عَذبًا، وكلامك رَطْبًا، ونَفَسُك من نَفْسك، وقليبك من قلبك، وحتى تتناولَ الوضيعَ فترفعه، والرفيعَ فتضَعَه، والقبيحَ فتُحَسّنه؟ قال: أسْمِعني مِثالًا، قلتُ: حتى تَصِفَ بُرْغوثًا فتقول: أسودُ زِنجيّ، وأهليٌّ وحْشِيّ، ليسَ بوانٍ ولا زُمَيْل، وكأنه جزءٌ لا يتجزّأُ من ليل، وشُونيزة أوثبتها غريزة، أو نُقطةُ مِداد، أو سُوَيداءُ قلبِ قُراد، شُرْبُه عَبّ، ومَشْيُه وثب، يَكمُنُ نهارَه، ويسري ليلَه، يُدارِكُ بطعنٍ مؤلِم، ويَستَحِلُّ دمَ كُل مُسلم، مُساوِرٌ للأساورة، يَجرُّ ذَيلَه على الجبابرة، يَتكفّر بأرفعِ الثياب، ويَهتكُ سِترَ كُلّ حِجاب، ولا يَحْفِلُ ببوّاب، يَرِدُ مناهِلَ العيشِ العذبة، ويصِلُ إلى الأحراجِ الرَّطْبة، لا يُمنَعُ منه أمير، ولا يَنفعُ فيه غيرةُ غيور، وهو أصغرُ كلّ حقير، شَرُّه مَبثوث، وعهدُه مَنكوث، وكذلك كلّ برغوث، كفى بهذا نقصًا للإنسان، ودالًّا على قدرةِ الرحمن.

وحتى تَصِفَ ثعلبًا فتقول: أدهى من عَمرو، وأفتكُ من قاتلِ حُذيفَةَ بن بدر كثيرُ الوقائع في المسلمين، مُغرى بإراقةِ دماء المؤذّنين، إذا رأى الفُرصَةَ انتهزها، وإذا طَلَبتهُ الكُماةُ أعجزها، وهو مع ذلك بُقراط في إدامِه، وجالينوس في اعتدال طعامِه، غداؤه حمام أو دجاج، وعَشاؤه تَدْرُجٌ أو دُرّاج.

قال أبو عامر: وكان فيما يُقابلُني من نادِيهِم فتىً قد رَماني بِطَرْفه، واتَّكأَ لي على كَفِّه، فقال: تَحَيُّلٌ على الكلامِ لطيفٌ وأبيك! فقلتُ: وكيفَ

ذلك؟ قال: أو ما علمتَ أنَّ الواصِفَ إذا وصَفَ شيئًا لم يتقدّمْ إلى صِفَته، ولا سلّط الكلام على نعته، اكتفى بقليلِ الإحسان، واجتزى بيسير البيان؟ لأنه لم يتقدّمْ وصفٌ يُقْرَن بوصفِه، ولا جرى مساقٌ يُضافُ إلى مساقِه، وهذه نُكتةٌ بغداديّة، أنّى لك بها يا فتى المَغرِب؟ فقلتُ لزهير: مَنْ هذا؟ قال: زُبدَةُ الحقب، صاحبُ بديع الزمان. فقلت: يا زُبدةَ الحقب، اقترح لي. قال: صِفْ جاريةً، فوَصفتُها، قال: أحسنتَ ما شئتَ أنْ تُحسِن، قلت: أسمِعْني وصفَك للماء، قال: ذلك منَ العُقْم، قلتُ: بحياتي هاته، قال: أزرقٌ كعينِ السِّنّور، صافٍ كقَضيبِ البلّور، انتُخِبَ من الفُرات، واسْتُعمِلَ بعدَ البيات، فجاء كلِسانِ الشمعةِ، في صَفاءِ الدمعة.

فقلتُ: انظره يا سيدي! كأنّه عَصِير صَباح، أو ذَوْبُ قَمرٍ لَيَاح، لهُ من إنائِهِ انصِبابُ الكوكبِ من سمائه، العَينُ حانُوتُه، والفَمُ عِفريتُه، كأنّهُ خَيْطٌ مِنْ غَزْلٍ فُلِق، أو مِخْصَرٌ يُضرَبُ به من وَرق، يُرفَعُ عنك فَتَردى، ويُصدَعُ به قلبُكَ فتحيا.

فلمّا انتهيتُ في الصفَة، ضَربَ زُبدَةُ الحِقَب الأرضَ برِجلِه، فانفَرَجَتْ له عن مثلِ بَرَهوت[1] وتدهدى إليها، واجتمعتْ عليه، وغابت عينُه، وانقطَعَ أثَرُه، فاستضْحَك الأستاذانِ من فعلِه، واشتّدّ غيظُ أنف النّاقَة عليّ فقال: وقعَتْ لك أوصافٌ في شِعرِك تظنُّ أني لا أستطيعُها؟ فقلتُ له: وحتى تصفَ عارضًا فتقول: (من الطويل)

ومُرْتَجِزٍ ألقى بذي الأثلِ كَلْكلًا ... وحَطَّ بِجَرْعاءِ الأبارِقِ ما حطّا

سعى في قيادِ الرّيحِ يُسْمِحُ للصَّبا ... فألقَتْ على غيرِ التِّلاعِ به مِرطا[2]

وما زالَ يُروي التُّربَ حتى كسا الرُّبى ... دَرانِكَ[3] والغيطانَ من نسْجِه بُسْطا
وعَنّتْ لـه ريـحٌ تُسـاقطُ قَطـرَهُ ... كما نَثَرتْ حسناءُ من جيدها سِمْطا
ولـمْ أرَ دُرًّا بدّدتْـهُ يـدُ الصَّـبا ... سِـواهُ فبـاتَ النَّـوْرُ يلقُطُـهُ لقـطا
وَبِتنا نُراعي الليلَ لـمْ نَطْوِ بُـردَهُ ... ولم يَجْرِ شَيبُ الصُّبحِ في فَرعِهِ وَخْطا
تراهُ كَمَلْكِ الزَّنْجِ في فرطِ كِـبرِهِ ... إذا رامَ مَشـيًا في تَبَختُـرِه أبْـطا
مُطِلًّا على الآفاقِ والبدرُ تاجُـهُ ... وقد عَلّقَ الجوزاءَ مِنْ أُذنِهِ قُرْطا

وحتى تَصِفَ ذئبًا فتقول: (من بحر الطويل)

إذا اجْتـازَ عُلْـوِيُّ الريـاحِ بأُفقِـهِ ... أَجـدَّ لعرفـانِ الصَّـبا يَتنفّـسُ
تـذكّرَ رَوضًـا ذا شَـوِيٍّ وبـاقرٍ ... تَولّتهُ أَحراسٌ منَ الذُّعرِ تَحرِسُ
إذا انتابها من أَذْؤُبِ القفرِ طارقٌ ... حَثيثٌ إذا ما استشْعَرَ اللحظَ يَهمِسُ
أَزَلُّ كسـا جُثمانَـهُ مُتسـتِّرًا ... طيالِسَ سودًا للدُّجى وهو أطلسُ
فـدلَّ عليـه لحـظُ خِـبٍّ مُخـادِعٍ ... تـرى نـارَهُ مِـنْ مـاءِ عينيـه تُقْـبَسُ

فصاحَ فِتيانُ الجنّ عند هذا البيتِ الأخير: زاهِ! وعَلتْ أنفُ الناقةِ كآبة، وظهرتْ عليه مهابَة، واختلطَ كلامُه، وبدا منه ساعتئذٍ بوادٍ في خطابِه، رَحِمَهُ لها مَنْ حضَر، وأشفقَ عليه من أجلِها من نَظَر، وشَمّرَ لي فتىً كان إلى جانِبِه عن ساعِد، وقال لي: وهل يَضُرُّ قريحَتك أو يَنقصُ من بديهَتِك لو تجافيتَ لأنف النّاقةِ وصبرتَ له؟ فإنّه على عِلّاتِهِ زِيرُ علمٍ وزنبيلُ فهم وكَنَفُ رِواية. فقلتُ لزهير: مَنْ هذا؟ فقال: هو أبو الآداب صاحِبُ أبي إسحاقَ بن حُمامٍ جارك. فقلتُ: يا أبا الآداب، وزهرةَ ريحانَةِ الكُتّاب،

رِفقًا على أخيكَ بِغَربِ لسانِك، وهل كان يَضُرُّ أنف الناقة، أو يَنقُص من عِلمِه، أو يَفُلُّ شَفرَة فهمِه، أن يصبِرَ لي على زَلّةٍ تَمُرُّ به في شِعرٍ أو خُطبة، فلا يهتفُ بها بين تلاميذه، ويجعلها طَرْمَذّةً من طراميذه؟ فقال: إنّ الشُّيوخَ قد تهفو أحلامُهُم في النُّدرة. فقلتُ: إنها المرّة بعدَ المَرّة. ثم قال ليَ الأستاذان عُتبةُ بن أرقم وأبو هُبَيرةَ صاحبُ عبد الحميد: إنّا لنخبِطُ منك بَيْداءِ حيرة، وتُفْتَقُ أسماعُنا منك بعِبرة، وما نَدري أنقول: شاعِرٌ أم خطيب؟ فقلت: الإنصافُ أولى، والصَّدْعُ بالحقِّ أحجى، ولا بُدّ من قضاء. فقالا: اذهب فإنّك شاعِرٌ خطيب. وانفَضَّ الجمع والأبصارُ إليَّ ناظِرة، والأعناقُ إليّ مائلة.

فهرس الآيات القرآنية

م	الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
1	فجعلناها نكالا لما بين يديها	البقرة	66	48
2	حتى يبلغ الكتاب أجله	البقرة	235	48
3	ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم	البقرة	258	49
4	ربي الذي يحيي ويميت	البقرة	258	204
5	فإن الله يأتي بالشمس من المشرق	البقرة	258	204
6	جزاء الذين يحاربون الله ورسوله	المائدة	33	208
7	فلما عتوا عن ما نهوا عنه	الأعراف	166	48
8	ليقضي الله أمرا كان مفعولا	الأنفال	44	48
9	وبئس الورد المورود	هود	98	207
10	ويسبح الرعد بحمده والملائكة	الرعد	13	47
11	مثل الجنة التي وعد المتقون	الرعد	35	48
12	أكلها دائم وظلها	الرعد	35	48-178
13	يا يحيى خذ الكتاب بقوة	مريم	12	47

14	وهزي إليك بجذع النخلة	مريم	25	47
15	وإن منكم إلا واردها	مريم	71	174-47
16	إذ رأى نارا فقال لأهله	طه	10	46
17	الله نور السموات والأرض	النور	35	47
18	والذين كفروا أعمالهم كسراب	النور	39	156-46
19	بلسان عربي مبين	الشعراء	195	46
20	سلقوكم بألسنة حداد	الأحزاب	19	182-48
21	قل هل يستوي الذين يعلمون	الزمر	9	182-48
22	أو من ينشأ في الحلية	الزخرف	18	182-48
23	فارتقب يوم تأتي السماء بدخان	الدخان	10	187-48
24	يغشى الناس هذا عذاب أليم	الدخان	11	187-48
25	يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى	الحجرات	13	48
26	إن أكرمكم عند الله أتقاكم	الحجرات	13	182-48
27	مثل الذين حملوا التوراة	الجمعة	5	47
28	القارعة* ما القارعة* وما أدراك ما القارعة	القارعة	3-1	47
	الرحمن*علم القرآن	الرحمن	4-1	242

فهرس الشعر

الصدر	القافية	الشاعر	البحر	ع. ت.	الصفحة
الألف المهموزة					
لا الراء	سواءُ	ابن الرمادي	الكامل	2	65
أيا	صفاءِ	محمد بن مسلمة	المجتثّ	4	132
يا صنو	وصفاءِ	إدريس بن اليمان	المجتثّ	9	132
طعنت	أضاءها	قيس بن الخطيم	الطويل	1	226
خليلي	فناءها	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	10	226
الألف المقصورة					
خضعت	فمضى	أبو المخشى	الرَّمَل	6	87
مَن لا	أهوى	أبو عامر ابن شُهَيد	المنسرح	4	54
حرف الباء					
قوم	الذنبا	الحطيئة	البسيط	1	141–242
نزلنا	ركبا	المتنبي	الطويل	2	164–198
طلع	لبيبا	عبد الملك بن أحمد	مجزوء الرَّمَل	2	115–200
صدود	قريبا	مروان بن أحمد	الطويل	4	120–200
ومنفر	الثياب	أبو عامر ابن شُهَيد	الكامل	8	173
وأظمأ	لعابُ	المتنبي	الطويل	1	197

أفدي	راتبْ	أبو عامر ابن شُهَيد	مُخَلَّع البسيط	3	51
ولم أنس	وحبابُها	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	4	197
كأنما	مكتوبُ	ابن الرمادي	البسيط	1	63
لم يخل	ينوبُ	ابن الحناط	الكامل	5	123
رعى	شحوبُ	ابن السراج المالقي	الطويل	3	129
لا تبكين	شاربِ	أبو عامر ابن شُهَيد	الكامل	2	199
غير أني	الأحزاب	أبو عامر ابن شُهَيد	الخفيف	2	79
وارتكضنا	الأسبابِ	أبو عامر ابن شُهَيد	الخفيف	10	230
قبلنا	الخطابِ	أبو المطرف المستظهر بالله	الوافر	4	114
إذا ما	بعصائب	النابغة الذبياني	الطويل	3	161–194
من شُهَيد	اللباب	أبو عامر ابن شُهَيد	الخفيف	2	141
ترى	رطبِ	ابن شُهَيد	الطويل	2	96
أذّن	العنب	أبو عامر ابن شُهَيد	الرَّمَل	1	157
فراح	ثيابه	أبو تمام	مجزوء الرّجز	1	42
حرف التاء المربوطة					
وذو	الجنابة	أبو عامر ابن شُهَيد	المتقارب	1	12
وذو	الجنابة	أبو عامر ابن شُهَيد	المتقارب	2	40
حرف الثاء					
دهيت	أريث	شاعر	الطويل	5	202
حرف الجيم					

أيمم	الهودجا	شاعر	المتقارب	1	147
حرف الحاء					
كلفتني	الجماحْ	حامد بن سمجون	السريع	3	72
توشح	صحاحُ	إدريس بن اليمان	الطويل	4	105
لا	بالراحِ	أبو عامر ابن شُهَيد	البسيط	1	50
يا دير	بالصاحِ	أبو نواس	البسيط	3	232
حرف الدال					
أصفيح	أزندا	أبو عامر ابن شُهَيد	الرَّمَل	15	232
شهدنا	أحمدا	أبو الأصبغ القرشي	الطويل	10	58
من كلّ	جلودُها	ابن الحناط	الكامل	2	127
ياصاحبي	هجودُ	أبو عامر ابن شُهَيد	مُخَلَّع البسيط	1	60
ماذا	حصيدُ	أبو جعفر بن جرج	مجزوء البسيط	25	60
فإن طال	سعيدُ	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	4	234
روّحني	أجدُ	ابن اللمائي	المنسرح	2	70
هذا	البلدُ	منذر بن سعيد	البسيط	3	135
ابن	لروّادِ	حسانة التميمية	البسيط	3	88
أعينا	جمادِ	أبو عامر ابن شُهَيد	المتقارب	9	228
يا سائلي	كالجلمد	بعضهم	الكامل	2	40
سيروح	مرصدِ	ابن برد الأصغر	الرَّمَل	3	92
تأمل	الندي	ابن برد الأصغر	الطويل	2	90

مَن	حَدِّي	ابن برد الأصغر	الرّجز	2	91
طال	بصدي	أبو المطرف المستظهر بالله	مجزوء الرَّمَل	5	111
حلفت	الصدودِ	ابن شُهَيد	الوافر	3	103
أمن	الأسدْ	عبد الملك بن أحمد	الطويل	3	118
حرف الذال					
أما ترى	أفذاذا	عبد الملك بن أحمد	المنسرح	6	115
حرف الراء					
حمامة	صقرا	المستظهر بالله	الطويل	4	108
أرأيت	مجمرا	المتنبي	الكامل	4	198
يا	سفيرْ	المستظهر بالله	مجزوء الكامل	2	111
إلى	ينفطرُ	ادريس بن اليمان	البسيط	2	104
لمّا بدا	بهرْ	ابن برد الأصغر	مجزوء الكامل	3	90
وترى	ستمارُ	الأفوه الأودي	الرَّمَل	1	161
وليس	اعوارُ	أبو المَخشِيّ	الوافر	1	86
ويح	رارُ	أبو عامر ابن شُهَيد	البسيط	2	201
فكأن	تامورُ	إدريس بن اليمان	الكامل	1	105
قد هجر	النفور	محمد بن مسلمة	مُخَلَّع البسيط	2	133
ما في الطلول	نستخبر	أبو عامر ابن شُهَيد	الكامل	6	27
والجامع	وينظرُ	أبو عامر ابن شُهَيد	الكامل	1	32
حَزَني	يتكررُ	أبو عامر ابن شُهَيد	الكامل	3	33

ونفّضتُ	أزورُ	عمر بن أبي ربيعة	الطويل	1	163–196
يا أهل	وأشجارُ	ابن خفاجة	البسيط	3	10
ولمّا	وزفيرُ	ابن دراج القسطلي	الطويل	8	73
لَعَمرُكَ	لَصبورُ	شاعر	الطويل	3	146
ولو ترك	كثيرُ	شاعر	الطويل	1	80
وهَمٍّ	كبيرُ	أبو المخشى	الوافر	2	84
وإنّي	سرُّ	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	1	49
أنت	بشرُ	الإفليلي أبو القاسم	المديد	2	84
يا من	مسكرُ	ابن برد الأصغر	السريع	3	92
ومن	أسمرُ	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	2	176
ومِن قُبَّة	فتَحَدَّرُ	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	5	197
وسوسن	منظرُهُ	محمد بن مسلمة	البسيط	2	131
وأترع	والوترِ	بعضهم	البسيط	2	41
ومحق	النضرِ	ابن دراج القسطلي	الرّجز	3	74
إلى	الهواجر	حسّانة التميمية	الطويل	2	88
لمّا نعى	بالصابر	ابن الحناط	السريع	2	60
ولم أرَ	مضافرِ	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	2	199
نأى	والفكرِ	أبو الأصبغ القرشي	الطويل	2	59
هما	نسرِ	أبو المخشى	الطويل	1	85
وبلغت	الصدرِ	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	6	241

يا عبرة	صفرِ	ابن ماء السماء	المنسرح	7	67
لا يبعد	والفكر	محمد الطبني	البسيط	3	134
الرق	المستظهرِ	شاعر	الكامل	2	114
تولى	الغريرِ	أبو عامر ابن شُهَيد	المتقارب	3	222
تتأيّا	جزرِه	أبو نواس	المديد	1	194
ولرب	بستوره	أبو عامر ابن شُهَيد	الكامل	7	199
ولرب	عصيرِهِ	أبو عامر ابن شُهَيد	الكامل	5	50
حرف السين					
إذا اجتاز	يتنفسُ	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	5	245
دع	الكاسي	الحطيئة	البسيط	1	141
إن للجنة	نفسِ	ابن خفاجة	الرَّمَل	3	11
تبسم	الشمسِ	أبو المطرف المستظهر بالله	الطويل	3	113
اجُل	بالتنفيسِ	ابن ماء السماء	الكامل	2	68
وابن	القناعيسِ	جرير	البسيط	1	124
ولما تملأ	العسسْ	أبو عامر ابن شُهَيد	المتقارب	5	196–163
حرف الضاد					
أمولاي	الأرضِ	عبد الملك بن أحمد	الطويل	2	117
حرف الطاء					
ومرتجز	حطا	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	8	244
حرف العين					

وجشمني	ومربعا	شاعر	الطويل	2	229
أنعم	جمعا	أبو عامر ابن شُهَيد	المنسرح	2	176
وتدري	سباعُ	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	6	162–195
صحبت	انقطاعْ	الإفليلي أبو القاسم	المتقارب	2	84
علق	ونزاع	ادريس بن اليمان	الكامل	2	105
فإن	وينفعُ	عمرو بن العاص	الطويل	1	183
وناظرة	داعي	أبو عامر ابن شُهَيد	المتقارب	6	234
يا عمرو	الراقعِ	أبو تمام	السريع	1	40
حرف الغين					
إذا رمت	لدغ	ابن ماء السماء	الطويل	3	68
حرف الفاء					
إن لآليك	صدفا	أبو عامر ابن شُهَيد	المنسرح	7	51
سقيا	أنفا	ابن الحناط	البسيط	3	56
حرف القاف					
إذا طفا	شرقا	ابن قاضي ميلة	البسيط	2	213
غناك	مرتفقا	أبو عامر ابن شُهَيد	البسيط	12	213
الله	إشفاقها	أبو عامر ابن شُهَيد	الكامل	1	199
إني امرؤ	دهاقها	أبو عامر ابن شُهَيد	الكامل	4	227
أمّا الفراق	الأرقُ	ابن الحناط	البسيط	6	56
فلو كانت	حريقُ	ابن حزم	الطويل	2	51

أتيناك	مشوقُ	بن شُهَيد أحمد	الطويل	2	200
حجبناك	صديقُ	ابن جهور	الطويل	2	96
وكم	مطوقُ	ابن السراج المالقي	الطويل	1	129
مرض	يعشقِ	أبو عامر ابن شُهَيد	الكامل	4	212
وخيل	تزلق	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	1	42
ولما	لاحقي	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	2	56
أبا عامر	الطوارقِ	أبو محمد بن حزم	الطويل	9	57
كريشة	الأرقِ	المتنبي	البسيط	1	79
وكأنني	طلقِ	أبو عامر ابن شُهَيد	الكامل	2	176
حرف الكاف					
قهقه	فبكى	عبد الملك بن أحمد	الرَّمَل	1	157
هاك	مستهلكا	عبد الملك بن أحمد	الرَّمَل	6	116
ومرنة	باكِ	يحيى بن هذيل	الكامل	4	64
أحمامة	أبكاك	ابن الرمادي	الكامل	2	64
يا كبدي	أسجمك	ابن اللمائي	السريع	4	70
حرف اللام					
يا سيدا	رسائلُه	أبو عامر ابن شُهَيد	البسيط	6	58
قد عوّد	مرتحل	صريع الغواني	البسيط	1	161–194
وقد ظللت	نواهل	أبو تمام	الطويل	2	161–194
قل	نائله	ابن الجزيري	البسيط	6	57

وفتية	نبيلُ	أبو عامر ابن شُهَيد	مُخَلَّع البسيط	9	52
على كل	ونحولُ	شاعر	الطويل	5	204
أباح	وعويلُ	أبو المطرف	الطويل	4	108
هل	زنبيلِ	أبو عامر ابن شُهَيد	الرّجز	6	53
أقلفتك	وانتضالي	ابن هبيرة	الوافر	1	85
سألت	سؤالي	أبو المخشى	الوافر	1	86
تنورتها	عالِ	امرؤ القيس	الطويل	1	144
سموت	حالِ	امرؤ القيس	الطويل	1	195–163
حلفت	بالجبال	شاعر	الوافر	1	147
قفا	الهواملِ	أبو المطرف	الطويل	2	108
تردد	بالأناملِ	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	24	235
يا خليلا	سبيلِ	الحسن بن الغليظ	الخفيف	1	129
ولما	أسيلِ	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	13	225
يا صديقي	سبيلِ	ابن السراج المالقي	الخفيف	2	129
قد عود	مرتحلِ	صريع الغواني	البسيط	1	194–161
حرف الميم					
ألمّا	سلمْ	ابن اللمائي	المتقارب	3	69
إذا زلقت	الأراقمُ	المتنبي	الطويل	1	42
أقصر	هائمُ	ابن الحناط	وزن مخترع	21	125
لمن دمن	رسوم	أبو نواس	الطويل	2	232

لمّا تنامى	والمرزمُ	إسماعيل بن يسار	السريع	2	163
إني	الديمُ	حسانة التميمية	البسيط	2	88
ألا	علمُ	ابن السراج المالقي	الطويل	2	130
وطائرة	وهمُ	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	5	174
على كل	يطعم	المتنبي	الطويل	3	198
له عسكر	جماجمُه	المتنبي	الطويل	1	162
بأربعة	بسالمِ	محمد بن وهيب	الطويل	2	133
سلام	سلامِهِ	المستظهر بالله	الطويل	7	111
وقالت	النغمِ	أبو عامر ابن شُهَيد	البسيط	2	199
أفي كل	وقديمي	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	10	228
بأبي	بظلمي	ابن برد الأصغر	مجزوء الرَّمَل	3	92
حرف النون					
لكن	هانا	شاعر	البسيط	1	167
طرحتم	بعضنا	أبو نواس	الطويل	1	144
سأشكو	بيننا	أبو نواس	الطويل	1	144
ما	المحنَةِ	الزبيري	السريع	2	106
سرّني	غصونه	عبد الملك بن عمر	مجزوء الرَّمَل	4	119
تأمل	كمينُ	ابن السراج المالقي	الطويل	2	130
غنى	بيان	ابن اللمائي	مجزوء الكامل	2	69
فأتبعته	مكانِ	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	1	12-41

وعمم	تبتدران	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	1	41
بفيك	عداني	ابن برد الأصغر	الوافر	9	59
شكوت	الزمانِ	أخو أبي عامر	المتقارب	3	89–200
فيا من	المعاني	أخو أبي عامر	المتقارب	4	202
أمولاي	القمرانِ	عبد الملك بن أحمد	الطويل	3	117
أقصرت	شأني	عبد الملك بن أحمد	السريع	2	115
هلا	الوزيرين	أبو عامر ابن شُهَيد	السريع	9	81
حرف الهاء					
وإلى	أتاها	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	3	223
خليلي	فناءها	أبو عامر ابن شُهَيد	الطويل	2	226
أيها	ولها	أبو عامر ابن شُهَيد	الرَّمَل	3	233
أقبل	أفواهِ	عبد الملك بن عمر	السريع	3	119
أبو جعفر	الخطابهْ	أبو عامر ابن شُهَيد	المتقارب	4	213
ويلي	اللاهي	عبد الملك بن عمر	السريع	4	200
حرف الياء					
مرة	يحتويها	محمد بن مسلمة	مجزوء الرَّمَل	7	131
عجوز	الغانية	أبو عامر ابن شُهَيد	المتقارب	1	5–36–38
عجوز	الغانية	أبو عامر ابن شُهَيد	المتقارب	6	191
أمن	غارِيْ	أبو عامر ابن شُهَيد	البسيط	6	70

فهرس أنصاف الأبيات

منازلهم تبكي إليك عفاءها	أبو عامر ابن شُهَيد	226
ما على الركب من وقوف الركابِ	البحتري	230
هذه دار زينبٍ والرّباب	أبو عامر ابن شُهَيد	230
قريب بمحتل الهوان بعيد	أبو عامر ابن شُهَيد	234
سما لكَ شوق بعد ما كان أقصرا	امرؤ القيس	140، 224
شجته مغانٍ من سليمى وأدؤرُ	أبو عامر ابن شُهَيد	226
أبكيت إذ ظعن الفريق فراقَها	أبو عامر ابن شُهَيد	227
لسعدى بحزان الشريف طلولُ	طرفة بن العبد	140، 225
أبرق بدا أم لمع أبيض قاصل	أبو عامر ابن شُهَيد	235
أمن رسم دار بالعقيق محيلِ	أبو عامر ابن شُهَيد	225
طرحتم من الترحال أمرا فغمّنا	أبو نواس	232
هاتيك دارهم فقف بمغانها	أبو عامر ابن شُهَيد	236

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. أبحاث ودراسات في الشعر الأندلسي تأليف: د. محمد عويد الساير.
3. دار الكتب العلمية – ط1 – 2014م.
4. أبحاث في الفكاهة والسخرية (الورشة الرابعة) – تنسيق: أحمد الشايب – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – أكادير – ط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر – الرباط – ط1 – 2013م.
5. الأدب الأندلسي (القضايا والظواهر) تأليف: أ. د. قاسم الحسيني – المطبعة الحسنية – سلا – ط1 – 2007م.
6. الأدب الأندلسي – د. سامي يوسف أبو زيد – دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة – ط1 – 2012م.
7. الأدب العربي في الأندلس – د. علي محمد سلامة – الدار العربية للموسوعات – ط1 – 1989م.
8. البديع في فصل الربيع لأبي الوليد إسماعيل الحِميري – تح: د. علي إبراهيم كردي – دار سعد الدين – دمشق – ط1 – 1997م.
9. البديع في وصف الربيع لأبي الوليد إسماعيل الحِميري – تح: هنري بيريس – مكتبة الثقافة الدينية – ط1 – 2002م.
10. الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي – بعناية عبدالرحمن المصطاوي – دار إحياء التراث العربي – ط1 – 2010م
11. ابن شُهَيد الأندلسي أديبًا وناقدًا – محمد سعيد محمد – منشورات جامعة سبها – طرابلس – 1988م.

12. إعتاب الكتاب لأبي عبد الله محمد بن عبد الله، المعروف بابن الأبار – تحقيق: صالح الأشتر – دار الأوزاعي – بيروت – ط2 – 1986م.
13. الأعلام للزركلي – دار العلم للملايين – بيروت.
14. الأندلس (الإنسان والمكان) – تأليف: د. قاسم الحسيني – ط1 – الرباط – 2007م.
15. الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام للعباس السملالي المراكشي – راجعه: عبد الوهاب بن منصور – المطبعة الملكية – الرباط – ط3 – 2007م.
16. التذكرة السّعدية في الأشعار العربية للعبيدي – تح: د. عبد الله الجبري – دار الكتب العلمية – ط1 – 2001م.
17. التذكرة الفخرية للصاحب بهاء الدين الإربلي – تح: حاتم صالح الضامن – دار البشائر – دمشق – ط1 – 2004م.
18. التكملة لكتاب الصلة لأبي عبد الله ابن الأبار – تح: د. بشار عواد معروف – دار الغرب الاسلامي – تونس – ط1 – 2011م.
19. التهذيب بمحكم الترتيب لابن شُهَيد الأندلسي – تح: د. علي حسين البواب – مكتبة المعارف العامة للنشر والتوزيع – الرياض – ط1 – 1999م.
20. إحكام صنعة الكلام لأبي القاسم الكَلاعيّ – تح: محمد رضوان الداية – دار الثقافة – بيروت – 1966م.
21. الحُلل السندُسية في الأخبار والآثار الأندلسية للأمير شكيب أرسلان – منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت – بدون تاريخ.
22. الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية بقلم الأمير شكيب أرسلان – دار الكتب العلمية – بيروت – ط1 – 1979م.

23. الحلة السيراء لابن الأبار – تح: د. حسين مؤنس – منشورات: دار المعارف – القاهرة – 1985م.
24. الحماسة البصرية لصدر الدين البصري – تح: مختار الدين حسن – عالم الكتب 1983م.
25. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن بن بسّام الشنتري – المجلد الأول – تقديم: د. طه حسين بك – جامعة فؤاد الأول – كلية الآداب – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة 1939م.
26. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – لأبي الحسن علي بن بسّام – تح: د. إحسان عباس – دار الغرب الإسلامي – بيروت – ط1 – 2000م.
27. الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصّلة لأبي عبد الله المراكشي – تح: د. إحسان عباس وآخرين – دار الغرب الإسلامي – تونس – ط1 – 2012م.
28. الروض المِعطار في خبر الأقطار لمحمد بن عبد المنعم الحِميري – ت: إحسان عباس – مكتبة لبنان – 1974م.
29. السّيرة النبوية لابن هشام – تح: عمر عبدالسلام تدمري – منشورات: دار الكتاب العربي – بيروت – ط1 – 1987م.
30. الشعر السياسي الأندلسي في عصر ملوك الطوائف – د. محمد شهاب العاني – دار دجلة – الأردن – ط1 – 2010م.
31. الشعر الأندلسي في عهد الطوائف – تأليف: هنري بيريس – ترجمة: د. الطاهر أحمد مكي – دار المعارف بمصر – ط1 1988م.
32. الشعر والشعراء لابن قتيبة – راجعه: محمد عبدالمنعم العريان – ط5 – منشورات: دار إحياء العلوم – بيروت، 1994م.

33. الغربة والحنين في الشعر الأندلسي لفاطمة طحطح – منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس – الرباط – ط1 – 1993م.
34. الغيث المسجم في شرح لامية العجم لخليل الصفدي – دار الكتب العلمية – ط1 – 1975م – بيروت.
35. في أدب الأندلس وتاريخها – محاضرات ليفي بروفنسال – ترجمة: محمد عبدالهادي شعيرة – المطبعة الأميرية بالقاهرة – 1951م.
36. المُغرِب في حُلى المَغرِب – تح: د. شوقي ضيف – الناشر: دار المعارف – القاهرة – ط4.
37. القبائل العربية في الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية – د. مصطفى أبو ضيف أحمد – دار النشر المغربية – الدار البيضاء – 1983م.
38. الكامل في التأريخ لابن الأثير – دار صادر – بيروت – 1979م – دون طبعة.
39. الكامل في التأريخ لابن الأثير – مراجعة نخبة من العلماء – دار الكتاب العربي – بيروت – ط6.
40. المُحمَّدون من الشعراء وأشعارهم – علي بن يوسف القفطي – تح: حسن معمري – بإشراف شارل بلا – جامعة باريس – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – 1970م.
41. المختار من الشعر الأندلسي – د. محمد رضوان الداية – دار الفكر – دمشق – ط3 – 1992م.
42. المختار من شعر بشّار – اختيار الخالديين – شرح: أبو الطاهر إسماعيل التجيبي البرقي – بعناية: السيد محمد بدر الدين العلوي – مطبعة الاعتماد 1934م.
43. المختار من شعر شعراء الأندلس لابن الصيرفي – تح: د. عبدالرزاق حسين – دار البشير – عمّان – ط1 – 1985م.

44. المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان لابن هشام اللخمي الأندلسي – تح: مأمون بن محيي الدين – دار الكتب العلمية – بيروت – ط1 – 1995م.
45. المطرب من أشعار أهل المغرب لأبي الخطاب الكلبي – ضبطه: د. صلاح الدين الهواري – المكتبة العصرية – بيروت – ط1 – 2008م.
46. المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي – تح: محمد العريان ومحمد العربي – دار الكتاب – الدار البيضاء – ط7 – 1978م.
47. المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي – تح: د. صلاح الدين الهواري – المكتبة العصرية – بيروت – ط1 – 2006م.
48. المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب – جزء من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري – الجزائر – 1857م – يطلب من مكتبة المثنى بغداد.
49. المُقتَبَس في أخبار بلد الأندلس لأبي مروان حيان بن خلف الأندلسي – شرحه: د. صلاح الدين الهواري – المكتبة العصرية – بيروت – ط1 – 2006م.
50. النثر الفني في القرن الرابع – د. زكي مبارك – 1924م.
51. النصّ والسّياق (دراسة لرسالة التوابع والزوابع) – تأليف: بو شعيب الساوري – الناشر: مشترك (سوريا – الجزائر) ط1–2013م.
52. بدائع البدائه لعلي بن ظافر الأزدي الخزرجي – ضبطه: مصطفى عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت – ط1 – 2007م.
53. بغية الملتمِس في تأريخ رجال الأندلس لابن عميرة الضبي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 2008م.
54. بغية الملتمس في تأريخ رجال أهل الأندلس لابن عميرة الضبي – تح: روحية عبدالرحمن – دار الكتب العلمية – بيروت – ط1– ت 1997م.

55. بغية الوعاة لجلال الدين السيوطي – تح: د. علي محمد عمر –مكتبة الخانجي – القاهرة – ط1 – 2005م.
56. تاريخ ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون – عناية: عادل بن سعد – دار الكتب العلمية – بيروت – ط1 – 2000م.
57. تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين – ترج: د. عرفة مصطفى – مطبعة بهمن – قم – ط2 – 1413هـ. ق.
58. تاريخ إسبانيا الإسلامية للسان الدين بن الخطيب – تح: أ. ليفي بروفنسال – مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – 2011م.
59. تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية – مطبعة التوفيق – ط1 –طبع على نفقة منصور الكتبي – القاهرة – بدون تاريخ.
60. تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان – ترجمة: د. السيد يعقوب بكر – دار المعارف – جامعة الدول العربية – ط2 – 1983م.
61. تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات – الأندلس) د. شوقي ضيف – دار المعارف – القاهرة – ط5 – 2009م.
62. تاريخ الأدب الأندلسي – د. إحسان عباس – دار الشروق للنشر والتوزيع – عَمّان – ط4 – 2011م.
63. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للحافظ شمس الدين الذهبي – تح: مجموعة – المكتبة التوفيقية – مصر – بدون تاريخ.
64. تاريخ النقد الأدبي في الأندلس – تأليف: د. محمد رضوان الداية – مؤسسة الرسالة – ط2 – 1981م.
65. تاريخ علماء الأندلس لابن الفَرَضي تقديم: د. ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 2008م.

66. تاريخ الفكر الأندلسي لآنخل بالنثيا – ترجمة: د. حسين مؤنس – مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – 2008م.
67. تاريخ الوزارة في الأندلس – تأليف: د. أسامة عبد الحميد السامرائي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط1 – 2012م.
68. تجديدات الأندلسيين في النثر العربي للدكتور إبراهيم بن موسى السهلي – كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى – ط1 – 1999م.
69. ترجمان الأشواق للشيخ الإمام محيي الدين بن عربي – دار صادر – بيروت – 1966م.
70. جدلية التأثر والتأثير بين رسالة التوابع والزوابع لابن شُهَيد الأندلسي ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري « محاكمة النقد العربي » – (مقال) – د. زاهر بن بدر الغسيني – حوليات الآداب واللغات – كلية الآداب واللغات – جامعة محمد بو ضياف – الجزائر – مجلد: 5 – عدد:10 – فيفري 2010م.
71. جَذوة المُقتَبِس في تأريخ علماء الأندلس للحُميدي – تح: إبراهيم الأبياري – دار الكتاب اللبناني – بيروت – ط2 – 1983م.
72. جَذوة المُقتَبِس في ذكر ولاة الأندلس للحُميدي – تقديم: د. صلاح الدين الهواري – المكتبة العصرية – بيروت – ط1 –2004م.
73. جَذوة المُقتَبِس في ذكر ولاة الأندلس للحُميدي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – تقديم: د. ناصر الأنصاري – 2008م.
74. جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي – منشورات – دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت – 1984م.
75. جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام لأبي زيد القرشي – تح: علي محمد البجاوي – منشورات نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

76. خريدة القصر وجريدة العصر تأليف: عماد الدين الأصفهاني – قسم شعراء الأندلس – مج: 20 – مطبوعات: المجمع العلمي العراقي.
77. خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب والأندلس – تحقيق: آذر تاش آذر نوش – ط2 – الدار التونسية للنشر – 1986م.
78. ديوان ابن حزم الأندلسي – جمع وتحقيق: عبدالعزيز إبراهيم – منشورات: دار صادر – بيروت – ط1 – 2010م.
79. ديوان ابن خفاجة – دار صادر – بيروت – بدون تاريخ.
80. ديوان أبي تمام – تقديم وشرح: د. محيي الدين صبحي – منشورات: دار صادر للطباعة والنشر –بيروت – ط2 – 2008م.
81. ديوان ابن زيدون – تحقيق وشرح: كرم البستاني – مكتبة صادر – بيروت – 1951م.
82. ديوان ابن شُهَيد الأندلسي ورسائله – تح: د. محيي الدين ديب – المكتبة العصرية – بيروت – ط1 – 1997م.
83. ديوان ابن شُهَيد الأندلسي – تح: يعقوب زكي – راجعه: د. محمود علي مكّي – دار الكتاب العربي – القاهرة.
84. ديوان أبي الصوفي سعيد بن مسلم العماني – ت: الدكتور حسين نصار – منشورات: وزارة التراث القومي والثقافة – سلطنة عمان – مطبعة عيسى الحلبي – مصر – 1982
85. ديون أبي نواس – تح: أحمد عبد المجيد الغزالي – دار الكتاب العربي – بيروت – 1984م.
86. ديوان البحتري – منشورات: دار صادر – بيروت – بدون تاريخ.

87. ديوان الستالي أبوبكر أحمد بن سعيد الخروصي – تح: عزالدين التنوخي – منشورات: وزارة التراث القومي والثقافة – سلطنة عمان – أمون للتجليد والطباعة – مصر 1983م

88. ديوان امرئ القيس – شرحه: هيثم جمعة هلال – دار مكتبة المعارف – بيروت – ط1 – 2012م.

89. ديوان صفي الدين الحلي – منشورات دار صادر – بيروت – بدون تاريخ.

90. ديوان طرفة بن العبد – دار صادر – بيروت – تقديم: كرم البستاني. بدون تاريخ.

91. ديوان عمر بن أبي ربيعة – تح: د. فوزي عطوي – دار صعب بيروت – بيروت – 1980م.

92. ديوان قيس بن الخطيم – تح: ناصر الدين الأسد – منشورات: دار صادر بيروت – 1967.

93. ديوان النابغة الذبياني – تح: فوزي عطوي – منشورات: دار صعب – بيروت – 1980م

94. ديوان النمر بن تولب العكلي – جمع وتح: د. محمد نبيل طريفي – ط1 – 2000م – دار صادر – بيروت.

95. رايات المبرزين وغايات المميزين لأبي الحسن علي بن موسى الأندلسي – تح: د. محمد رضوان الداية – دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر – ط1 – 1987م.

96. رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي – تأليف: د. مهجة أمين الباشا – الناشر: شراع للدراسات والنشر والتوزيع – دمشق – سوريا – ط1 2003م.

97. رسالة التوابع والزوابع لابن شُهَيد الأندلسي – تح: بطرس البستاني – دار صادر بيروت – ط3 – 2010م.

98. شرح ديوان أبي العتاهية – منشورات دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تاريخ.
99. شرح ديوان المتنبي – وضعه عبد الرحمن البرقوقي – دار الكتاب العربي – بيروت.
100. شرح مقامات الحريري لأبي العباس الشُّريشي – تح: محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – بيروت – 1992م.
101. عوامل الإبداع في أدب ابن شُهَيد الأندلسي (رسالة ماستر) – إعداد: محمد عبد الله الصلاحي – جامعة محمد الخامس – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – 2014م.
102. في الأدب الأندلسي – تأليف: د. محمد رضوان الداية – دار الفكر – دمشق – ط3 – 2009م.
103. قلائد العقيان ومحاسن الأعيان لابن خاقان الإشبيلي – تح: د. حسين يوسف خربوش – عالم الكتب الحديث – إربد – الأردن – ط1 – 2010م.
104. كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكناني الطبيب – تح: د. إحسان عباس – دار الشروق – بيروت – ط2 – 1981م.
105. كتاب الحلة السيراء لابن الأبّار – تح: د. حسين مؤنس – دار المعارف – ط2 – 1985م.
106. كتاب الصلة في تأريخ علماء الأندلس لابن بشكَوال – اعتنى به: د. صلاح الدين الهواري – شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع – المطبعة العصرية – ط1 – 2003م.
107. كتاب الصّلة لابن بشكَوال ومعه كتاب صلة الصّلة لأبي جعفر الغرناطي – تح: شريف أبو العلا العدوي – مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – ط1 – 2008م.

108. كتاب الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي – باعتناء: وداد القاضي – جمعية المستشرقين الألمانية – ط2 – 1991م.
109. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة – دار إحياء التراث العربي – بيروت.
110. لمح السحر من روح الشِّعر ورَوح الشِّحْر لسعيد بن ليون التجيبي – تح: د. سعيد بن الأحرش – المجمع الثقافي – أبوظبي – 2005م.
111. مباهج الأندلس د. محمد بن عبد الرحمن البشر – دار الكتاب العلمية – بيروت – ط1 – 2012م.
112. مجمع الآداب في معجم الألقاب لابن القوطي الشيباني – تح: محمد الكاظم – منشورات وزارة الثقافة والإرشاد الاسلامي – قم – إيران – ط1 – 1416هـ.
113. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري – دار الكتاب العلمية – بيروت – تح: كامل سلمان الجبوري – ط1 – 2010م.
114. مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلح أهل الأندلس للفتح ابن خاقان – تح: د. هدى شوكت بهنام – دار الكتاب العلمية – بيروت – ط1 – 2014م.
115. معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت الحموي – تح: د. إحسان عباس – دار الغرب الإسلامي – تونس ط1 – 1993م.
116. معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت الحموي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط1 – 1991م.
117. معجم البلدان لياقوت الحموي – دار الفكر – دار صادر – بيروت.
118. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لعبد الله البكري الأندلسي – تح: مصطفى السقا – ط3 – منشورات: عالم الكتب – بيروت – 1983م.

119. منهج البحث الأدبي في الأندلس – د. أحمد حاجم الربيعي – الدار العربية للموسوعات – بيروت – ط1 – 2010م.
120. نفح الطيب من غصن الأندلسي الرطيب للمقّري التلمساني – تح: د. إحسان عباس – دار صادر – بيروت – ط5 – 2008م.
121. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان – تح: د. إحسان عباس – دار الثقافة – بيروت.
122. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي – تح: د. مفيد محمد قميحة – دار الكتب العلمية – بيروت – ط1 – 1982م.
123. المعاجم
124. أساس البلاغة للزمخشري – ضبط وشرح: د. محمد نبيل طريفي – دار صادر – بيروت – ط1 – 2009م.
125. الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري – تح: أحمد عبد الغفور عطار – دار العلم للملايين – بيروت – ط2 1979م.
126. كتاب العين للخليل الفراهيدي – تح: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي – مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت – ط1 – 1988م.
127. القاموس المحيط للفيروز أبادي – المؤسسة العربية للطباعة والنشر – بيروت.
128. المعجم الوسيط – لجنة – مكتبة نشر الثقافة الإسلامية – ط5.
129. لسان العرب لابن منظور – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط1 – 1996م.

فهرس المحتويات

إهداء 5

مقدمة 7

منهج البحث 15

جمع المادّةِ العلميّةِ 15

تقسيمُ أبوابِ الكتابِ 15

الكتاب الأول: أبو عامر ابن شُهَيد 21

مدخل 21

نبذة عن الأندلس 22

فتح المسلمين لبلاد الأندلس 24

قرطبة 27

أعماله 35

حياته 35

زمن الفتنة 35

1-1 أبو عامر عند مجموعة من المؤلفين 36

مع الحُميديّ في كتابه «جَذوة المُقتَبِس» 36

في كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» 37

الشعر 38

1-2 تأثره بالقرآن الكريم في أدبه النثري 46
1-3 حكايات ونصوص 49
1-4 كرمه وجوده 54
1-5 في مدح أبي عامر ابن شُهَيد 56
1-6 ما رُثِيَ به 58
مصادر كتاب «حانوت عطّار» 61

الكتاب الثاني: الأعلام 63
1. ابن الرمادي 63
2. ابن فاكان 66
3. ابن ماء السماء 66
4. أبو جعفر بن اللمائي 69
5. أبو جعفر بن جواد 72
6. أبو ساكن حامد بن سمجون 72
7. أبو عمر ابن دراج القسطلي 73
8. أبو القاسم الإفليلي 76
9. أبو المَخْشِيّ 84
10. أخو أبي عامر ابن شُهَيد 89
11. أحمد بن برد الأصغر 90
12. أحمد بن عباس 93

13. أحمد بن عبد الملك ابن شُهَيد 95
14. إدريس بن اليمان 103
15. الزبيري 106
16. الناجم 106
17. عبد الرحمن أبو المطرّف 107
18. عبدالرحمن أبو المطرف المستظهِر بالله 108
19. عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك ابن شُهَيد 114
20. عبد الملك بن عمر من أجداد أبي عامر 119
21. عمُّ أبي عامر ابن شُهَيد 120
22. محمد بن سعيد التاكرني 121
23. محمد بن سليمان الرُّعَيني 122
24. محمد بن السراج المالقي 128
25. محمد بن الطايف 130
26. محمد بن مسلمة أبو عامر 130
27. محمد بن وهيب 133
28. محمد بن يحيى الطُّبْنيّ 134
29. مسلمة بن عبد الملك 134
30. منذر بن سعيد القاضي 134
31. يحيى بن حزم 135
32. يحيى بن هشام المرواني 136

الكتاب الثالث: النقد 137
تقديم 137
1. الصور النقدية 139
مع الإسلاميين 141
النقد النثري 142
نصوص نقدية 143
فصل: الفهم والبيان 143
فصل: البيان 143
فصل 145
فصل 145
فصل في طريقة تعليم البيان 146
فصل 147
فصل: البيان والمكان والزمان 148
فصل: تصنيف أصحاب الكلام 149
في تحريك البخلاء من الكبراء 151
فصل 151
فصل 153
فصل في صفة كاتب الملوك 154
فصل 155

فصل 156
فصل 157
فصل في كتابته 157
فصل في نقد كتابته: على لسان الجاحظ 158
فصل في نقد كتابته: على لسان عبد الحميد الكاتب 159
فصل على لساني: الجاحظ وعبد الحميد 160
يصف أدبه: على لساني الجاحظ وعبد الحميد 160
فصل 161
الكتاب الرابع: الوصف والتشبيهات مع مقتطفات أدبية 165
تقديم 165
فصول من نثر أبي عامر في الوصف والتشبيهات 167
مقتطفات أدبية 182
فصل 182
فصل 182
فصل 183
فصل في طب التجميل 183
فصل 184
فصل: جواب على خطاب 184
فصل: قطعة أدبية 185

فصل في التحذير من خالد الفَرَضي ـ الكيميائي 186
فصل أيضًا في وصف أبي عبد الله الفَرَضي 187
فصل 188
فصل 189
فصل 189
في منازل أبي نواس 189
في وادي الجن 190
حبّه لقرطبة 191

الكتاب الخامس: مجلس الجن 193
1-1 تقديم 193
1-2 النص 193

الكتاب السادس: أخبار البخور من الحانوت 207
الكتاب الذي أنشئ عند الظفر بعبد الله بن المنصور وقتله 207

خاتمة 215
تخيله لحدوث القصيدة الحرّة 219
ملحق رسالة التوابع لابن شُهَيد 221
قال في صدرها مخاطِبًا أبا بكر ابن حزم 221
فهرس الشعر 249
المصادر والمراجع 261